

رواية شبه حقيقية

بهروت 1982

ABU ABDO ALBAGL

غسان شبّارو



بهروت 1982

غسان شبارو



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي
والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى
أو حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 3-037-87-9953-978 ISBN

Beirut 1982
Real-Fiction
Arabic Language

جميع الحقوق محفوظة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

إهداء

إلى كل من استشهد،

إلى كل من أصيب،

إلى كل من تصدّى،

إلى كل من صمد،

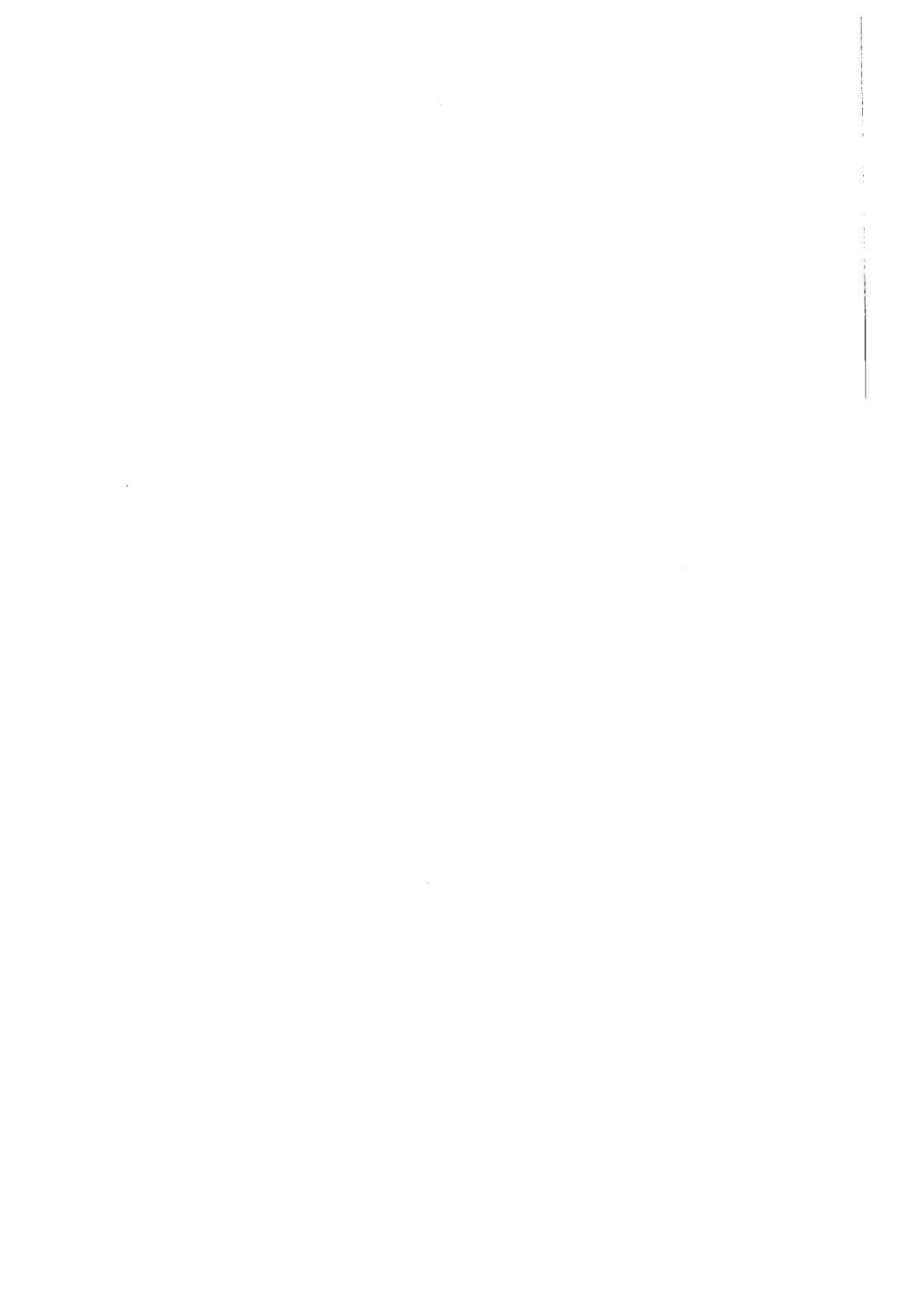
إلى كل من عانى حصار بيروت في صيف

العام 1982،

أسطُرُّ لِحَاتٍ مِنْ مَلْحَمَةِ بَقَاءِ سَيِّدَةِ الْعَوَاصِمِ.

غسان

رواية شبه حقيقية في إطار خيالي يتفاعل ويتماهى
أبطالها الافتراضيون الذين لا يمتّون وأسماءهم
إلى الواقع بأي صلة، مع شخصيات وأحداث
معاصرة موثّقة كان لها تأثير على مسار
تاريخ لبنان الحديث خلال الغزو الإسرائيلي له
وحصاره واقتحامه لعاصمته بيروت
في العام 1982



المشهد الأول

4 حزيران/يونيو - 25 حزيران/يونيو

1

تقع الجامعة الأميركية في بيروت في منطقة رأس بيروت الراقية، وهي تشكّل منذ العام 1866 صرحاً علمياً مهماً في لبنان والشرق الأوسط، يخرّج أجيالاً من الشبان والشابات الفاعلين والمؤثرين في مجتمعاتهم، نتيجة للمستوى التعليمي الرفيع وللحرية الثقافية والاجتماعية التي ينعم بها طلابها.

نهار الجمعة هذا، الموافق الرابع من حزيران/يونيو 1982، كان حرم الجامعة يعجّ بالطلاب الذين يستعدّون لنهاية عامهم الجامعي، يناقشون ويراجعون مع أساتذتهم المواضيع التي يدرّسون ورودها في اختبارات نهاية العام.

في الغرفة رقم 204 من مبنى "نايسلي هول" وقف أستاذ الفيزياء البروفسور سامي شومان يجيب عن أسئلة طلابه بروح مرحة.

- لا شك أن مسائل حول نظرية الكم Quantum ستكون ضمن الأسئلة. قالت الطالبة دينا، متفحصة عيني البروفسور علّها تكتشف الجواب الشافي.

- ابتسم بروفسور شومان وغمز كالعادة: صحيح سيكون هناك سؤال عن نظرية الكم، ولكنه سيكون بشكل أحجية.
- شكراً أستاذ. علّقت دينا مبتسمة: لا شك أنه سيكون اختباراً مسلياً.

- تدخل الطالب راشد: الله يستر. وحدهج البروفسور بنظرة ماكرة رافعاً يده في الهواء قائلاً: أتمنى ألف مرة أن تسألنا سؤالاً مباشراً على أن ترمي أحد ألغازك التي لا حل لها.

- لا تخف يا راشد، أنا قلبي رقيق. ردّ البروفسور مبتسماً: ولكني أحبكم كثيراً وأريد لتفكيركم العلمي أن يتخطى كتبكم وينتقل إلى العالم الحقيقي. ختم غامزاً راشد.

- ابتسم راشد قائلاً: الله يحفظك يا بروفسور، ولكن...

هنا دوى انفجار قوي انتفض لعنفه الطلاب. هذا جدار الصوت. علّق راشد: الآن سنسمع الانفجار الثاني حالاً، على كل، كما كنت أقول لك بروفسور...

وهنا وقع انفجار ثانٍ... وثالث ورابع وعدة انفجارات متتالية في وقت واحد. أسرع الجميع نحو نوافذ الفصل مستطلعين الأجواء. وهناك على ارتفاع شاهق كانت ثلاثة مثلثات فضية اللون تخترق السماء تاركة وراءها أذياً طويلاً بيضاء اللون، أما صوت هديرها فكان بعيداً جداً. انسحب البروفسور عن النافذة قائلاً: بما أن أصوات الانفجارات لا زالت مرتفعة، فلا بد من وجود مجموعة أخرى من الطائرات تقوم بالقصف، بينما يقم هذا السرب غطاءً جويًا لها، مستطرداً: وهذا يعني أنها عملية كبيرة، وليست عملية "أضرب واهرب"، بل إنها عملية تحدّ وصلافة وتعدّ.

- اقتربت إحدى الطالبات من البروفسور وهي ترتجف: أريد أن أعود إلى البيت، أنا أسكن في شرق بيروت وسيقلق أهلي عليّ. مع ارتفاع وتيرة الانفجارات، تحلّق المزيد من الطلبة حول البروفسور طالبين الإذن بالمغادرة.

- حسناً، حسناً. قال البروفسور وقد عقد حاجبيه الكثيفين: سأدعكم جميعاً تذهبون الآن على مسؤوليتي، بدون أن أستشير الإدارة، مع السلامة وأراكم غداً.

2

خرج العقيد "أبو الطيب" إلى شرفة البناء الذي يتخذة مكتباً في منطقة الرملة البيضاء مستقصياً مكان الانفجارات، فشهد عمود الدخان الأسود فوق المدينة الرياضية يتدفق موجة إثر موجة، بينما طائرات الفانتوم الإسرائيلية تحوم في الجو مطلقاً بالوناتها الحرارية، ونيران المضادات الأرضية تلمع في الجو بألوان خضراء وصفراء محاولة دون جدوى إصابتها. فجأة انقضت إحدى الطائرات وعُنف إطلاق الرشاشات عليها، وبلحظة ارتفعت الـ F16 إلى كبد السماء زارعة وراءها أربعة انفجارات رهيبية، بينما عاصفة من النيران المضادة تلاحقها.

التفت "أبو الطيب" إلى الملازم بجانبه على الشرفة صارخاً: "أبو عصام"، اطلب لي "أبو عوض".

النقيب "أبو عوض" هو قائد كتيبة الدفاع الجوي في قوات الـ 17، ومركز قيادته في مخيم مار الياس.

- "أبو عوض" زعق "أبو الطيب" في جهاز اللاسلكي العامل على

موجة VHF: لماذا لا تشغلون مضادات الـ 100 ملم؟

- 5 دقائق وتسمعها تزغرد كالعادة. طمأنه "أبو عوض": لقد

وصلت الذخائر الآن ونحن نجهز المدفع للعمل في هذه اللحظة.

- هزّ "أبو الطيب" رأسه قائلاً: حسناً، حسناً، الله يحميك، مع

السلامة.

كان الدخان والغبار يملآن الجو المشبع برائحة البارود والحرائق، وقد تأخر النقيب "أبو عوض" في تشغيل مدفعي الـ 100 ملم لانشغاله بنقلهما من مكانهما الأصلي إلى مكان مختلف، خوفاً من أن يكون الإسرائيليون قد تمكّنوا من تحديد موقعهما مسبقاً لقصفهما، وهذا ما حدث بالفعل، إذ أن الغارة الثانية استهدفت مربيضي الـ 100 ملم

السابقين وهكذا لم يتضرّرا، ولكن سقط له 6 شهداء و3 جرحى أثناء نقلهم الذخائر من أحد المربضين السابقين إلى موقعهما الجديد.

- يا الله يا شبان، صرخ "أبو عوض": لقموا المدفع واستعدّوا.

وجوه الشبان كانت موحلة، من أثر الغبار والرمال التي التصقت بالعرق المتصبب من جباههم وذقونهم، بينما كان الشرر يتطاير من عيونهم غضباً وهي تنتقل عبر السماء باحثة عن العدو الإسرائيلي.

3

تمّ تشييد بناية وهبه في العام 1959 وهي مؤلفة من ثلاثة أدوار وكل طابق فيها يتكوّن من شقتين، وهي تقع في منطقة المصيطبة، في غرب بيروت، مطلةً على كورنيش المزرعة شمالاً وعلى سوق الخضار جنوباً.

وقف "أبو عبد الله" خلف نافذة بيته المفتوحة في الطابق الثالث الجنوبي فاغراً فاه دهشةً وواضعاً يديه فوق أذنيه وقد أحنى ظهره إلى الأمام، ووقفت خلفه زوجته زينب حاملة طفلهما ذا الأشهر الأربعة وقد تحلّقت حولها بناتها الثلاث الباقيات واللواتي لم تتجاوز أكبرهن "ملاك" السنوات الست.

كان صوت هدير الطائرات الحربية هو المسيطر، أما الدخان فكان يغطّي أوتوستراد المدينة الرياضية، ولكن في موقع المدينة الرياضية بالذات الدخان كان مختلفاً. دخان أسود ينبع ويتوالد موجةً إثر موجة ليرتفع عموداً أسود عالياً. فجأة يلمح "أبو عبد الله" أربعة أجسام سوداء اللون تسقط فوق المدينة الرياضية، فيومض محيطها بألف لون ولون ليتبعها مباشرة هدير طائرة ثم أربعة انفجارات مروعة، هنا ارتفعت ألسنة النار مجدداً من تحت عمود الدخان مكثفة موجات الدخان الأسود ومسرّعة من وتيرة تدفقها.

- بابا، بابا. صرخت ملاك مشيرة إلى عمود الدخان الأسود: إنه يشبه عفريت المصباح السحري في قصة علاء الدين أليس كذلك؟
- شهق "أبو عبد الله" صائحاً: بسرعة، بسرعة، لننزل إلى الملجأ قبل أن يقترب القصف إلينا.
- أسرعت زينب نحو باب المنزل تحمل طفلها ووراءها بناتها الثلاث قائلة: "أبو عبد الله" أحضر معك طعام الياس وحفاضاته.
- أحضر "أبو عبد الله" رضاعة طفله الياس مختلساً النظر من النافذة، فرأى النيران لا تزال مستعرة في محيط المدينة الرياضية. راح يبحث عن علبة الحفاضات، ولكن انفجارين قريبين جعلاه يتوقف عن البحث ويسرع بالخروج من المنزل. بين أصوات الانفجارات، وصليل المدافع المضادة للطائرات، وزعيق منبهات سيارات الإسعاف والدفاع المدني، قرع "أبو عبد الله" منزل جاره "رويتز" المواجه لبيته ونزل درج المنزل قفزاً. عند وصوله إلى الطابق الثاني قرع جرسى الشقتين المتواجهتين واستمر في قفز درجات السلم. وعندما سمع أحد الأبواب يُفتح كان قد وصل إلى الطابق الأول، ورفع رأسه إلى أعلى وصرخ بأعلى صوته: إلى الملجأ جميعاً. ثم قرع جرس البابين المتواجهين في الطابق الأول اللذين فتحا بسرعة ردًا على ندائه بالنزول إلى الملجأ. أطل العجوزان فؤاد وماري بشارة من الشقة الشمالية، وظهرت من الشقة الجنوبية "أم زياد" مع ولدي ابنتها رامي وشادي.
- أسرعوا إلى الملجأ. صرخ "أبو عبد الله": القصف يقترب والدنيا تحترق، لننزل إلى الملجأ بسرعة.
- الله يستر. قالت "أم زياد": ابنتي سهى لا تزال في عملها في المستشفى، أرجو ألا يصيبها أي مكروه.
- أوكليها إلى ربك. ردّ فؤاد بشارة: هي لا شك مشغولة البال أيضاً وخاصة على ولديها، فالأفضل لنا جميعاً أن ننزل إلى الملجأ بسرعة.

- هل أنتم نازلون إلى الملجأ؟ صرخ كمال وهبه صاحب البناء من الطابق الثاني.

- نعم، نعم، انزلوا جميعاً. أجب "أبو عبد الله".

كانت "أم عبد الله" أول الواصلين إلى الملجأ، فوقفت إلى جانب الحائط وقد أحاطت بها بناتها حاملةً طفلها الياس. بعد ذلك تدفق بقية السكان على الملجأ وكان فؤاد بشارة آخر الواصلين، مكتفياً بالوقوف على مدخله بسبب إصابته المزمنة بمرض الربو. ورغم وجود الملجأ عميقاً تحت الأرض فإن صوت هدير الطائرات بقي مسموعاً بوضوح.

- يجب أن نعمل على تنظيف الملجأ وتأهيله للطوارئ. اقترح كمال وهبه صاحب المبنى.

- صحيح يا أبا راشد. أجب "أبو عبد الله": كذلك يجب جلب بعض الكراسي للسيدات ليجلسن عليها.

- لدينا بعض الكراسي القديمة التي يمكننا وضعها في الملجأ. علقت ماري زوجة فؤاد: ولكن يلزمني من يحملها من بيتنا إلى هنا.

- سأتولى هذا الموضوع مع الناظر "أبو جمال". أجب "أبو راشد وهبه": ولكن أين هو "أبو جمال" على أي حال؟ وأين عائلته؟

- ها هو ينزل الدرج. نادى فؤاد بشارة من مدخل الملجأ.

دخل "أبو جمال" وهو يعرج من عاهة مستديمة إثر إصابة قديمة برصاصة في كعب قدمه اليسرى خلال اشتباك بين الإسرائيليين و"تسور العرقوب" في خراج قرية كفرشوبا في الجنوب اللبناني.

- الحالة خرابانه. أبلغهم "أبو جمال" بلهجته الفلسطينية لاهتأ: لقد زرعوها منطقة المدينة الرياضية والجامعة العربية والفاكهاني بالقذائف، وهناك عشرات القتلى ومئات الجرحى.

- وأنت ماذا كنت تفعل هناك؟ سأله "أبو راشد".

- عند بداية القصف كنت أشتري أغراضاً للبيت من شارع صبرا، وفجأة خلت الطرقات من السيارات ولم يقبل أي سائق سرفيس إعادتي إلى هنا، فاضطرت للعودة مشياً.
- وأين عائلتك؟ سأله "أبو عبد الله".
- لا أدري أين "أم جمال" والأولاد، لا بد أنها في زيارة لأهلها في منطقة الشياح. أجاب "أبو جمال".
- رغم اختلافهما في الجنسية والمذهب، فقد ضحّت "أم جمال" كثيراً عندما أصرت على الزواج من "أبو جمال" الفلسطيني الجنسية والسني المذهب والذي وقعت في حبه وتعاهدا على الزواج، مما جعل أهلها يبنونها، إلى أن تمّت المصالحة مع عائلتها في مآتم والديها اللذين استشهدا في القصف الإسرائيلي على قريتهما في جنوب لبنان في العام 1978.
- يا "أبو جمال". نادى "أبو راشد وهبه" صاحب المبنى: غداً صباحاً أريدك أن تتظّف الملجأ جيداً وتجلب بعض الكراسي من منزل الخواجه فؤاد، وتستبدل المصابيح الكهربائية المعطّلة.

4

يَدّعي الإسرائيليون أنهم أبرع من استخدام الطيران في إصابة الأهداف الأرضية الثابتة والمتحركة. ولكن زيارة واحدة إلى مستشفى البربير تكشف أن المدنيين هم الأهداف التي يبرع الطيران الإسرائيلي في إصابتها أكثر.

قسم الطوارئ تحوّل إلى ما يشبه المسلخ البشري. صراخ وأنين وويل من خلف الأبواب والستائر، وقد اكتسى بلاط الممرات الأبيض بمختلف التصاميم الهندسية التي شكّلتها الدماء، هنا خطوط، وهناك بقع، وهناك نقاط، وقد عبثت بتكوينها الأحذية والعجلات المسرعة جيئة

وذهاباً، فتحوّل لونها الأحمر إلى البني بلون الوحل. ازدحمت الممرات بأهالي الجرحى محاولين الاستفهام من أفراد الفريق الطبي عن أحبائهم، وقد احتشدت في كل غرفة حالتان أو ثلاث نتيجة القصف العشوائي الذي فاجأ الناس على الطرقات وفي بيوتها الآمنة. عبثاً حاول رجال الأمن إخراج أهالي الجرحى من قسم الطوارئ ولكن بدون نتيجة. ونظراً لحجم الجريمة الطارئة، أمرت الإدارة بتعزيز الطاقم الطبي من أطباء وممرضين وممرضات ومساعدين. فتمّ سحب نصف الطاقم المداوم من جميع الأقسام إلى قسم الطوارئ، كما تمّ استنفار جميع رجال الأمن الذين تمكنوا بعد جهد كبير من السيطرة على الممرات وإخراج مرافقي الجرحى إلى باحة المستشفى.

في الغرفة رقم 107 كان جاد مستلقياً على عربة نقل المرضى يئنّ من جرح يبلغ أصابه في صدره جراء شظية أصابته على الطريق أثناء عودته من المدرسة إلى البيت. ورغم ألمه كانت عيناه مركّزتين على السيدة المستلقية على السرير إلى جانب الحائط الآخر وهي تصرخ من الألم.

- سننقلك الآن إلى غرفة الأشعة. قالت الممرضة سهى: لا يمكننا عمل أي شيء قبل أن نأخذ صورة أشعة لرأسك ومعرفة مدى الإصابة وتأثيرها عليك.

- أرجوك أعطيني حقنة مهدئة للألم إلى أن يتم التصوير. توصلت إليها السيدة بكلمات متقطّعة غير واضحة.

- آسفة، عليّ أن أُنشِرك طبيبك المعالج أولاً. أجابت الممرضة سهى: سأعود حالاً.

أُدخِلَ إلى مستشفى البربير في هذا اليوم المشؤوم 36 جريحاً و4 شهداء. أما حصيلة الإصابات التي استقبلتها جميع المستشفيات في بيروت فكانت أكثر من 200 جريح و60 شهيداً.

5

خرج بروفيسور شومان من مبنى نايسلي مع بعض الطلاب الذين لم ترعهم الغارات الإسرائيلية فلم يغادروا الجامعة مباشرة. كانت وتيرة الانفجارات قد انخفضت، ولكن الطائرات الإسرائيلية كانت لا تزال تحوم في الأجواء مُصدرة أصواتاً عميقة. لدى وصولهم إلى قرب درجات سلم الكافيتريا قال البروفيسور: أنا بحاجة إلى فنجان قهوة، مَنْ يشاركني؟

كان راشد الوحيد الذي وافقه الرأي بينما انصرف الجميع بعد تبادل كلمات الشكر والوداع. أثناء صعودهما سلم الكافيتريا كان راشد يتساءل ما الذي جعل البروفيسور يدعوهم إلى فنجان قهوة؟ إنها المرة الأولى التي يتصرف فيها بهذه الطريقة متقرباً من الطلاب!

لم يقبل البروفيسور إلا أن يدفع هو ثمن القهوة قائلاً: أنا دعوتكم لأنني أحببت أن ندرش وأسمع أفكاركم حول ما يجري.

- لا أدري ماذا أقول، ولكننا تعبنا من الحروب والقتال وأن لهذا البلد أن يرتاح. تتهدد راشد مصلحاً من وضع كرسيه.

أخرج البروفيسور شومان علبة سجائره الفرنسية الزرقاء ووضع واحدة بين شفتيه غامزاً راشد.

- لا بروفيسور، أنا لا أدخن. أجب راشد: ولكن، عفواً، أعتقد أنك الدكتور الوحيد المتخرج من الولايات المتحدة الذي يدخن سجائر فرنسية.

- إنها مسألة مبدأ... لا أعتقد أنك تعرف أنه أعلن عن مقاطعة

البضائع الأميركية في العام 1967 إثر هزيمة حزيران؟ سأله البروفيسور

مستقهماً: ومنذ ذلك الوقت وأنا مقاطع للسجائر الأميركية، رغم أنني

سكنت في أميركا لسنوات عديدة وتزوجت أميركية وحصلت على جواز

سفر أميركي.

- أنت خطير يا بروفيسور. علق راشد: الله يستر الطالب الذي يُخطئ معك.

- لا، لا يا راشد، هذا موضوع مختلف جداً، فنحن نتحدث هنا عن مبادئ. هل تعلم أن هذه الطائرات الحربية التي تسمع أصواتها والقنابل والصواريخ التي تطلقها هذه الطائرات هي كلها صناعة أميركية؟

- ولكن عدم شراء سجاائر أميركية لن يغيّر شيئاً. أجاب راشد.
- ربما. علق البروفيسور نافثاً دخان سيجارته: ولكن لو قاطع كل العرب البضائع الأميركية ماذا كان سيحصل؟... سيارات، وماكينات، ومأكولات، ومشروبات، وأدوية، وأجهزة، وأدوات، ومواد، واللبسة... هم ضدنا، ونحن ندعم اقتصادهم، فلو دعمنا اقتصادات أخرى كفرنسا واليابان والصين، فستصبح هذه الدول إلى جانبنا أكثر من ذي قبل، ومع الوقت ربما شعر الأميركيون عندها بأن وقوفهم إلى جانب إسرائيل هو خطأ.

- ولكنك الوحيد الذي يقاطع البضائع الأميركية، فهل ستقف وحدك ضد الولايات المتحدة الأميركية؟

- لا بأس، طالما ضميري مرتاح، وأنا أحاول أن أشكّل قدوة لغيري من أفراد المجتمع، للشبان، مثلك أنت مثلاً.

- أنا ضميري مرتاح، فأنا عضو في (جمعية المواطن الصالح) وأقوم بخدمة المجتمع عبر خدمتي في الدفاع المدني خلال أوقات فراغي.

- عظيم يا راشد، لم أعرف أن لديك هذا الشعور الوطني، على الأقل أنت لست موضوعاً ميؤوساً منه.

- ماذا تقصد بروفيسور شومان؟ قاطعه راشد: أنا ابن عائلة وطنية لها تاريخ حافل، ولكن كما يقول والدي إن وضع الشعب العربي أصبح مثل القربة المثقوبة، أي بالعربي الفصيح، لا أمل منه.

- ربما، ربما. اعترض البروفسور مطفئاً سيجارته بعصية في الصحن الفارغ قربه: ولكننا نستطيع أن نصلح من وضع هذه القربة إذا قام كل منا بواجبه.

- تقصد أن نمتنع عن استهلاك المنتجات الأميركية؟

- هذا جزء بسيط من قدراتنا، وانضمامك إلى الدفاع المدني هو جزء بسيط آخر، فلو تصرف كل عربي بهذا الشكل لكان أفضل حالاً،

ولكن أين هو الوعي الوطني والقومي لدى الشعب العربي؟

- إن الشعب العربي بحاجة للإصابة بفيروس الوطنية والقومية لينهض من سباته العميق هذا. أرفد راشد.

- ليتني أعرف أين يوجد هذا الفيروس لنشرته بنفسه. غمزه البروفسور مقهقهاً.

- يجب أن أذهب الآن، لا بدّ أن بال أهلي مشغول عليّ.

- صحيح، وأنا كذلك عليّ أن أذهب، مع السلامة... هل ما زلت تركب تلك الدراجة الهوائية؟

- هزّ راشد رأسه بالإيجاب: بالتأكيد، فأنا مثلك صاحب مبدأ.

- ابتسم بروفسور شومان غامزاً راشد قائلاً: أمل ذلك... إلى اللقاء في الغد.

6

جلس مازن على الرصيف قرب دكانه، وقد التفّ أصدقاءه حوله يتابعون آخر الأخبار السياسية والعسكرية ويناقشونها. مازن هو "وكالة رويترز" المحلية، ولديه كل الأخبار دائماً. وهو مشهور بأن لديه جهاز ترانزستور عاملين طوال الوقت. أحدهما ثابت على

صوت لبنان العربي وهو يذيع طوال النهار بصوت مرتفع ليسمعه جميع أهالي الحي، بينما يحمل بيده باستمرار جهاز الترانزستور الآخر منتقلاً بإبرته طوال الوقت بين باقي محطات الإذاعة الأخرى راصداً آخر الأخبار. وبما أن مازن هو صاحب المكتبة الصغيرة لبيع الصحف والمجلات إضافة إلى الكتب والقرطاسية والسجائر، فإن لقب "رويتزر" الذي أطلقه عليه أصدقاؤه كان مناسباً جداً لشخصيته ونوعية عمله. أما الرصيف الذي أمام المكتبة فأصبح غرفة العمليات الشعبية لمتابعة الأحداث المحلية والعربية والدولية، حيث يجلس الشبان يرصدون آخر المستجدات على وقع كلمات نشيد (أناديكم، أشدُّ على أبياديكم)، مما حوّل الرصيف مع الوقت إلى مقهى رصيفي لسكان الشارع.

- تصوّر. قال "رويتزر": إنه بسبب محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي شلومو أرغوف في لندن، يقتلون أكثر من 100 بريء في لبنان.

- وما ذنب لبنان في هذه العملية؟ كيف تحقّقوا أن الذي قام بالعملية هو لبناني أو انطلق من لبنان، ولم ينقض على تنفيذ العملية 24 ساعة بعد؟ أردف "أبو عفيف" صاحب مطعم الفول المجاور.

- إنهم لم يوفّروا أيّاً من المخيمات من صبرا إلى شاتيلا إلى برج البراجنة، إضافة إلى المدينة الرياضية والفاكهاني وضواحي صور والنبطية. علّق موسى صاحب دكان البقالة الملائق.

- ولكن المقاومة أشبعتهم 20 صاروخاً كاتيوشا على الجليل حسب آخر خبر سمعته الآن. طمأنهم "رويتزر": ولقد اعترفت إسرائيل بقتيل واحد.

- مساء الخير يا جيران. حيتهم الممرضة سهى وهي في طريقها إلى مدخل المبنى.

- مساء النور يا دكتورة. أجابها الناطور "أبو جمال" مضيفاً:
الحمد لله على السلامة، والله الوالدة ومدام ناديا وجميع الجيران اهتَمُوا
بأولادك في الملجأ أثناء القصف خير اهتمام.
- والله كلكم أصيّلين يا "أبو جمال" الحمد لله، لقد اطمأنتت عليهم
بالتلفون خلال النهار. أجابت سهى: الحمد لله على السلامة لكم جميعاً
وتصبحون على خير.
- مساء الخير أستاذ راشد. صرخ "رويتّر" وهو يحيي راشد عن بعد.
- أهلاً "رويتّر"، كيف الأحوال؟ هل أخذ والدي الجريدة؟
- لقد أخذها باكراً ولكن أخبارها أصبحت كلها قديمة، هل سمعت
آخر الأخبار؟ لقد قصفت المقاومة سعد حداد...
- نعم، نعم، سأشاهد أخبار التلفزيون بعد قليل في المنزل، تصبحون
على خير. واتّجه نحو مدخل البناء دافعاً دراجته الهوائية أمامه.

7

- تناول الدكتور سامي شومان وجبة العشاء، ثم جلس إلى مكتبه في
بيته في منطقة الروشة الراقية. فتح عدة كتب ومراجع باللغة الإنكليزية
وشرع يسجّل ملاحظات يجمعها من الكتب أمامه، وعيناه تنتقلان من
كتاب إلى آخر بينما أذناه ترصدان نشرة الأخبار التي تتابعها عائلته في
الطرف الآخر من الغرفة.
- تعال واسمع الأخبار معنا. توجّهت إليه زوجته جولي بلغة
عربية ركيكة.
- سأتى حالاً بعد أن أسجل هذه المعلومة فقط. وشرع يقرأ نصاً
في كتاب Soviet Ground and Rocket Forces ناقلاً المعلومات إلى
العربية في دفتر ملاحظاته.

مواصفات الصاروخ سام 7 ب	
الاسم العلمي	9K 32M المعروف باسم ستريلا 2M
المدى الأقصى	4.2 كيلومتر
المدى الأدنى	30-50 متر
سرعة الهدف القصوى	150-260 متر في الثانية
سرعة الصاروخ	580 متر في الثانية
طول موجة عمل المتقسي	1.7nm-2.8nm
طول الصاروخ	1.443 متر
وزن الصاروخ	9.15 كيلوغرام
وزن الرأس الحربي	1.17 كيلوغرام
قطر الصاروخ	0.072 متر
طول القاذف	1.49 متر
قطر القاذف	0.1 متر

- ما الذي يشغلك عنا هذه الأيام؟ سألت جولي زوجها بعد أن أنهى عمله وجلس بقربها لمتابعة برامج التلفزيون.
- إنها فكرة جهنمية أحاول إثباتها علمياً.
- وهل أستطيع أن أفهمها إذا حاولت شرحها لي؟
- لا داعي لأرهقك بالنظريات العلمية في هذه الأجواء السيئة.
- صحيح، هل سمعت ما ورد بالأخبار قبل قليل بأن هناك أكثر من 250 إصابة بين قتيل وجريح اليوم؟
- لنأمل أن تكون هذه العملية رداً على محاولة اغتيال سفير إسرائيل في لندن فقط، ولا تتطور إلى عملية أوسع.
- الحمد لله أن غداً هو السبت يوم عطلة الأولاد الأسبوعية. عقت جولي.

- ليت هذه الغارة تمت يوم الخميس أو الأحد لنعطل في اليوم الذي يليه. تمنّت ميرا ابنتهما الوسطى.
- هذه هي أماني الكسالى. علّقت أختها الكبرى رنا.
- كفى مشاكل، هيا إلى النوم جميعاً. أمرتهما أمهما.
- تعرف سامي شومان إلى زوجته جولي خلال دراسته في كلية ماساتشوستس للتكنولوجيا في الولايات المتحدة ومتابعته لشهادة الماجستير وكانت زميلته في الاختصاص. وقد أعجب البروفسور بإنسانيتها ودفاعها عن حقوق الإنسان والذي كان همّاً مشتركاً بينهما، وتزوجا فور تخرجهما في العام 1963.

8

- أخذ راشد من المقعد الأخير في الفصل مكاناً ليجلس فيه منصتاً إلى نشرة الأخبار عبر راديو الترانزستور بانتظار حضور زملائه الطلاب.
- هل من جديد يا راشد؟ سأله بروفسور شومان.
- لا زالوا يقصفون الجنوب منذ الصباح بدءاً من مدينة صور ووصولاً إلى منطقة الناعمة، ولقد توغّلت آليات المدفعية الإسرائيلية مسافة 6 كيلومترات داخل مرجعيون، كما أن دباباتهم دخلت منطقة سعد حداد، بينما تحوم طائراتهم الآن فوق منطقة الدامور.
- إذن أصوات الطائرات التي نسمعها هذه مصدرها أجواء الدامور.
- لذلك أعتقد أن بقية الطلاب لن يأتوا اليوم، فلا شك أن صوت الطائرات التي ما زالت تزمجر منذ الصباح سيمنعهم من الحضور إلى الجامعة.
- ولكننا في مرحلة امتحانات نهاية العام، والحضور ضروري.
- عقب بروفسور شومان.

- لقد حاول أهلي منعي هذا الصباح من الخروج، ولكنني أقنعتهم بضرورة الحضور بسبب الامتحانات، وبأن الإسرائيليين لن يقصفوا الجامعة الأميركية في بيروت، ويتسببوا بمشاكل مع الحكومة الأميركية. قال راشد: ولكن والدتي أصرت على أن أحمل راديو الترانزستور هذا معي لأبقي مطلعاً على آخر التطورات.

- غمزه بروفسور شومان وقال: إن آخر التطورات تفيد أن شمل الفصل لن يكتمل هذا اليوم، فالساعة أصبحت الحادية عشرة، أنا ذاهب إلى المكتبة لأعيد هذه الكتب، هل تساعدني بحملها؟

- بكل تأكيد بروفسور. أجاب راشد: ولكن كيف تمكنت من حملها كلها إضافة إلى حقيبتك الجلدية؟

- لقد نقلتها من السيارة على دفتين؟

- هل تقوم بأبحاث حول موضوع معين؟ سأل راشد.

- نعم إنني مهتم بموضوع الموجات تحت الحمراء وفوق البنفسجية.

- ولكن كل هذه الكتب التي أحملها عسكرية. علق راشد أثناء توجيهها نحو مكتبة "نعمة يافث".

- إنني أبحث في علاقة أشعتي IR و UV بأجهزة الإنذار والتشعيت العاملة على الطائرات الحربية.

- إنه موضوع معقد ولست في مزاج للتفكير به بتاتاً في هذه الأجواء. علق راشد.

فكّر بروفسور شومان لنفسه أن ذلك سيكون أفضل، فهو لا يريد لراشد أن يخوض في هذا الموضوع، كي لا يعكّر عليه تركيزه وخط تفكيره.

- أهلاً بروفسور. قالت أمينة المكتبة: لقد أرجعت الكتب بسرعة! هل انتهيت منها؟

- نعم، لقد كنت بحاجة إلى معلومات محدّدة جداً، لذلك لم يكن عليّ أن أقرأ كامل الكتب، وهذه هي قائمة كتبي الجديدة التي سأطالعها في عطلة نهاية الأسبوع.

- كما تريد يا دكتور، ولكن أرجوك أن تكتب بخط أكبر في المرة المقبلة.

- لا تهتمّي سأقرأها لك. أجاب البروفسور وشرع يقرأ لها قائمته:

- | |
|---|
| 1 - Infrared System Engineering
<i>Richard Hudson</i> |
| 2 - Living with our Sun's Ultraviolet Rays
<i>Arthur Giese</i> |
| 3 - Ultraviolet Transfer Standard Detector
<i>Robert Madden</i> |
| 4 - Automation of an Ultraviolet Visible Spectrometer
<i>Dennis Ryan</i> |
| 5 - Ultraviolet Light and its Applications
<i>H. Drake</i> |
| 6 - Wave Lengths of the Extreme Ultra-Violet
Lines from Gas Discharges
<i>J. MacInnes</i> |

- سأجلبها لك حالاً، تفضّل بالجلوس.

كانت مقاعد المكتبة شبه خالية، فجلس البروفسور على أحد الكراسي وبجانبه راشد.

- عفواً بروفسور على سؤالي. قال راشد محاولاً فتح حديث ودي مع أستاذه: ولكنني أسأل بنية صافية.

بلع البروفسور ريقه خائفاً أن يستدرجه راشد إلى الحديث حول المشروع الذي يعمل عليه، فسحب سيجارة ووضعها بين شفتيه دون أن يشعلها لأن التدخين ممنوع في المكتبة.

- أسأل يا راشد، لا تخف.

- دكتور، ما هو أصل تسمية عائلتك ومن أين هو منشأها؟

انفجر الدكتور ضاحكاً بصوت عال جعل أمينة المكتبة تنتظر إليه من تحت نظارتها مندهشة، أما راشد فتفاجأً بردة فعل البروفسور محرراً يديه متسائلاً ماذا حصل.

- آسف دكتور، ولكن اسمك يشبه أسماء... أنا آسف دكتور... إن اسمك يشبه الأسماء اليهودية.

جلجل صوت الدكتور بالضحك مجدداً ولكن بصوت أعلى من السابق، فسقطت سيجارته على الطاولة وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فخلع نظارتيه ومسح دموعه مشيراً بإصبعه إلى راشد بينما كانت أمينة المكتبة تشير إليه بيديها أن يخفف من الضجة التي افتعلها، متسائلة ماذا أصابه.

- يا راشد، منذ زمن بعيد لم أضحك بهذا الشكل. توجه الدكتور بالكلام إلى راشد وهو يسعل: وما الذي أوحى لك بأني يهودي؟

- آسف يا دكتور، ولكن ألا تذكر بعض أهم الشخصيات الإسرائيلية مثل حايم وايزمان، والبروفسور برغمان، وصموئيل روزمان، ووليم زكرمان، وهيرش جودمان، وعازر وايزمان، والحاخمين قاسرمان وفيشمان؟ ألا توحى لك هذه الأسماء بأي تشابه مع شومان؟

- فإن هذا هو الاكتشاف العظيم الذي توصلت إليه، بأنني يهودي ابن يهودي. قالها الدكتور وهو يجلي حنجرته.

- عفواً دكتور أنا لا أقصد أي إهانة، أنا أعتذر إذا...

- لا بأس، ولكن أريدك أن تتأكد أنني لبناني وعربي أصيل، ولعائلتي جذور هنا وفي سوريا والأردن وفلسطين.

- ولكن كنت أقصد أن تاريخ العائلة، هل له أي جذور يهودية؟

- غمزه الدكتور وقال: ربما، لا أحد يعرف طبيعة أصله قبل ألف سنة أو أكثر من اليوم، فكلنا أبناء آدم وحواء، على كل حال لم يختر أحد

منا جنسيته أو دينه ومذهبه، وبالتالي فبرأيي الشخصي إن التعصّب الأعمى للجنسية أو الدين أو المذهب هو إهانة لهم، إذ أن التعصّب يجب أن يكون برأيي المتواضع، لإنسانية الإنسان وحرّيته وحقّه في العيش الكريم فقط.

- أشكرك دكتور. أجاب راشد محاولاً إنهاء الموضوع.

- هناك سرّاً راشد أريد أن أخبرك إياه ولا يعرفه أحد في الجامعة الأميركية كلها. وهنا أومأت إليه أمينة المكتبة ليتقدّم نحوها.

كان راشد أسرع من البروفسور في التوجّه نحوها، فجأة راوده شعور بأنه أصبح خفيفاً جداً وكأنّ جبلاً قد رُفِعَ عن صدره، فقبل قليل كان يلوم نفسه على إقحام نفسه في إحراج لا مبرر له مع البروفسور، والآن يريد أن ينسى كل الموضوع وأن يستلم الكتب من أمينة المكتبة وينتقل إلى موضوع مختلف.

- إن وزن هذه المراجع يتجاوز الـ 50 كيلوغراماً. قال راشد:

كيف ستحملها دكتور؟

- هل تساعدني بها إلى السيارة؟

- بالتأكيد دكتور، ولكن كيف ستقلها لاحقاً من السيارة إلى المنزل؟

- لا أدري، سأندبّر الموضوع عندما أصل إلى البيت.

- عندي فكرة دكتور. بادره راشد: ما رأيك أن أبقى دراجتي

الهوائية في حرم الجامعة وأذهب معك بسيارتك لأساعدك في إيصال الكتب إلى منزلك؟

- ممتاز، فكرة عظيمة، فأنا خائف أن تعود آلام الديسك إليّ

وأعود إلى الأدوية والنوم على ظهري المريض ثانية.

- عظيم جداً، هيا بنا.

- راشد، على شرط أن تشرب القهوة عندنا في البيت ثم أعيذك

بسيارتي إلى منزلك.

- موافق. أجاهه راشد.

9

- الحمد لله، لقد انتهيت أخيراً من تنظيف الملجأ. توجه الناطور "أبو جمال" إلى "روينتر" وهو يسعل عند باب المبنى.

- أرجو أن لا نضطر لاستخدامه ثانية هذه الليلة، فالطائرات اللعينة لا زالت تحوم في الجو منذ الصباح وكأنها تبحث عن طريدة لتقتصّ عليها.
- الله يستر، لم يرجع ابني جمال منذ أمس ولا أدري أين هو أو ماذا حلّ به.

- سمعت أن القيادة الفلسطينية قد أعلنت الاستنفار العام وألغت إجازات جميع الكوادر والمقاتلين.

- أعرف ذلك منذ أول من أمس، ولكن "أم جمال" لا تريد أن تصدّق، وتريد أن ترى ابنها اليوم.

- الله يحميه ويحمي الشبان، يظهر أن الوضع خطير هذه المرة.
انخرط جمال في حركة "فتح" عندما كان في السابعة عشرة من عمره. والآن وبعد 3 سنوات لتتقلّه بين المواقع المتقدمة في الجنوب وسرية النقلات، ثم السرية الثانية التابعة لكتيبة م/د وكتيبة مقر الـ 17، تمّ فرزه أخيراً لمرافقة المقدم "أبو صلاح" رئيس غرفة العمليات في قوات الـ 17.

- الله يعطيكم العافية يا شباب. بادرتهما مدام ناديا.
متفاجئاً بها وهي تحييه من الخلف: عليك أن تخفّي من الحركة في الشوارع يا مدام ناديا. توجه "روينتر" إليها: إن هذه الطائرات اللعينة لا زالت تحوم في الأجواء.

- عندك حق يا جار، معظم المحال والمخازن مغلقة، هناك قلق رهيب لدى الناس، ولكني ذهبت إلى طبيب الأسنان فخرسي يؤلمني كما اشتريت بعض الألوان لتنفيذ لوحتي الجديدة.

- مرحباً مدام ناديا، مرحباً يا جيران. حيثهم الممرضة سهى
والتي وصلت لتوّها عائدة إلى بيتها.

- كيف كان يومك في المستشفى؟ سألتها مدام ناديا وشبكت ذراعها
بذراع سهى وهما تدخلان إلى البناء.

- لقد وصلنا العديد من الإصابات الخطيرة من الجنوب اليوم، إن
الوضع سيئ جداً، ويقول الجرحى إن القوات الإسرائيلية المهاجمة ضخمة
جداً، ولا يبدو أنها عملية محدودة.

- لا تجزعي. أجابتها السيدة ناديا: عند الخطر، وبما أنني أخاف
أن أبقى في بيتي في الطابق الثالث أثناء القصف، سأنزل إلى بيتك في
الطابق الأول لأساعد أمك في رعاية الأولاد، وإذا تأزم الوضع سننزل
جميعاً إلى الملجأ.

- ممتاز جداً، للحقيقة كنت مشغولة البال، شكراً لطمأنتي بهذا
الشكل. أجابتها الممرضة سهى مبتسمة وكانت قد وصلت إلى باب منزل
سهى في الطابق الأول: تفضلي لنشرب فنجان قهوة.

10

- للحقيقة، أنا أفضل الشاي على القهوة. قال راشد للسيدة
شومان.

- ولكنك طلبت القهوة أمس في كافيتريا الجامعة. قاطعه بروفوسور
شومان.

- نعم، صحيح، ولكنني طلبتها خجلاً وشربتها على مضض.

- لا تكرر ما حصل ثانية، فأنت لست مضطراً لتقبل ما لا تريده
إكراماً لأي شخص.

- صحيح، لذلك أريد الآن فنجان شاي، إذا سمحت مدام.

- هذا هو الكلام الذي أحب سماعه من الشبان، وأنا سأشرب الشاي كذلك. أضاف البروفسور غامزاً زوجته جولي.
- دكتور، ولكن كل هذه الكتب والمراجع التي حملناها، متى سيتاح لك الوقت لقراءتها؟
- من المؤكد أنني لن أقرأها من الغلاف إلى الغلاف، أما الذي سأفعله تماماً فهو أنني سأراجع فهارسها بحثاً عن الكلمات المفتاحية التي تهتمني وسأسجل الملاحظات التي أبحث عنها، وهذا يعني أنني سأنتهي منها غداً الأحد.
- إذن ستعيدها إلى المكتبة يوم الاثنين... هل تريدني أن آتي صباح الاثنين إلى هنا وأساعدك فيها؟
- للصراحة، إنني خجل منك، ولو كان مصعد هذا البناء اللعين يعمل لكنت تدبّرت أمري، ولكن نظراً لهذا الوضع فإنني لن أستطيع أن أرفض عرضك، شكراً، شكراً راشد.
- لا شكر على واجب دكتور، في جميع الأحوال فإن دراجتي الهوائية باقية في الجامعة وبالتالي لست مرتبطاً بها عند ذهابي صباح الاثنين إلى الجامعة.
- تفضلوا الشاي. قالت رنا ابنة بروفسور شومان وهي تقدّم لهما صينية عليها إبريق وثلاث أقداح شاي وبعض السكر.
- هذه ابنتي رنا. قال البروفسور وهو يعرفها إلى راشد: "وهذا راشد طالبي النجيب في الجامعة. قالها وهو يغمزه.
- رنا فتاة جميلة عمرها ثماني عشرة سنة، وتريد السير على خطى والديها في الاختصاص الجامعي بمادة الفيزياء، أما ابنة البروفسور الوسطى ميرا فعمرها 16 سنة، والصغرى بيسان 10 سنوات.
- اقتحمت بيسان الغرفة حاملة ثلاثة ملاعق شاي قائلة: لقد نسيت الملاعق كالعادة.

- وهذه هي ابنتي الصغرى بيسان.
- اسمك بيسان؟ توجه إليها راشد بالسؤال: ولكن أليس اسم بيسان اسم مذكر وهو يتبع سهل بيسان في فلسطين؟
- لا تسألني! اسأل أبي لماذا أسماني بهذا الاسم الغريب!
- إذن اجلسي معنا طالما هناك ثلاثة أقداح على الصينية واسمعي القصة للمرة العشرين وأنا أرويها هذه المرة لراشد:
- في 5 حزيران 1967 حدثت النكسة، أي في مثل هذا اليوم تماماً منذ خمسة عشر سنة، وكنت قد عدت من الولايات المتحدة مع زوجتي للتدريس في الجامعة الأميركية في بيروت.
- مع وضوح حجم كارثة النكسة وسقوط القدس والضفة الغربية والجولان بيد الإسرائيليين ولجوء الفلسطينيين من الضفة إلى الأردن، وتفاقم الطعنات في كرامة الإنسان العربي، ولعجز الشبان اللبناني الوطني عن التصدي لأي من الأعمال الحربية، انصرف عدد من الطلاب التقدميين في الجامعة الأميركية إلى جمع التبرعات والمساعدات العينية والأدوية واللوازم الطبية للمنكوبين في مخيم البقعة في الأردن.
- كان سامي شومان أحد النشطاء الذين عملوا بدون كلل أو ملل إلى أن تمّ تأمين اثنتي عشرة شاحنة من المساعدات تمّ تحميلها في شارع بلس قرب الجامعة الأميركية في بيروت، إضافة إلى مبلغ كبير من المال تمّ إيداعه في حساب خاص في البنك العربي.
- أثناء عمله التطوعي هذا، تعرّف سامي شومان إلى سائق إحدى شاحنات نقل المساعدات، والذي شرح له العذابات التي مرّ بها الشعب الفلسطيني، كما أخبره بأنه منضوٍ في تنظيم العاصفة التابع لحركة فتح والتي لم تكن معروفة في حينه، وقد استفاض "أبو غازي" سائق شاحنة المساعدات في شرح مبادئ الثورة الفلسطينية وأهدافها. وفي لحظات كان سامي شومان قد حزم أمره وقرّر الانضمام إلى قوات العاصفة.

ترك رسالة سريعة إلى زوجته ووالديه، وركب إلى جانب "أبو غازي" في الشاحنة وانطلقا إلى مدينة عمان.

- بقيت في الأردن حتى بداية العام 1970 حيث خضعت بداية لتدريب عسكري سريع وأصبح اسمي "أبو أرز"، إثباتاً لهويتي اللبنانية، ثم انتظمت كمقاتل عادي في صفوف الفدائيين. وبما أنني لبناني، لم يُسمح لي بعبور نهر الأردن للقيام بعمليات في الضفة الغربية خوفاً من اعتقالني من الإسرائيليين. غير أنني تصدّيت للإسرائيليين في الكرامة وغور الصافي ووادي شعيب ووادي اليايس والشونة وعجلون...

- دكتور أنا لا أصدق ما أسمعه... أنت؟

- بل صدّق يا راشد، وأريدك أن تصدّق أن أطيب قدح شاي شربته في حياتي كان ذلك الذي كنا نحضّره على الحطب في ليالي الزمهير الباردة في الأغوار مع سيجارة لولو، التي كنا نسمّيها "لا تنساني" لكثرة انطفائها.

- وما دخل بيسان في هذا الموضوع؟

- كانت سهول بيسان في فلسطين تمتد أمامنا كقطعة خضراء من الجنة، وقد انتشرت فيها المستعمرات الإسرائيلية، والتي كانت هدفنا في القصف والقنص والعمليات الفدائية، ولكنني كنت ممنوعاً من المشاركة في عمليات التسلل والاقترام لأنني لبناني كما قلت لك، وكان حلمي الدائم أن أقوم بهكذا عملية، ولكنني لم أوفق سوى بتسمية ابنتي على اسم حلمي... ولكنه اسم جميل أليس كذلك؟

- جميل جداً، لا شك بذلك، وهو اسم على مسمى. أجاب راشد وهو يضع قدحه الفارغ على الطاولة: يجب أن أذهب الآن، لا داعي أن تتعب نفسك معي. ونهض مستعداً للخروج.

- لا، أنا مصرّ على ذلك، لقد وعدتك أن أوصلك إلى البيت، هيا بنا.

11

خرج العقيد "أبو الطيب" قائد قوات الـ 17 من مقر "العمليات 3" بعد اجتماعه مع العميد "أبو الوليد"، الذي شرح له على الخرائط العسكرية الأوضاع والتطورات العسكرية في الجنوب، والخطة التي وضعت استعداداً للدفاع عن بيروت لمواجهة جميع الاحتمالات، أكانت قسفاً جويّاً أو إنزالاً بحريّاً أو محاولات اقتحام مفاجئة من المنطقة الشرقية أو من أي نقطة أخرى، وزوّده بقرار تقسيم بيروت إلى 7 قواطع عسكرية مع حدود تركز كل منها ومهامه وقيادته. تبين للعقيد أن مسؤوليات قوات الـ 17 التي بإمرته تحددت بالقاطع الثالث ابتداءً من مطعم البيكنيك حتى كنيسة الأوزاعي في ضاحية بيروت.

فور وصوله إلى مركز عمليات قوات الـ 17 دعا العقيد "أبو الطيب" كافة ضباطه في منطقة بيروت إلى اجتماع حضره إضافة إليهم ضابط التسليح، وضابط الإدارة وكامل هيئة غرفة عمليات الـ 17 بقيادة الرائد "أبو صلاح"، حيث تمّ شرح الموقف العام، واستعراض إمكانيات التطورات العسكرية، وتمّ اتخاذ قرارات هامة منها تجهيز كتيبة الدبابات وإخراجها من المخابئ، واستدعاء كتيبة الاحتياط من شمال لبنان للالتحاق بالقوات في بيروت، إضافة إلى حجز جميع الضباط والمقاتلين في مواقعهم استعداداً لأي تطورات عسكرية.

بعد خروج الجميع، جلس "أبو الطيب" إلى مكتبه يراجع التقارير الواردة إليه من جميع المناطق، وبدوره شرع بإعداد تقرير تفصيلي متكامل عن المعارك والأوضاع العسكرية خلال اليومين الماضيين، إضافة إلى كشف بالخسائر في الأرواح مع قائمة بأسماء الشهداء والجرحى والعتاد المعطوب والمعتل، وذلك حسب طلب "أبو عمار" الذي كان في طريق العودة إلى بيروت.

12

أحضرت هبة زوجة كمال وهبه صينية القهوة وجلست قرب زوجها لتناول قهوة الصباح.

- يبدو أنه سيكون يوماً حاراً. بادرت "أم راشد" بالحديث.
- أرجو أن يكون حاراً مناخياً فقط، ولكن ليس عسكرياً.
- لا تفتح سيرة القصف أرجوك يا "أبو راشد"، فأعصابي لن تحتمل أصوات القصف والانفجارات وسيارات الإسعاف ثانية.
- صباح الخير. بادرهما راشد وهو يخرج إلى الشرفة ليجلس معهما.
- صباح النور، لقد استيقظت باكراً؟... اليوم الأحد، وأنت عادة تتأخر بالنهوض.

- الحقيقة أنني لم أتم جيداً ليلة أمس. أجاب راشد.
- إنه صوت الطائرات، أليس كذلك؟ أنا كذلك لم أتم جيداً. علقت أمه.
- لا ليس هذا هو الواقع، بل هناك أشياء عديدة تشغلني، إني قلق على العام الدراسي وامتحانات نهاية السنة.

قاطعته أبوه قائلاً: كلامك صحيح، لا أحد يدري إلى ماذا ستؤول الأمور... توقف فجأة عن الحديث وأنصت: هل تسمع؟ ها قد عادت الطائرات.

نظر الثلاثة إلى السماء وبالفعل كانت هناك طائرتان حريبتان على ارتفاع شاهق ووراء كل منهما ذيل طويل من الدخان الأبيض.

- إنهما مرتفعتان جداً، سأذهب لآتي بالمناقيش للإفطار ولكني سأحتاج إلى سيارتك. قال متوجهاً إلى والده: لقد تركت دراجتي الهوائية في الجامعة.

- لا بأس ولكن لا تنس المناقيش لأخواتك أيضاً، وأرجو أن تعطيني راديو الترانزستور قبل ذهابك.

عند وصوله إلى الدور الأول التقى راشد بالزوجين ماري وفؤاد بشارة وقد ارتديا أفضل ثيابهما وهما بهمان بالخروج.

- صباح الخير. بادرهما راشد: هل أوصلكما إلى أي مكان.

- صباح الخير يا ابني. أجابت ماري: نحن ذاهبان إلى الكنيسة لنحضر القداس، ولكن عمك فؤاد متردد قليلاً خوفاً من الطائرات.

- إذن سأوصلكما إلى هناك بنفسني فأنا خارج بالسيارة. إلى كنيسة مار الياس كالعادة، أليس كذلك؟

- نعم، نعم. أجابه فؤاد بشارة وهو بعجلة من أمره.

- كيف أحوال داني، إني لم ألتق به منذ مدة طويلة، ألا يأتي عندكم هذه الأيام. بدأ راشد بالمحادثة.

- الواقع أنه يأتي قليلاً جداً إلينا، فأمه روز تخاف عليه كثيراً من المعابر.

تسكن روز ابنة فؤاد وماري بشارة مع عائلتها في ضاحية عين الرمانة في المنطقة الشرقية المسيحية من بيروت بعد تهجرهم من بلدة الدامور. أما داني فهو ابنها الأكبر وأصبح صديقاً لراشد خلال مكوثه في منزل جديته في منطقة المصيطبة هرباً من ضوضاء إخوته خلال الاستعداد لامتحانات البكالوريا. وبعد نجاحه ودخوله الجامعة اليسوعية لدراسة الحقوق، حافظ على صداقته لراشد عبر زيارته إلى جديته. وفي الجامعة تبنى أفكار حزب الكتائب اللبنانية وانخرط في مصلحة الطلاب، فتابع دورة تدريب عسكري في الخنشارة في جبل كسروان، ثم حمل السلاح دفاعاً عن لبنان كما آمن.

13

جلس سامي وجولي شومان في شرفة منزلهما يحتسيان قهوة النسكافية بالحليب، وقد فتح البروفسور أحد كتبه، بينما انصرفت زوجته إلى راديو الترانزستور تعبت بمفاتيحه.

- لا أستطيع إيجاد محطة بي بي سي. توجهت جولي إلى البروفسور.

- إذا أردت معرفة آخر الأخبار، من الأفضل لك البحث عن إحدى المحطات المحلية كصوت لبنان مثلاً.

وجدت جولي شومان إحدى المحطات الإذاعية التي تتحدث عن عمليات القصف ورفعت صوت المذيع:

- يقوم الطيران الإسرائيلي ابتداءً من الساعة 9:35 بتنفيذ غارات جوية على سفوح الصرند، كما تقصف مدفعيته الثقيلة مواقع المقاومة والقوات المشتركة في قلعة أرنون/حرش النبي طاهر/كفر تبنين/الوادي الأخضر، وما زال الطيران يخلق ويقوم بغارات وهمية مسقطاً منشورات تدعو الجيش اللبناني وحركة أمل إلى عدم إطلاق النار على قواته.

- وصلنا الآن الخبر التالي، في تمام الساعة 11:00 اقتحمت قوات العدو الإسرائيلي تحصينات حاجز القوات الفرنسية العاملة ضمن قوات الطوارئ الدولية وتجاوزتها ثم اشتبكت مع القوات المشتركة التي دافعت ببسالة.

أعقب الخبر نشيد "الله أكبر"، فخفضت جولي الصوت.

- لعنة الله على الإسرائيليين والأميركيين الذين يزودونهم بالسلاح والصواريخ والقذائف. انفجر بروفسور شومان.

- هذا يعني أن الأمور جدية، لذلك يجب متابعة الأحداث لتكون مطلعين على الأحوال أولاً بأول.

تناول البروفسور سيجارة من علبة الجيتان وأشعلها وغمز زوجته قائلاً:

- من الآن وصاعداً سأعتمد عليك لتطلعيني على آخر المستجدات.

نهضت جولي وأحضرت قلم رسم أسود، ثم شرعت تدير مفاتيح الراديو بحثاً عن المحطات الإخبارية، وهي تسأل البروفسور عن اسم كل محطة إذاعية، فتضع إشارة على زجاج الراديو في موقع وقوف المؤشر، ثم تكتب اسم المحطة بالإنكليزية والرقم المناسب على ورقة ليصبح لديها في النهاية قائمة تضم: إذاعة صوت لبنان العربي، صوت لبنان، صوت لبنان الحر، بي بي سي العربية، بي بي سي الإنكليزية، صوت فلسطين، إذاعة إسرائيل، ومونت كارلو.

أما بروفسور شومان فكان مهتماً بتسجيل عدة ملاحظات جمعتها من الكتب والمراجع التي جلبها من مكتبة الجامعة.

تتعرّف المستشعرات (غير الحساسة لأشعة الشمس) على الإشعاعات الفوق بنفسجية في موجات أقصر من موجات أشعة الشمس والتي يمكنها اختراق الغلاف الجوي الأرضي. وتتراوح أطوال هذه الموجات في مدى $<400\text{nm}$ ، وتعرف بـ (UV-C). ويتم امتصاص معظم هذه الإشعاعات في الغلاف الجوي بواسطة طبقة الأوزون وبالتالي لا تصل إلى سطح الأرض. غير أنه يمكن توليد هذه الإشعاعات على سطح الأرض عبر النيران الناشئة عن حرائق الغابات، ونيران المدفعية، وشهب الصواريخ. ويمكن لاستشعار أشعة UV-C في الفضاء بدون تشويش من الإشعاعات الشمسية ذات الموجات الطويلة أن يساعد في تحديد مصادر هذه النيران الأرضية. وهناك العديد من مستشعرات أشعة UV-C المناسبة مثل أنابيب جيجر - مولر الغازية، و photodiodes (PIN) صمامات التحسس الثنائية، ومضاعفات التحسس photomultipliers (PMT) العادية، عند استخدامها مع المرشحات الصادة المناسبة، وتقنية تحويل الفوسفور المخفضة. ويمكن لهذه المستشعرات أن تفيد في التطبيقات العسكرية مثل تقصي المكونات الكيميائية/البيولوجية، وتأمين اتصالات الأقمار الصناعية، وإنشاء شبكات اتصالات الغواصات، وتوجيه الصواريخ.

14

ترأس ياسر عرفات الاجتماع في مقر "العمليات 5" ومن حوله أركان غرفة العمليات المركزية. كان قلقاً ومرهقاً وتعباً. كان "أبو عمار" في طريقه من بيروت إلى دمشق صباح يوم الجمعة في 1982/6/4 عندما علم بمحاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن. فأكمل طريقه، حيث استقل طائرة خاصة إلى مدينة جدّة لحضور اجتماع اللجنة الإسلامية للمساعي الحميدة لإيقاف الحرب بين العراق وإيران. وهناك علمَ بقصف بيروت، فعاد مباشرة إلى دمشق وأقلته سيارة تكسي صفراء للستويه مع مرافقيه إلى بيروت عبر طريق الكرامة، التي وصلها صباح الأحد 1982/6/6، حيث وُضع مباشرة في أجواء الاجتياح الإسرائيلي.

توجّه "أبو عمار" إلى أركان غرفة العمليات المركزية غير مصدق أخبار التقدّم السريع للعدو:

- الوضع خطير ويجب أن لا نفتح المجال للعدو بالعبور، لذلك يجب أن نكون صلبين جداً ونواجههم. أريد من كل منكم تجهيز فصيل من أفضل المقاتلين بكامل أسلحتهم وإرسالهم إلى حدود مدينة صيدا.

كان "أبو عمار" في أجواء تخاذل قياداته العسكرية في الجنوب، مثل الحاج إسماعيل قائد منطقة الجنوب، و"أبو حازم" قائد لواء الكرامة، والعقيد "أبو خلدون" قائد لواء اليرموك، و"أبو نجم"، الذين تركوا مسؤولياتهم وهربوا أو انسحبوا.

في هذه الأثناء كان مقاتلو المقاومة الفلسطينية والقوات المشتركة الوطنية يقارعون العدو الإسرائيلي بعنف في معارك غير متكافئة بمختلف الأسلحة المتوفرة، ووفق خطط عسكرية بسيطة، يبتدعها العناصر على الطبيعة، وهم مكشوفون للطيران الإسرائيلي، وفي

مواجهة آلة عسكرية متطورة ومكاملة تسليحاً وتجهيزاً وتخطيطاً وانضباطاً واستطلاعاً واتصالاً وحركة.

في الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت برقية تقول إن القوات الإسرائيلية بدأت بالتقدم باتجاه النبطية عن طريق قرية "قععية الجسر" والتي كانت ضمن مواقع قوات الطوارئ الدولية.

- زمجر "أبو عمار" وقال: لا أريد أن أستلم أو أكتب أو أنصّ أية برقيات بعد الآن، هاتوا لي جهاز اللاسلكي إلى هنا.

عند العاشرة والدقيقة العشرين مساءً تكلم مباشرة مع "عزمي الصغير" الذي أخبره بأن بداية عملية إنزال إسرائيلي على شاطئ صيدا وجسر الأولي والزهراني في طريقها للتنفيذ.

- أرسلوا مجموعات لضربها، لا تدعوهم يمرّوا. صرخ "أبو عمار" في الجهاز.

نظر إلى "أبو الطيب" وقال: إنها خطة مدبرة بإحكام، إنهم يقومون بالإنزال البحري شمالي صيدا، وهذا له دلائل كثيرة غير وضع قواتنا ضمن فكّي كماشة، وأهمها أن هذه النقطة ستكون لاحقاً نقطة انطلاق للتقدّم إلى الأمام لمسافة أبعد، إن حجم الآلة العسكرية المستخدمة في هذا الهجوم وسرعة حركتها مؤشر شديد الخطورة.

- ولكنهم يدّعون أن هدفهم تأمين منطقة عازلة بعمق 45 كيلومتراً لضمان ما يسمى بـ (سلامة الجليل) حيث لا يصل مدى صواريخ الكاتيوشا إليهم. عبّ "أبو الطيب".

- هذا ما أحاول أن أفهمك إياه يا ابني، إن هدفهم هو بيروت، إن هدفهم رأس المقاومة، أنا وأنت وكل القيادة، والمقاتلين والشعب الفلسطيني. إنها معركة حياة أو موت.

- إذن، إما النصر وإما الشهادة. علّق "أبو الطيب".

15

وقفت الممرضة سهى المصري أمام مرآة الحمام تتفحص
التفخات السوداء الواضحة تحت عينيها لتتهال عليهما بالماء البارد في
محاولة للتخفيف من احتقانهما، ثم اتجهت إلى المطبخ لتحضير فنجان
قهوتها الصباحية.

- لقد نهضت باكراً؟ بادرتها أمها التي كانت في المطبخ تحضّر
فنجان قهوة لنفسها: لا تزال الساعة السادسة.

- لم أنم طوال الليل سوى لساعة واحدة ربما، أما باقي الليل فقد
قضيته متقلبة في فراشي أستمع إلى التطورات العسكرية عبر جهاز
الترانزستور. قالت سهى.

- سأحضّر لك فنجاناً من القهوة معي.

- أرجوك اجعليهما اثنتين. قالت سهى واستطردت: هل عرفت أن
المطار قد أغلق؟ إنه دليل على خطورة الأمور، أعتقد أنه يجب أن
أجلب بعض المؤن للبيت اليوم.

- من حسن الحظ أننا لا نزال في مطلع الشهر والفلوس متوفرة.
قالت والدتها: نحن بحاجة إلى حليب وسكر وأرزّ وسمن وزيت وحمص
وعدس ومعكرونة وطون وسردين.

- أفضل شيء أفعله هو أن أخرج باكراً وأشتري التموين وأتركه
في صندوق سيارتي حتى عودتي مساءً من المستشفى.

- هذه أفضل فكرة ولكن لا تنسي أن تملأي خزان سيارتك
بالبنزين، فلا شك أن قصف مصفاة ومستودعات الوقود في الزهراني
سيؤثر على تسليم البنزين إلى محطات خدمة التوزيع.

- تقول إذاعة مونتي كارلو إن الإسرائيليين أصبحوا بعيدين
عن بيروت مسافة 30 كيلومتراً فقط. تنهدت سهى: وهذا يعني أن

- الضغط علينا سيزداد يوماً بعد آخر. أنا قلقة على الأولاد...
- لا تقلقي سأهتمّ بهم، وبيتنا آمن لوجودنا في الطابق الأول، وإذا استفحل الأمر فسننزل إلى الملجأ، ولقد عرضت مدام ناديا مساعدتها أيضاً، وهي سيدة طيبة.
- أمل أن يمر هذا الكابوس على خير. أجابتها سهى بينما كان جرس البيت يقرع.
- ترى من يكون؟ إنها السابعة صباحاً.
- نظرت سهى من عدسة الباب المكبرة وفتحته.
- خير إن شاء الله يا راشد، هل هناك من مشكلة؟
- أنا آسف جداً لإزعاجك في هذا الوقت، ولكني أشك أن أياً منا قد نام هذه الليلة، وخاصة والدتي التي تبكي من شدة الألم في رأسها، وهي تقول أن لديك دواءً فعالاً لآلام الرأس.
- نعم، أذكر أنني أعطيتها منه مرة وشفيت عندما استعملته. وذهبت إلى غرفتها لجلب بعض الحبوب.
- لا أعتقد أنك ستذهب إلى الجامعة اليوم. بادرت "أم سهى".
- لا أدري، ولكنني قلق على العام الدراسي من التعطيل، إذ لم يبق لنا سوى أسبوع على نهايته.
- ناولت المريضة سهى علبة الدواء إلى راشد الذي شكرها وصعد إلى منزله.
- كانت "أم راشد" مستلقية في فراشها وقد ربطت رأسها بقطعة قماش بيضاء وتفوح منها روائح كريهة نفاذة من دواء صيني مسحت به صدغيها.
- تفضلي يا أمي، تقول المريضة سهى أن بإمكانك تناول حبتين الآن إذا كان ألم رأسك شديداً جداً.
- شكراً يا حبيبي.

- هل ستذهب إلى الجامعة اليوم؟ بادره والده.
- أنا سأذهب مبدئياً لأجلب دراجتي الهوائية من الجامعة، وإذا انعقدت الفصول فسأحضرها.
- لا أعتقد أن الفصول ستعقد اليوم، ولكن في جميع الأحوال عليك بالحذر، فالأوضاع سيئة، وأنا شخصياً لن أذهب إلى مكتبي اليوم، بل سأعمل على تموين البيت بالمواد الغذائية الضرورية.

16

كانت جولي متجهمة الوجه وهي تناقش بروفوسور شومان حول الطريقة الأفضل للتصرف في الأوضاع الراهنة. كان العديد من الهواجس والخواطر تتجاذبها وتشتت أفكارها. فمن ناحية كانت قلقة على سلامة عائلتها الجسدية بشكل أساسي من عنف القصف، ومن المناخ العدائي الذي أشاعه البروفوسور في البيت جراء لعنه الدائم للإسرائيليين والأميركيين كلما سمع هدير طائرة، أو قرأ جريدة، أو تابع أخبار التلفزيون أو الإذاعات، فهي لا تريد للحقد ضد أي شخص أو مجموعة أن يتسلل إلى بناتها وينمو في وجدانهن.

من ناحية أخرى، كان سكرتير في السفارة الأميركية في بيروت قد اتصل بها قبل بعض الوقت ليحذرهما من تفاقم الوضع الأمني، وعارضاً عليها وعلى عائلتها الذهاب إلى مدينة جونية لنقلهم إلى مكان آخر آمن.

- أرجوك أن تكفّ عن لعن القاصي والداني، فإن هذا لن يفيد نباتنا بأي شيء، بل سيربّي فيهنّ الغلّ والحقد، لندعهنّ يخترن طريقهنّ ويكوّنون قناعاتهنّ بأنفسهنّ.

- إنني لا أحاول التأثير على أحد. أجابها البروفوسور: إنني أحاول فقط أن أزيح الغلّ والحقد عن صدري، ولا أجد حلاً لذلك سوى

- بالتفيس بطريقة التعبير هذه، السباب واللعنات عليهم.
- أرجوك إذن أن تعبر عن نفسك بصوت منخفض وبينك وبين نفسك حتى لا تتأثر البنات.
- سأسعى جهدي، على كلٍّ لديّ علاج يخفّف من هذه الحالة وهو اللجوء إلى القراءة والكتابة.
- إذاً مبروك سلفاً شفاؤك.
- دعنا نذهب يا راشد لنجلب المزيد من الكتب لأشفي من هذه الحالة. قال البروفسور وهو يغمز راشد.
- أنا جاهز يا دكتور.
- حملاً الكتب والمراجع ونزلاً درج البناء متجهين إلى مكتبة الجامعة.

17

بعد عدة ساعات من القصف المتواصل على تلال منطقة الجية من الجو والبحر والبر بدأت الدبابات الإسرائيلية بالتقدم. وتداركاً للأسوأ اجتمع مسؤولو التنظيمات المختلفة المنتشرون على تلال الجية وانفقوا على شن هجوم مضاد. ولكن عند الشروع بالتنفيذ أخطأ رامي الآر بي جي إصابة الدبابة الهدف، فانكشف موقع المقاومة وتركز القصف العنيف على أفرادها مما جعلهم ينسحبون. انسحب الجميع إلى ضواحي بلدة برجا حيث علم نبيل من أحد المقاتلين أن القوات تتجمع داخل بلدة برجا استعداداً لشن هجوم معاكس، فيما كان القصف البري والبحري والجوي لا زال يغطي المنطقة.

أما في غرفة عمليات المقاومة وبعد أن أصبحت النوايا الإسرائيلية واضحة، إثر تقدّم قواتها السريع والكثيف واحتلالها أو حصارها لمختلف المدن والقرى الجنوبية من الشقيف إلى الرشيدية وصور

وصيدا وبرجا والسعديات والدامور والناعمة، فإن المقاومة تأكدت أن العاصمة بيروت هي الهدف، والدفاع عنها يستوجب استعدادات جبارة ابتداءً من بوابتها الجنوبية، مثلث خلدة.

لتحقيق هذا دفعت قوات الـ 17 ثلاث سرايا إلى هناك، حيث تمّ تجهيز السرية الأولى بـ 20 قاذف آر بي جي و20 رشاش دكتريوف و40 رشاش مُقنبل و5 غرينوف معدّل و10 كلاشينكوف عادي تحت إمرة قائد محور خلدة الملازم أول محمد غزاوي، وتمّ توزيع المقاتلين بشكل كمائن على طول الشاطئ ابتداءً من راديو أورينت ولغاية قصر أرسلان، وذلك للتصدي للإنزالات البحرية، كما تمّ تثبيت مدفع B10 على سطح بناء مسبح الفاميلي بيتش.

أما السرية الثانية فكان تسليحها مكوناً من عربتي B.T.R على كل منها رشاش 14.5 رباعي ومدفع 75 ملم. أما تسليح أفرادها فكان رشاشات فردية ومتوسطة مع قواذف آر بي جي، وتحددت مسؤولياتها الدفاعية بإنشاء كمائن في مدينة الزهراء، حيث انتشرت على أطراف الشوارع العام وبين الأبنية والأشجار، كما كمن قسم منها بين قصر أرسلان وفندق ليبانون بيتش، أما القسم الثالث المحمول فتموضع قرب الرادار السوري في تلال الدوحة.

تبقى السرية الثالثة والتي كان عديدها من "عرب المسلخ" المهجرين في هذه المنطقة، وقد أوكلت إليهم حماية الأبنية، وكان سلاحهم إضافة إلى الرشاشات الفردية، قنابل يدوية وقواذف آر بي جي. إضافة إلى السرايا الثلاث كمن عناصر الجبهة الشعبية والصاعقة وقوات جيش لبنان العربي بقيادة أحمد الخطيب في نفس المنطقة، وكذلك أخذت قوات حركة أمل مواقعها امتداداً من الأوزاعي حتى مدينة الزهراء بالتعاون مع قوات أخرى من جميع فصائل القوات المشتركة، والفوج 87 من القوات الخاصة السورية ودبابات جيش التحرير الفلسطيني.

18

عانق رفائيل إيتان ضيفه العزيز على باب منزله في صفا في شمال فلسطين، وشبك ذراعه وسارا إلى صالة الجلوس سائلاً عن صحة والده ووالدته وزوجته وأبنائه.

جلس بشير الجميل على الأريكة وحدق في عيني رفائيل إيتان وقال: أنا عاتب عليكم.

- فهمت، لا داعي للعتب، فالعملية كانت سرية جداً حتى على صعيد القيادة.

- حتى عليّ أنا؟ سأله بشير: كيف نكون حلفاء وأنا لا أعرف توقيت الهجوم؟

- كنا قلقين من تسربُ النبأ إلى السوريين، لذلك كان عدد الذين كانوا على علم بالتوقيت لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

- وهل كنت سأسرب أنا هكذا سر؟ وخاصة إلى السوريين؟

- نحن نخاف من الاختراقات الأمنية لديكم، لذلك كان يجب أن نكون شديدي الحرص، أما الآن فقد حان دورك.

- وما هو دوري الآن؟

- سيكون عليكم القتال على جبهتكم لتحرير بلدكم وتنظيفه من السوريين والفلسطينيين.

- نحن جاهزون لذلك، وهذا هو اليوم الذي كنا ننتظره منذ زمن طويل.

- فإذا يجب أن تخطو الخطوة الأولى نحو وضع السوريين والفلسطينيين بين فكي الكماشة.

- نحن جاهزون لتنفيذ أي خطة تضعونها.

- الخطوة تبدأ بمصالحة الرائد سعد حداد، وهو يجلس في الغرفة المقابلة بانتظار دخولنا إليه.

- انتفض بشير وكأن صاعقة ضربته: لا مجال لمصالحة الرائد حداد، ممكن في مرة أخرى، ولكن الآن لا أسمح لنفسى بمقابلته، إن هذه المقابلة ستضرّ بمصالحنا ومصالحكم.

- على العكس. أجب إيتان: إن الكماشة بحاجة إلى أسنان من الشمال والجنوب، أنتم من الشمال، والرائد حداد من الجنوب، بينما ستكون قبضة الكماشة بيدنا.

- اسمح لي أن أصحّح معلوماتك يا صديقي. اعترض بشير محتدًا: لن يكون للبنان مخلصان، بل مخلص واحد هو بشير الجميل، هذا في حال لا زال السيد بيغن يريدني أن أكون رئيساً لجمهورية لبنان الذي سيوقع معاهدة السلام مع إسرائيل.

19

كانت الساعة الرابعة عصراً عندما لعلع صليل المضادات الأرضية بغزارة، لتظهر طائرات الـ F15 و F16 في السماء مطلقاً بالونات حرارية وهي تنقضّ انقضاضاً وهمياً على مربع الفاكهاني/الجامعة العربية في غرب بيروت.

هرع الناس، رجالٌ يحملون أطفالاً، ونساءً يحملن ما تيسر لهن، وعجائز يجرون أجسادهم جراً بعيداً عن مربع الخطر، بعيداً عن مراكز "أبو عمار" والمقاومة ومخازن الأسلحة والمقاومات الأرضية، حتى بدا هذا الحشد البشري وكأنه جموع متفرجي مباراة كرة قدم وقد خرجوا دفعة واحدة بعد انتهاء المباراة.

ارتجت النوافذ فجأة وخشخش الزجاج والستائر المعدنية ووقع انفجار رهيب هزّ مباني المنطقة لتتبعه أربعة انفجارات مماثلة، جرّاء إطلاق طائرات F16 صواريخ مافريك التي يبلغ ثمن الواحد منها أكثر من مائة ألف دولار.

بينما كان الناس يهربون بعيداً عن جحيم المعركة، كان عناصر قوات الـ 17 يسرعون باتجاه الموقع المقصوف في مبنى كلية الهندسة في جامعة بيروت العربية الذي كان الدخان الأسود يتصاعد منه، وذلك لتفقد الخسائر ومساعدة المصابين. كانت ثلاثة صواريخ قد انفجرت عند مدخل البناء بينما أصاب صاروخ رابع بناية مدنية مجاورة فشطرها إلى قسمين، حيث انهار نصفها الأعلى وتصدع النصف الأسفل فملأ الركام الشارع معيقاً حركة المرور. كانت النتيجة سقوط خمسة مدنيين وثمانية عسكريين شهداء.

كان رجال الإسعاف والدفاع المدني يخلون الجرحى والقتلى من البناء المصاب ومن تحت الركام، إذ بالطائرات تعود مجدداً، فانتشر الجميع بعيداً عن مسرح القصف كي لا تتكرر مأساة المدينة الرياضية ثانية. وبالفعل قصفت الطائرات مبنى كلية الهندسة من جديد حيث نفذت الصواريخ عبر الفجوة الكبيرة التي أحدثتها الصواريخ السابقة، لتنفجر في عمق الطوابق السفلى تحت مستوى سطح الأرض، ولترتفع ألسنة اللهب وسُحِبَ الدخان الأسود الكثيف من جديد، بينما المضادات الأرضية تلاحق الطائرات المغيرة لتنفجر طلقاتها الخضراء والحمراء والصفراء في الفضاء بدون نتيجة.

20

رغم أن إدارة الجامعة الأميركية في بيروت كانت قد أعلنت تأجيل امتحانات آخر العام وإقفال أبوابها إلى أجل غير مسمى، فإن بعض الشبان الوطني الغيور تداعى إلى إنشاء مركز للطوارئ في مبنى "وست هول" داخل حرم الجامعة، تحسباً لأي قصف قد يصيبها. وبالفعل تم إحضار بعض الأسرة واللوازم الطبية والإسعافات الأولية من الصليب

الأحمر اللبناني وجمعية المواطن الصالح، كما تبرّع بعض طلاب وطالبات الطب والتمريض بالسهر على خدمة المركز، وتمّ تنويع قدرات المركز بسيارة إسعاف كاملة التجهيز قدمها الصليب الأحمر اللبناني.

وصل بروفيسور شومان إلى مبنى "أدا دودج" الملاصق لمبنى "وست هول" متأخراً عن مواعده مع راشد في كافتيريا الجامعة أكثر من ساعة. كان راشد قد أنهى قدح الشاي، ويستعد للمغادرة، عندما دخل البروفيسور متوتراً والسيجارة في فمه على غير عادته.

- آسف يا راشد. بادره البروفيسور: اجلس وسأشرح لك.

- لا داعي للأسف بروفيسور، ولكنني كنت منشغل البال عليك، فأنا

أعرف مواعيدك الدقيقة، أما اليوم فغريب جداً هذا!

- اجلس، اجلس، لا أدري كيف أبدأ معك في هذا الموضوع

الحساس، ولكنني سأتكلم معك بحرية وأرجو منك أن تأخذ حريتك في كلامك وقرارك، والذي سأحترمه بكل تأكيد، والذي لن يؤثر على صداقتنا أو على علاقتنا الأكاديمية إن سلباً أو إيجاباً.

- أنت تخيفني بروفيسور شومان. قال راشد مستغرباً: ماذا

ستشرب؟

- قهوة رجاءً بدون سكر. وأشعل سيجارة وحدّق بعيني راشد:

عليك أن تعني أن الحديث الذي سيتمّ بيننا سيقى سراً دفيناً بينك وبينني إذا وافقت على مساعدتي أو لم توافق.

- أكيد دكتور، ولكنك لا زلت تخيفني.

- بصراحة، أنا أرى أن هذه الحرب لا شك خاسرة إذا استمرت

على هذا المنوال لأنها غير متكافئة، فالفضاء ملكٌ للإسرائيليين الذين يسرحون ويمرحون؛ يدمرون ويقتلون وينتصرون دون أي رادع يوقفهم عن اعتداءاتهم هذه.

- ولكن ماذا تستطيع العين أن تفعل في مواجهة المخرز؟
 - إذا كانت العين تقذف لهباً فستذيب المخرز وتقضي على حامله.
 - إذا نحن بحاجة إلى سوبرمان.
 - لا يا راشد. أجابه البروفسور عابساً: اسمعني جيداً، نحن بحاجة إلى التفكير والبحث عن مخارج، تذكر أن حديثنا هذا سيبقى سراً فيما بيننا.
 - نعم من المؤكد بروفسور، أنت تشوقني.
 - هل سمعت بصاروخ سام 7.
 - نعم، إنه الصاروخ المضاد للطائرات والذي يُطلق عن الكتف.
 - أخفض صوتك، فالنادل قادم.
- قدّم النادل القهوة والشاي لهما وانصرف. أشعل البروفسور سيجارة جديدة من عقب السجارة السابقة وأخذ نفساً عميقاً.
- باختصار، إن صاروخ SAM7 الذي يُطلق عن الكتف وتستخدمه المقاومة الفلسطينية الآن ليس قادر على إسقاط أي طائرة إسرائيلية في الأوضاع الحالية، رغم أنه يتعقب حرارة الإشعاعات تحت حمراء IR الصادرة عن عوادم هذه الطائرات. ذلك أن الإسرائيليين الملاحين قد ابتدعوا البالونات الحرارية التي تجذب صواريخ سام إليها، فتُشتت مسار الصواريخ فتفجر في الجو بعيداً عن الطائرات المستهدفة أو تسقط حطاماً على الأرض.
 - وما الحل لهذه المشكلة؟ سأله راشد مستغرباً.
 - الحل يقضي بجعل الصواريخ تنقّص حرارة الأشعة فوق بنفسجية UV من مصدرين في الطائرات، من بدن الطائرة جراً احتكاكها بالهواء، وكذلك من شهب اللهب الصادر من عادم الطائرة، وبطبيعة الحال، ففي هذه الحالة لن يستشعر الصاروخ حرارة الأشعة تحت حمراء IR الصادرة عن البالونات الحرارية، فيصيب الطائرة نفسها ويفجّرهما.

- ولكن كيف السبيل إلى جعل الصاروخ يستشعر أشعة UV بدل أشعة IR؟
- هذا ما كنت أبحث عنه في تلال الكتب والمراجع التي قرأتها في مكتبة الجامعة والتي جلبتها إلى البيت.
- وهل اكتشفت الطريقة؟ سأله راشد متشوقاً.
- أخيراً والحمد لله أعتقد أنني وصلت إلى وسيلة مؤكدة النتائج.
- كيف؟ سأل راشد وقد فقد صبره.
- خذ دفتر ملاحظاتي هذا، وقرأه بهدوء، أرجو أن تتمكن من قراءة خطي الصغير، وأعتقد أنك ستفهم المضمون فأنت طالب فيزياء في النهاية.
- تناول راشد الكرّاس من بروفيسور شومان مستغرباً، وبدأ بتصفحه.
- توقف، لقد اتفقنا على أن كل شيء سري! خذ الكرّاس إلى منزلك وتمعن بمضمونه، وسنلتقي لاحقاً إن شاء الله. وإذا أردت أي شيء اتصل بي.
- حاضر بروفيسور.
- تذكر أن كل شيء سري.

21

أوقف "أبو عبد الله" سيارته إلى جانب الرصيف المواجه لمدخل البناء، فتح صندوق السيارة المليء بالمواد الغذائية: صندوق بطاطا ورزم من المعكرونة، صندوق معلبات مختلفة وأكياس تحتوي على لحوم وبيض وخضار وفاكهة وعلبتي حليب مجفف وكيس كبير من الحفاضات، إضافة إلى بطيخة كبيرة.

- هل رأيت "أبو جمال"؟ توجّه "أبو عبد الله" بالسؤال إلى "رويتز" الذي كان جالساً في مكانه المعتاد على الرصيف.

- كان هنا قبل قليل، أعتقد أنه دخل إلى بيته.

بينما دخل "أبو عبد الله" للبحث عن "أبو جمال"، تابع "رويتز" نقاشه مع "أبو عفيف".

- تصوّر أن إسرائيل قد احتلّت ربع لبنان حتى الآن ولم تتحرك أي دولة عربية. هل ينتظرون احتلاله بالكامل ليتحركوا؟

- ربما، فطالما بقيت عملية تنفيذ مشروع إسرائيل الكبرى بعيدة عنهم، طالما هم مرتاحون وغير مهتمين بالموضوع.

في هذه الأثناء خرج "أبو عبد الله" و"أبو جمال" باتجاه السيارة.

- على فكرة، ما هي أخبار ابنك جمال. سأل "أبو عبد الله".

- الله أعلم. قالها "أبو جمال" بغصّة: ليس هناك من خبر عنه، لقد ترك بيروت منذ أربعة أيام ولم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك الوقت.

- عسى خيراً. قال "أبو عبد الله" محاولاً طمأنته: وأنا كذلك والداي في الجنوب ولم أسمع عنهما شيئاً، فالطرقات والخطوط الهاتفية مقطوعة، والله أدري بأحوالهما، فهما مسنّان وبحاجة دائمة إلى الأدوية.

- لا نستطيع إلا أن ننتظر. قال "أبو جمال" محاولاً طمأنته بدوره: هل تريد أن نصعد بكل هذا التموين إلى البيت؟ ليت جمال كان هنا لكان ساعدنا في ذلك. ومسح دمعة عن عينه.

حمل "أبو جمال" صندوق البطاطا على كتفه بينما حمل "أبو عبد الله" البطيخة وطلب من "رويتز" وهما متجهين صوب مدخل البناء أن ينتبه إلى صندوق السيارة المفتوح والمليء بالمواد الغذائية.

22

بناءً على الاتفاق الاستراتيجي والتعاوني الذي تمّ توقيعه في نهاية العام 1981 بين واشنطن وثل أبيب، أُتيح لطائرات هاوكي Hawkey E-2C الإسرائيلية الاستفادة من منظومة 3CI الاستراتيجية (قيادة، اتصالات، تنسيق واستخبارات، Coordination, Communication, Command, Intelligence)، مما سمح لهذه الطائرات المرتبطة بالأقمار الاصطناعية التابعة لوزارة الدفاع الأميركية و NASA من الاستفادة من أنظمة GPS (نظام التموضع العالمي Global Positioning System) و RS (الاستشعار النائي Remote Sensing)، وغيرها من الأنظمة الإلكترونية المتقدمة وإنذار غرفة عمليات سلاح الطيران الإسرائيلي بتأهب طائرات سلاح الجو السوري من طرازي ميغ 21 و 23 للإقلاع لمطاردة الطائرات الإسرائيلية التي كانت تقوم بتدمير بطاريات صواريخ سام 6 في سهل البقاع، بعد أن أفشلت قدرات الرادارات على تحديد مواقع الطائرات المعادية للانطلاق إليها وإصابتها بسبب التشويش الإلكتروني الذي سلط عليها، ذلك أن الإسرائيليين سبق وزرعوا في الجو شبكة من أربع طائرات بوينغ تمّ تطوير تجهيزاتها لتستفيد من منظومة 3CI للتشويش الإلكتروني على الرادارات وأنظمة الاتصالات السورية. فما أن ارتفعت الطائرات السورية في الجو حتى اكتشف طياروها أنهم أصبحوا معزولين عن قاعدتهم وعن بعضهم البعض، كما أن رادار تقصي حركة الطائرات المعادية أصبح مشلولاً، مما جعلها فريسة سهلة لصواريخ جو - جو السايندوايندر من طائرات F15 و F16 وسكايهوك الإسرائيلية، فالإسرائيليون كانوا قد حصلوا مسبقاً على معلومات شديدة الأهمية، إثر تحليلهم لأجزاء حساسة من حطام طائرة الميغ 23 السورية التي سبق أن أسقطتها الطائرات الإسرائيلية قبل عدة أشهر في مناطق سيطرة القوات

اللبنانية، حيث تمّ عندها إخضاع الطيار السوري للاستجواب بناءً على مجموعة كبيرة من الأسئلة التي قدّمها الإسرائيليون للقوات اللبنانية. استمرّت المعركة الجوية لمدة ساعة ونصف وكانت حصيلتها إسقاط 22 طائرة ميغ سورية وتدمير 19 بطارية صواريخ سام 6 منصوبة في سهل البقاع اللبناني، ولم يخسر الإسرائيليون شيئاً.

23

استفاق حسين حرب من نومه على ضجّة أولاد يلعبون. فتح عينيه محاولاً معرفة مصدر الأصوات، فاجأه وجود قطعة قماش بشكل خيمة فوق رأسه، نظر يميناً ويساراً فتعرّف إلى الفراش الذي أحضره من البيت يوم أمس، عندها بدأت تعود إلى ذاكرته صور الأحداث التي مرّت عليه البارحة. فبعد أن قصفت الطائرات الإسرائيلية مخيم شاتيلا وأطراف مخيم برج البراجنة، شعرت عائلة حرب بالخطر الداهم على بيتها في ضاحية بيروت الجنوبية، فجمعت "أم علي" على عجل ما وصلت يداها إليه من ثياب وفراش وأدوات مطبخية، وكدّستها في صندوق تكسي زوجها، الذي كان بدوره سعيداً لخروجه من منطقة الخطر، لأنه كان خائفاً من فقدان سيارته التي هي مصدر رزقه جرّاء القصف الجوي. أقفل باب داره وعلّق عليه رسالة لابنه علي تفيد أنه العائلة قد هربت إلى حديقة الصنائع، ثم حشر زوجته وأولاده الأربعة مع بعض البطانيات والوسائد والطناجر داخل السيارة، وأقلع بهم باتجاه الحديقة البعيدة عن مكاتب المقاومة والمخيمات الفلسطينية حسب اعتقاده.

قطعتْ عليه زوجته "أم علي" شريط أحداث الأمس صارخة: لن أبقى في هذه الحديقة دقيقة واحدة بعد الآن.

- ولكن ما القصة؟ بالأمس كنت سعيدة بالأزهار والأشجار وملعب الأطفال، ماذا جرى؟
- ما عليك إلا أن تقوم بزيارة إلى الحمامات العامة في الحديقة لتكتشف ما القصة.
- نهض "أبو علي" من الفراش متثاقلاً ومحاولاً تحديد أي الأماكن من جسمه يؤلمه أكثر من غيره نتيجة لنومه غير المريح.
- عليك أن تذهب وتحلّ إحدى الشقق مثل غيرك من الرجال، أريد أن أثبت للجميع أن زوجي رجل حقيقي يليق به شارباه، وإلا سأطلب ذلك من ابننا علي.
- يا بنت الحلال، عليك أن تعرفي أن الرجال لا يثبتون رجولتهم باحتلال أملاك الغير واستباحة أزواقهم، بل بالتفاهم مع محيطهم والتعايش مع مجتمعهم.
- أنا لا أفهم كل هذا الكلام، أريد شقة في بناية في شارع الحمراء اليوم، مثل "أم محمود".
- حاضر. قال "أبو علي" مراوغاً: ولكنك تتحملين كامل المسؤولية إذا وقع أي مكروه للأولاد.
- ماذا تعني؟
- أعني أن الأبنية أخطر من الحقائق العامة، ذلك أن الإسرائيليين يقصفون جميع الأبنية التي يشكّون أن "أبو عمار" أو أي من قياديين المقاومة أو الحركة الوطنية ينامون فيها.
- إذاً ما هو الحل؟
- الحل هو أن يجتمع جميع سكان الحديقة وينظموا شؤونهم بحيث يصبح لدينا عدة لجان، للإدارة والنظام وطبعاً للنظافة ونحدّد المسؤوليات، بحيث يقوم الجميع بخدمة مجتمعهم الصغير هذا.
- آه يا "أبو علي"، لا زلت قبضائياً واسماً على مسمى.

- ربما اسمي الأول فقط، ولكن ليس اسم عائلتي، فأنا أكره الحرب، على كلِّ سأقوم بجولة في الحديقة لأتعرّف إلى الجيران كلهم وسأدعوهم إلى اجتماع عام، في بركة الماء الكبيرة الفارغة، حيث سنبداً نشاطنا.

- سأذهب معك، فقد تعرّفت إلى بعض النساء هذا الصباح وسأساعدك في هذه المهمة، وسأتعرف بالوقت نفسه على باقي نساء الحديقة.

24

جلس راشد يتصفح كرّاس ملاحظات البروفسور مندهشاً من المعلومات الواردة فيه. كان قسم من النصوص يتمحور حول صواريخ سام وخصائصها وطريقة عملها واستعمالها، وقسم آخر حول الأشعة الفوق بنفسجية والتي تحت حمراء، وكانت، هناك خمس صفحات حول القاذفات والمقاتلات الإسرائيلية ومواصفاتها، أما القسم الذي أثار معظم اهتمامه فكان بعنوان "مضخّات التحسس PMT".

تتكوّن مضخّات التحسس من أنبوب مفرغ من الهواء، في أحد أطرافه رقاقة من مادة أندنيوم أنتيمونايد (أو مادة مماثلة SbKc أو CsTe) تسمى المهبط التحسسي. ولهذه المادة خاصية إطلاق شحنة كهربائية سالبة عند تعرضها إلى فوتون (طاقة ضوئية). وكل شحنة كهربائية يطلقها المهبط تعبر عبر حقل كهربائي حيث تضخّم إلى دفق من الكهرياء السالبة، وذلك عبر مجموعة من الشرائح المعدنية (داينود) وحقل كهربائي مسرّع في الأنبوب. ولضمان انفراد المضخّ بالتقاط الأشعة فوق البنفسجية UV فقط، يفضل أن يصنع مدخل الضوء من مادة الكوارتز.

توقّف راشد عن القراءة وأسهم التفكير بما قرأه. لقد تكوّن لديه شعور بصواب فكرة بروفسور شومان من الناحية العلمية. ولكن من الناحية العملية، كيف سيتمكّن من صناعة هكذا جهاز يتكون من العديد

من المواد والعناصر غير المتوفرة في الأسواق، خاصة في حالة الحرب التي تمر بها بيروت. فقرر أن يترك الموضوع للبحث خلال لقائهما المقرر بعد الغد.

تناول صحيفة "السفير" لمتابعة المزيد من الأخبار التي سبق واستمع إليها عبر الراديو والتلفزيون. صدمه حجم كارثة سلاح الطيران السوري، متسائلاً عن أسباب التقهقر التكنولوجي العربي الذي أدى إلى هذه المصيبة. غير أن باقي الأخبار لم تكن أفضل حالاً: القذائف الإسرائيلية تهدم مركزاً للصليب الأحمر في أطراف مدينة صيدا، معارك بالدبابات قرب بلدة جزين، محاولات إسرائيلية لقطع طريق بيروت - دمشق، القوات الإسرائيلية تحتل المقر الصيفي لرئيس جمهورية لبنان في قصر بيت الدين، تجدد القصف على المدينة الرياضية ومحيطها في بيروت، مواجهات عنيفة بين الإسرائيليين والمقاومة الفلسطينية في مدينتي صور وصيدا، المقاومة تقصف المستعمرات الإسرائيلية بالصواريخ، آلاف النازحين يتدفقون على بيروت من جنوب لبنان هرباً من جحيم المعارك.

قبل أن ينهي قراءة الجريدة ألقى نظرة سريعة على صفحة الوفيات حيث فاجأه وأحزنه نعي أستاذه المفضل لمادة الجبر خلال دراسته الثانوية: الشهيد الأستاذ نادر حسن ماضي، ضحية القصف الصهيوني الغادر لمنطقة الفاكهاني والذي سيصلّى على جثمانه الطاهر عصر يوم الخميس 10 حزيران 1982.

25

حوالى الخامسة من عصر الأربعاء 1982/6/9 تقدمت وحدة من اللواء المدرع الإسرائيلي بقيادة العقيد الركن إيلي جيفع باتجاه منطقة خلدة آتية من الناعمة.

قبل هذا شاركت الوحدة بمهاجمة مواقع المقاومة الفلسطينية في مدينة صور واحتلتها، حيث صادرت جميع الوثائق والإضبارات الخاصة بالمقاتلين والأنصار والفدائيين الأجانب المنتهقين بالمقاومة. وبعد سقوط مدينة صور، صدرت الأوامر إليها بالتقدم نحو صيدا التي كانت تحاصرها ثلاثة ألوية إسرائيلية آلية ومدرعة. ولكن الأوامر عادت وصدرت إليها مجدداً بتجاوز مدينة صيدا والتقدم نحو بلدة الدامور. هنا أبدى العقيد جيفع استياءه لقيادة الأركان من هذا التحرك، فالخطة التي أعلن عنها للضباط أثناء الاجتماع التحضيرى للغزو، كانت بالوصول إلى صيدا لتأمين منطقة عازلة تُبعد الكاتيوشا عن الجليل الأعلى. ولكن هنا اختلف الأمر! تردد العقيد بتنفيذ الأمر رغم الشجاعة التي عُرف بها، وتململ جنوده لقناعتهم بأن توسيع الحرب شمالاً سيضعف من الخسائر في الأرواح في صفوفهم، ولكن الأوامر العسكرية وضعت للتنفيذ وليس للنقاش.

ساد العسكريون شعور غريب وخطير، جعل كل واحد منهم يوصي زملاءه بأن يبلغ أهله وأحبته في حال موته أنه قاتل بضراوة حتى النهاية وكان بطلاً.

عند وصولهم إلى الدامور انهمر عليهم رصاص وقنابل من جميع الجهات، فكان قتالاً عنيفاً ومجنوناً لم ينقذهم منه سوى الأوامر الجديدة من القيادة بمواصلة التقدم نحو بيروت. رغم الوجود والحذر الذي استقبلت به الوحدة تعليماتها الجديدة ولكنها استمرت بالتقدم، فعبرت منطقة الناعمة، واتجهت عبر الطريق الساحلي القديم إلى مثلث خلدة حيث تقع مجموعة من الفنادق والمجمعات السياحية على الطريق المؤدي إلى العاصمة بيروت.

راقبت كمائن المقاومة رتل الآليات الإسرائيلية من مخابئها وهي تعبر من أمامها شمالاً، وانتظرتها لتصل إلى المنعطف المتجه شرقاً،

حيث فتحت عليها نار جهنم من جميع الجهات، صواريخ وقذائف وقنابل ونيران رشاشات انصبّت على القافلة التي أصبحت عاجزة عن التقدم بعد أن أصابت نيران جنود القوات السورية الخاصة طليعة دباباتها فأعطبتها واندلعت النيران فيها.

عندها وقعت معركة طاحنة بين الدبابات الإسرائيلية ودبابات جيش التحرير الفلسطيني المنتشرة هناك، حيث لم تصمد فيها الدبابات الفلسطينية الأثرية السيئة التدريب أمام حجم نيران الدبابات الإسرائيلية الحديثة، فكانت النتيجة كارثية. ولكن وما أن هدأت عاصفة مدفعية الدبابات قليلاً، حتى تسلّل شبان يافعون من معظم التنظيمات يحملون قاذفات الآر بي جي، وقد عصب بعضهم رؤوسهم على طريقة الحرس الثوري الإيراني في مقارعتهم للقوات العراقية. تسلّلوا من الأبنية ومن خلف الأشجار ومن الأزقة مُصوّبين قواذفهم إلى الدبابات المتقدمة من مسافات استشهادية لا تتجاوز 15 متراً، معرضين أنفسهم للقنص والدهس. وبكل جرأة وتحذّر وإيمان أطلقوا قذائفهم المباشرة باتجاه الدبابات والمدرعات وحاملات الجند الإسرائيلية، مفتتحين عرس النار فأعطبت له دبابتين مقابل مدينة الزهراء، حيث شبّت فيهما النار وارتفعت أصوات استغاثة طواقمهما تطلب النجدة. عندها حاولت الآليات الخروج من الكمين المنصوب بالاتجاه يميناً، ولكن الكمائن المنتشرة في ذلك الاتجاه تعاملت معها فتراجعت بسرعة خوفاً من الآر بي جي. وفي تلك الأثناء حاولت دبابة باتون مزودة بجارفة دفع إحدى الدبابات المعطوبة جانباً لتفتح الطريق الضيق أمام بقية الرتل، فتعامل معها الشبل طارق الذي لم يبلغ الخامسة عشر من عمره فتفجّرت واشتعلت مؤخرتها وتناثر حطامها، وفي نفس الوقت تمّت إصابة دبابتين أخريين مقابل مسبح الفاميلى بيتش.

عند ذلك تقدّمت ناقلة جنود M113A1 إسرائيلية لإخلاء الجرحى تحت تغطية نارية، ولكنها جوبهت بهجوم مضاد من ثلاثة مقاتلين

بواسطة الرشاشات والقنابل اليدوية، فأبادوا جميع من عليها واستولوا عليها وهي لا تزال صالحة. وفي خلال هذه المعركة تقدمت دبابتان من المؤخرة وأخذتا تطلقان النار على المقاومين فاستشهد ثلاثة منهم. تمّ التعامل مع الدبابتين فأصيبت إحدهما واحترقت وتراجعت الثانية، وبدأ انسحاب ما تبقى من الرتل المؤلّل تحت تغطية كثيفة من نيران الرشاشات والمدفعية. عندها، وبناء لأوامر عدنان حلباوي تقدّمت مجموعة أخرى من رماة الأر بي جي من مدينة الزهراء وتصدّت لها، فأصابت إحدى الدبابات المنسحبة وأحرقتها فيما واصلت بقية الوحدة انسحابها تغطّيها مظلة نارية كثيفة. هنا أصيبت الدبابات الإسرائيلية ضمن مرمى نيران مدفع الـ 75 ملم على التل في أول منطقة الدوحة فأعطبت دبابتين أخريين. وفي نفس الوقت أبلغت القيادة بإحداثيات خط انسحاب الوحدة المؤلّلة فانصبّت عليها صواريخ راجمات قوات أجنادين من الأوزاعي. ومع ابتعاد الرتل الإسرائيلي بدأت البوراج الإسرائيلية قصفاً مجنوناً على القوات المشتركة وقام الطيران بغارات على ارتفاع منخفض لكشف مواقع المقاومة استعداداً للتعامل معها. ورغم هذا فالمعنويات كانت مرتفعة أكثر من مستوى تحليق الطائرات العدوّة.

26

عند المساء وصل بشير الجميل مع بعض مستشاريه السياسيين والعسكريين للاجتماع مع مناحيم نافوت (مندي) وثلاثة من ضباط هيئة أركان الجيش الإسرائيلي في الفيلا التي اختارها الموساد الإسرائيلي في منطقة طبرجا كمركز لقيادته في لبنان.

- كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة. بادر المقدم جيورا بالحديث: المهم أن الضغوط السياسية علينا لا تزال بسيطة وهي ليست

ذات تأثير يذكر. لقد اشتبكنا اليوم مع القوات المتمركزة على محور خلدة، ولكننا لم ندخل المنطقة. ولقد كلفني الجنرال رفول إيتان بأن أبلغكم بأنه ليس بحاجة إلى مساعدتكم العسكرية في الوقت الراهن.

- ولكن عليكم أن تتحركوا بقوة باتجاه المخيمات الفلسطينية. أجاهه بشير: يجب أن يشعر سكان بيروت أنكم تتقدمون لاحتلالها، فمثلاً بوسعكم أن تتفنوا إنزالاً في منطقة الرملة البيضاء على شاطئ بيروت.

- هزّ الضابط الإسرائيلي رأسه قائلاً: لا توجد أوامر حتى الآن تقضي بتنفيذ هكذا عمليات.

- إذاً عليكم تصعيد حدة القصف على المدينة، فلم يعد لدينا الكثير من الوقت. أجاه بشير بحدة.

- إن هذا الأمر بحاجة إلى قرار على أعلى المستويات، على كل سأنقل طلباتك إلى القيادة.

- بلغ الجنرال رفول أننا بحاجة إلى المزيد من الضغط العسكري لتسهيل وضع المخطط السياسي قيد التنفيذ. لقد بدأ المدنيون المسلمون بالهرب باتجاه مناطقنا، ولكن يجب متابعة الضغط للوصول إلى نتيجة.

- سأبلغ الجنرال بهذا.

- يجب أن نصل إلى هدفنا بأسرع وقت. يجب تجريد الفلسطينيين من أسلحتهم، فهم لا يفهمون سوى بالضغط عليهم، والوسيلة الوحيدة لإدخال الجيش اللبناني إلى مخيماتهم هي عبر تجريدهم من سلاحهم.

- سأبلغ الجنرال رفول بذلك ولكنني أشك بموافقته. السيناريو المطروح هو أن تقوموا أنتم بالعملية إلى جانب الجيش اللبناني. أجاه المقدم جيورا: ربما سيساعد ذلك قطعنا للكهرباء والماء عن العاصمة، أو ربما لو طلبت السلطات اللبنانية منا رسمياً الدخول إلى المخيمات.

- أنتم تعرفون أن هذا مستحيل. أجاهه بشير مزجراً.

27

جلس "رويتز" وجاريه "أبو عفيف" وموسى على رصيف الشارع كالعادة يحللون الأوضاع العسكرية والسياسية.

- أعجب شيء في هذه الحرب هو موقف الحكومات العربية. قال "رويتز" وهو يعبث بمفاتيح جهاز الترانزيستور بحثاً عن آخر الأخبار: هي معنا بقلوبها وإذاعاتها، ولكنها غير مستعدة لقطع إمدادات بترولها احتجاجاً على الحصار، أو قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة لتزويدها إسرائيل بالأسلحة والذخائر التي تقتلنا بها.

- هذا صحيح، ولكنها تتصرف وكأنها تناصرنا، إذ تسمح لمواطنيها الذين يريدون نصرة المقاومة أن يأتوا إلى هنا براً عن طريق دمشق. علق موسى.

- هل تخدعك هذه الألاعيب يا موسى؟ إنهم يسمحون لهم بالعبور على أمل أن يستشهدوا فيتخلصوا من المشاعبين على أنظمتهم، وإذا لم يستشهدوا تضاف أسماؤهم إلى قائمة الإرهابيين ويوضعون تحت مراقبة رجال الأمن عند عودتهم إلى بلادهم.

- يا لطيف، هل هذا معقول! سأل "أبو عفيف" متعجباً.

في هذه الأثناء توقفت سيارة جيب عسكرية تابعة لقوات الـ 17، ونزل منها مقاتل أشعث الشعر أغبر الوجه مهلهل الثياب، وقد ربط ساعده الأيسر برقبته بواسطة قطع قماش أنتزعت من ثياب عسكرية موشحة ببقع مسودة من الدماء.

- إنه جمال، ابن "أبو جمال". زعق "رويتز".

- الحمد لله على السلامة. صرخ "أبو عفيف" بصوت عالٍ وهو ينهض لمعاينة جمال مع جاريه، ومرافقته إلى منزل أهله في الدور الأرضي، مرددين عبارات التهنية بالسلامة.

انهمرت الدموع غزيرة على خدي "أم جمال" وهي تعانق ابنها وقد تعلق إخوته بأطراف ثيابه محاولين محادثته ومعرفة أخباره، بينما أدار "أبو جمال" وجهه نحو الحائط يمسح دمعة عزيزة.

- أريد أن أكل. همس جمال في أذن أمه.

- تكرم عينك. وتركته أمه على مضض متجهة إلى المطبخ.

اكتظت الغرفة الصغيرة التي تستعمل نهاراً للجلوس وليلاً للنوم بالأهل والجيران الذين أتوا يسألون عن جمال، فانسحب "رويتز" وجاراه.

وضعت "أم جمال" طبق الفاصوليا والخبز على الطاولة وجلست بجانب ابنها.

- ماذا قالوا لك في الهلال الأحمر عن ذراعك؟

- طلبوا مني تحريك أصابع يدي، وعندما تأكدوا أنني قادر على

تحريكها، قالوا لي إنها سليمة، والحمد لله على السلامة.

- هل تشعر بألم؟ سألته أمه.

- هناك بعض الألم عندما أحرّكها.

- إذاً إنه صحن طعامك ولنذهب إلى مستشفى البربير.

28

هدرت ناقلة الجنود M113A1 الإسرائيلية وهي تسير في شارع مار الياس تحت أشعة الشمس اللاهبة رافعة الأعلام اللبنانية وأعلام حركة أمل وقد جلس على متنها أكثر من اثني عشر شاباً من مقاتلي الحركة وهم يكبرون ويحيون الجماهير التي كانت تلوّح لهم وترش عليهم الأرز. توقفت حركة المرور، ونزل الركاب من السيارات ليمتّعوا أنظارهم بهذا المنظر الفريد الذي قد لا يتكرر ثانية، وهنا زغردت

إحدى النساء فيما واصلت الملاحة سيرها بعكس اتجاه مرور السيارات نزولاً عند محطة أيوب ويساراً في شارع القنطاري باتجاه حديقة الصنائع.

في الليلة السابقة، وبعد انجلاء معركة خلدة وتقهقر القوة الإسرائيلية الزاحفة، وأثناء تحويم الطيران الإسرائيلي في الجو، أصرّ بعض المقاتلين على مصادرة ناقلة الجنود الإسرائيلية كغنيمة حرب. فقفز إليها ثلاثة عناصر من قوات الـ 17 وثلاثة من قوات الصاعقة وأربعة عناصر من حركة أمل والجنود الإسرائيليون القتلى لا زالوا بداخلها واتجهوا بها إلى مكتب قوات الـ 17 في منطقة الأوزاعي. وهنا طلب "أبو الطيب" مسؤول الـ 17 من العناصر أن يأخذوا ناقلة الجنود إلى مكتب حركة أمل في الأوزاعي بعد إخلائها من جنث الإسرائيليين، ولكن مسؤول الحركة في مكتب الأوزاعي أُلحَّ أن تذهب الناقلة إلى مقر قيادة حركة أمل في منطقة برج البراجنة. وبالفعل انطلقت الناقلة صعوداً باتجاه حسينية البرج حيث يوجد مقر قيادة حركة أمل بقربها.

استقبل رئيس حركة أمل نبيه بري وأعضاء قيادته ناقلة الجنود وطاقمها بالحفاوة والترحاب، وعندها اتصل بهم عرفات حجازي مقدم نشرة أخبار المساء من تلفزيون لبنان وأجرى مقابلة مع الأخ نبيه عبر التلفون حيث تلا بيان الحركة حول معركة خلدة.

بعد المقابلة وأثناء الحديث عن ظروف المعركة بين بري والعقيد "أبو الطيب" سُمعت جلبة وصراخ خارج المكتب، حيث تبين أن هناك شجاراً بين عناصر الـ 17 وأمل والصاعقة حيث كان كل تنظيم يحاول أخذ الآلية إلى مركز قيادته. فأمر "أبو الطيب" عناصره بالعودة إلى مكاتبهم، وسمح لعناصر الصاعقة أن يأخذوا الملاحة لمدة أربع ساعات فقط لرفع معنويات العناصر، على أن تعاد إلى حركة أمل وتبقى لها.

واصلت الملالة صعودها باتجاه حديقة الصنائع تحت شمس محرقة والشبان يتصبّبون عرقاً وهم يلوحون بالأعلام وبأياديهم للمواطنين المدهوشين والسعداء في آن معاً. وما أن وصلت إلى باب الحديقة حتى توقفت، ووقف العناصر على ظهرها وقد حمل علي حرب العلم اللبناني وهو يلوح به متلفتاً يميناً ويساراً بحثاً عن عائلته.

نظرت "أم علي" إلى الملالة متعجبة، أمعنت النظر، ولكن ابنتها حوراء كانت أسرع منها بالتعرف إليه فصرخت: إنه أخي علي.

ركضت "أم علي" وحوراء وإخوتها مع جمع من سكان الحديقة باتجاه بابها لاستقبال علي وزملائه الذين كانوا يهّللون ويكبرون مع جمهور الحديقة الذي تحلّق حولهم.

قفز علي إلى أحضان أمه وجيرانه ودموع الفرح تسيل على الخدود، بينما شرع بائع شراب السوس البارد بتوزيع الشراب مجاناً احتفالاً بالمناسبة كما شكّل بعض الشبان حلقة رقص الدبكة.

29

راحت الذكريات تتوارد إلى ذهن راشد واحدة تلو الأخرى، وهو جالس في سيارة صديقه نبيل في طريقهما نحو كورنيش المزرعة من شارع مار الياس. كانت الجموع التي استقبلت الملالة الإسرائيلية لا تزال محتشدة في الشارع، فقرأت الفاتحة عن روح الأستاذ نادر ماضي بينما فتح شرطي السير الطريق أمام الموكب الحزين ليعبر باتجاه الكورنيش في طريقه إلى مدافن الشهداء.

عادت إلى ذاكرة راشد صورة الأستاذ ماضي ببذلته الكحلية اللماعة من كثرة مرور المكواة عليها، وقد شابها بعض الطباشير الأبيض، محاولاً بصوته المنخفض والبطيء النبرة أن يُدخل المعادلات

الرياضية في أذهان الشبان، عبر التشديد عند تحريك شفثيه وشاربيه وعضلات خديّه ويديه، حتى كان يخيّل لناظره من شباك الفصل أنه يدرّس جماعة من الصم والبكم بطريقة تحريك الشفاه.

زحفت السيارات الأربع خلف سيارة الستايشن البيضاء التي تحمل نعش الشهيد ببطء بينما كان ترتيل القرآن الكريم ينطلق من بوق معلّق على سطحها.

نظر راشد إلى صديقه وزميله في الدراسة نبيل وسأله: ترى كم من الأجيال تخرّجت على يد الأستاذ ماضي؟

- إنه في سلك التعليم منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.

- هذا ما أقصده، أين زملاؤه في التدريس؟ أين طلابه؟ إن عدد المشيعين لا يتجاوز العشرين شخصاً.

- هذا مؤسف حقاً. علّق نبيل: لا بد أن المنشورات التي رماها الإسرائيليون من الجو اليوم قد تسببت بهرب الكثيرين إلى خارج بيروت.

فجأة عاد الصوت المرعب يهدر في السماء مترافقاً مع صوت إطلاق المضادات الأرضية، ومع هذه الموسيقى العجيبة شعر نبيل وكأنّ أخطبوطاً قد أمسك بحنجرته.

- هل كان عليك أن تذكر الإسرائيليين ليأتوا؟ توجه إليه راشد مماًزحاً في محاولة لتهدئته.

ضغط نبيل على دواسة البنزين في محاولة للحاق بالموكب الذي دبّت في أوصاله الحركة فضاعف من سرعته بعد أن أدار سائق سيارة دفن الموتى منبّه الطوارئ، الذي طغى صوته على صوت ترتيل القرآن الكريم، ولكنه تكامل مع هدير القاذفات وصليل المضادات الأرضية. وكان هذه الموسيقى العجائبية كانت استهلالاً لمهرجان الصوت والضوء المجنون، إذ عَنف هدير الطائرات فجأة وكان السمفونية وصلت إلى ذروتها فومضت السماء وأضيء الكورنيش بألف شفق وغسق وتناثر

الفحم المشتعل من موقد جده نبيل عندما رفسه خطأ وهو طفل فاشتعلت سجادتها العجمية المفضلة، وتصادم مارداً من دخان غطى الأبنية المواجهة، وسقطت شجرة كينا في وسط الطريق الذي غطته الحجارة وركام البناء المجاور. عبق الجو برائحة البارود والكبريت وانتشر الدخان الأسود فحجب الرؤية، فارتفعت أصوات أبواق السيارات التي أضاعت أنوارها في محاولة لتلمس طريقها، منطلقة يميناً ويساراً وبعكس اتجاه السير، حتى أن إحداها صعدت إلى الرصيف تجنباً للشارع المسدود، فانفرط عقد موكب الشهيد. كان العرق يتصبب على جبهة نبيل ووجهه وقد تشبث بالمقود بشدة بكلتا يديه، بينما كانت قدمه على دواصة الوقود ترقص رقصة أفريقية مجنونة صعوداً ونزولاً في حركة لاإرادية نتيجة الرعب الذي أصابه.

عندما رأى راشد قدم نبيل المرتجفة على دواصة الوقود، لمعت في ذاكرته فجأة صورة أمه التي كانت ترتجف بين يديه قبل ساعتين عندما فاجأها عاصفة أوراق صفراء أسقطتها الطائرات الحربية الإسرائيلية.

إلى السكان

إن جيش الدفاع الإسرائيلي يواصل حربه ضد المخربين، ولم يستعمل بعد كامل قوته إنما ليس هو معني بالمسن بالمواطنين الأبرياء وبمن لم يحارب ضده.

أنت الساكن في بيروت.

استغل وقف إطلاق النار وأخرج من بيروت وأنقذ حياتك

أمامك الإمكانيات التالية:

أ - عن طريق قوات جيش الدفاع الإسرائيلي شرقاً على محور بيروت - دمشق.

ب - شمالاً إلى اتجاه طرابلس.

أنقذ حياتك وحياة أعزائك.

وقد أعذر من أنذر.

قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي

حاول راشد أن يخفف من الرعب الذي أصاب أمه بأن ضمها إليه قائلًا بأن الإسرائيليين لن يجروا على ضرب بيروت الغربية بسبب الكثافة السكانية، ولعدم وجود مكاتب ومعامل للتنظيمات الفلسطينية فيها. ولكن جسمها واصل الاختلاج والاهتزاز، فدفعته فجأة بعيداً عنها وصرخت بوالده:

- أبو راشد فلنهرب الآن، الآن، الآن. وقد بان زبد أبيض على شفتيها: يا بنات، يا راشد، وضّبوا الحقائب، الأشياء المهمة فقط هيا.

- نظر "أبو راشد" إلى ابنه قائلًا: أمرنا الله، علينا أن نراعي أعصابها ووضعها الصحي، فلنذهب إلى منزلنا في الجبل عليها ترتاح هناك.

- حدّق راشد في عيني والده وقال: ولكنني لن أذهب معكم بسبب هذه الورقة السخيفة. ثم استدرك متذكراً نقطة الضعف لدى والده: على كل حال يجب أن يبقى أحدنا في البيت ليحميه من الاحتلال من قبل المهجرين، أو ليطفئه في حال وقوع حريق فيه.

- عندك حق، ولكننا سنبقى على اتصال يومي بالهاتف.

- بالتأكيد. أجب راشد.

بالتأكيد فكّر راشد، بينما كان نبيل ينحرف بالسيارة بعيداً عن منطقة التفجير، فلن يرهبه الطيران الإسرائيلي، فهذه مدينته ولن يتركها بسبب أي ضغط غريب، إسرائيلي كان أم من المريخ، ولكن ليت كان بين يديه صاروخ سام 7 المعدّل الذي يعمل عليه بروفسور شومان لكان قام بواجبه بالدفاع عن وطنه، أما إذا كان مكتوب على جبينه أن يموت هنا، فهذا قدره، وعزاؤه الوحيد أنه سيُدفن عندها في مقبرة العائلة في أرض مدينته، وليس في مكان غريب.

30

قام أحد حراس مركز غرفة عمليات قوات الـ 17 بتفتيش بروفيسور شومان، بعد أن أخبرهم أنه يريد مقابلة رفيق السلاح القديم أيام الأغوار، النقيب "أبو حسين"، مسؤول التسليح. رافقه أحد المقاتلين نزولاً عبر سلم يؤدّي إلى مستودع البناء. ولكن المستودع لم يكن يشبه أي مستودع سبق وشاهده. فقد تمّ تقسيمه إلى غرف وقاعات جيدة الإضاءة والتهوئة تُشعرك وكأنك في أحد الأدوار العليا في أي بناء.

- استقبله الأخ "أبو حسين" بالأحضان سائلاً عن حاله وعائلته، وبعد أن طلب له الشاي توجه إليه قائلاً: عفواً ولكن ماذا أتى بك في هذا الوقت العصيب يا أخ "أبو أرز"؟

- أنا أطلب مساعدتك في موضوع هام، أو ربما أنا أريد أن أساعدكم في موضوع هام؟

- هل هذا لغز من ألغازك يا "أبو أرز"؟

- لا، فالواقع وباختصار ووضوح لديّ طريقة علمية لتطوير صاروخ سام 7 المضاد للطائرات لجعله يتمكّن من تلافي البالونات الحرارية التي تطلقها الطائرات الإسرائيلية وبالتالي إصابة الطائرات الإسرائيلية.

- أنا أعرف أنك دكتور في الفيزياء وعالم، ولكني لا أستطيع التأكيد أن ما تتكلم عنه واقعي أم خيالي.

- وأنا كذلك، فأنا أكيد من الناحية النظرية، ولكن من الناحية العملية يجب أن أجرّب تطبيق نظريتي.

رنّ جرس الهاتف العسكري على طاولة النقيب "أبو حسين":

- الحمد لله على السلامة "أبو طارق" كيف المعنويات؟

- تمام، ولكن أرجوك أرسل لي ذخائر ذهبية اللون لمدافع 37 ملم، ذلك أن الذخائر السوداء غير فعالة، يظهر أنها أصبحت قديمة وبالية.

- حاضر، ستكون عندك بعد ساعتين إن شاء الله.
- مع السلامة.

- مع السلامة، الله يحميكم.

ما أن أغلق النقيب "أبو حسين" الجهاز حتى انتفض البروفسور قائلاً:

- اسمح لي أن أقول لك إنكم تكذبون على أنفسكم، أنت تعرف أن لا الذخائر السوداء ولا الذهبية ولا الحمراء قادرة على الوصول إلى الطائرات الإسرائيلية، ولا حتى مضادات 57 و85 ولا حتى الـ 100 ملم والشيلكا.

- نحن في القيادة نعرف أن أسلحتنا ليست قادرة على إصابة الطائرات المغيرة، ولكننا نعرف أنها قادرة على منع الطائرات من الإغارة على مستويات منخفضة لتحقيق إصابات دقيقة.

- حتى معلوماتكم هذه خاطئة بكل أسف. أجابه البروفسور: إن هذه الطائرات قادرة على إصابة رأس الدبوس وهي على ارتفاع آلاف الأقدام نظراً لتقنيات تحديد المواقع الجغرافية الحديثة التي تملكها.

- لقد سمعت عن هذا، ولقد أصبحنا الآن مكشوفين أكثر من الجو بعد تدمير بطاريات الصواريخ والطائرات السورية.

- لهذا السبب أتيت إليك اليوم، لأنني شعرت بالحاجة الوطنية والقومية لتقديم المساعدة.

- فإذا دعنا نذهب لمقابلة الرائد "أبو صلاح" ونشرح له الموضوع.

31

جلس راشد إلى إحدى الطاولات على رصيف البناء الذي يسكنه، بعد أن طلب صحناً من الفول المدمس من "أبو عفيف". لمح "رويتز" فأسرع وجلس إلى طاولته حاملاً راديو الترانزستور بيد وجريدة "السفير" باليد الأخرى.

- هل اطمأنتت على أهلك؟ توجه بالسؤال إلى راشد.

- نعم، لقد هانقتهم مساء أمس، تصور أنهم انتظروا على حاجز الحازمية أكثر من أربع ساعات، كانت هناك آلاف السيارات تحاول الهرب من بيروت.

- إنها حفلة جنون كبيرة، هل سمعت في تاريخ العالم الحديث عن دولة تهدد سكان عاصمة دولة مستقلة أخرى بإخلائها عبر المناشير التهديدية؟ إنه تهديد صريح، لو كانت هناك عدالة عالمية لحاكت دولة إسرائيل وأدانتها لهذا التصرف.

- لا شك بذلك، ولكن أين هي العدالة؟ إن قضية فلسطين نشأت أساساً بسبب الظلم والتسلط والانحياز الدولي للباطل. أجابه راشد.

- لقد أخبرتني جارتنا "أم ميشال" أمس أنها ستترك بيتها اليوم هي وزوجها أيضاً، بناءً على إلحاح ابنتها روز التي دعته إلى بيتها في ضاحية عين الرمانة.

- إذاً ستغادرنا كذلك تانت ماري وعمو فؤاد، أصبح علينا الانتباه الآن إلى الأدوار الخالية من السكان من احتلال المهجرين لها.

- صحيح، أعتقد أنه من الأفضل لو وضعت بعض الثياب على حبل الغسيل في شرفة منزلكم لتوهم من يبحث عن شقة هجرها أصحابها، بأن أصحاب هذه الشقة لا زالوا فيها، وسأطلب الشيء نفسه من آل بشارة قبل أن يغادروا.

- فكرة ممتازة. علق راشد.
- في جميع الأحوال، ليس هناك من خوف طالما أنا موجود هنا.
- أجابه "رويتز" بفخر.
- أتى "أبو عفيف" بصحن الفول وقد سبقته رائحته الزكية إلى
الجالسين: أحلى صحن فول، لأحلى راشد.
- شكراً يا عم "أبو عفيف"، تفضل وشاركني يا "رويتز".
- شكراً لقد أفطرت من قبل، ولكني سأشرب الشاي معك. أجابه
"رويتز".
- إنني أفكر بالذهاب لزيارة جمال في المستشفى، هل ترافقني؟
- بالتأكيد. ردّ "رويتز": ولكن ليس الآن، بعد الظهر، عند الرابعة
تقريباً، ما رأيك؟
- أنا موافق. هناك موضوع آخر لاحظته بالأمس ولمست أهميته.
- أعتقد أنه يجب بناء جدار من أكياس الرمل أمام مدخل البناء لمنع
الشظايا من إصابة البناء والتسبب بإيذاء أحد ما.
- فكرة ممتازة. علق "رويتز": أعتقد أنه يجب بناء جدار آخر أمام
الدكاكين أيضاً.
- لم لا، كلما احتطنا من القصف الغادر، تأكدنا أكثر أننا لن
نواجه مفاجآت غير سارة مثلما كاد يحصل معي أمس، ولكن من أين
سنأتي بأكياس الرمل؟ سأل راشد.
- سأهتم أنا بالموضوع، إنهم يوزعون أكياساً فارغة في مكتب
المرابطون في منطقة أبو شاعر ولديّ بعض الأصدقاء هناك.
- ممتاز، وسنجلب الرمال من ورشة البناء المتوقفة في آخر
الشارع، وسنستفر الشبان في الشارع لتعبئة الأكياس.

32

- كانت إصابة مباشرة من الآر بي جي أطلقها علينا أحد الصبية المجانين في منطقة خلدة، حيث برز أمامنا على بعد حوالي 5 أمتار. قال جندي الاحتياط في قوات غولاني الخاصة يغنال دروكمان الراقد في مستشفى رامبام بحيفا شارحاً لأمه طريقة إصابته.

- لقد قُتل سيمخا سائق الآلية فوراً وسقط مخرجاً بدمائه جراًء إصابته بشظية مباشرة اخترقت ظهره واستقرت في قلبه. قفز بقية الجنود بعيداً عن الناقل التي كان كل شيء فيها يشتعل، كل شيء يلتهب، المقاعد وحذاء سيمخا، حتى الغطاء الفوسفوري الذي يشير للطيران أننا من أفراد جيش الدفاع، كان كل شيء فيها ساخناً جداً، وكانت الحرارة تحرق أصابعي أينما وضعتها، ولكني استطعت وضع بندقيتي الغاليلي عبر فتحة الخروج، وتعلقت بها وتمكنت من وضع قدمي في أعلى مقعد السائق وقفزت إلى سطح ناقل الجنود، وما كدت أتأهب للقفز إلى الأرض حتى تلتقيت صلية من رشاش مزقت بطني وذراعي فسقطت متدحرجاً إلى الأرض، وكان آخر شيء سمعته هو صوت الطائرات الحربية.

- لعنة الله على الفلسطينيين. قالت أمه ريفكا بحدّة.

- إنني لا ألوم أتباع عرفات على هذا، أنا ألوم قيادتنا العسكرية، إنها حرب تدميرية للمدن والمخيمات على رؤوس سكانها الأبرياء العزل، لقد مررت بمدينة صور، وراقبت غارات طيراننا التي كان هدفها التدمير والهدم. لقد قتلوا مئات من المدنيين وهجروا عشرات الألوف ليتمكنوا من قتل 50 أو 100 مخرب. فماذا تريدنيهم أن يفعلوا؟ أن يستقبلونا بالورود؟

- إذن أشكر الله أنك لا تزال حياً. أجابته أمه.

- لقد توقعنا أن نصل إلى العاصمة بيروت في اليوم الثاني لدخولنا، وقد وعدنا الضابط المسؤول بأننا سنحتفل في الملعب الكبير هناك، ولكننا اكتشفنا أن كل كيلومتر نقطعه في لبنان ستكون كلفته عالية جداً. انظري حولك في المستشفى، هناك حالات خطيرة جداً، بعضها ميؤوس منه، والبعض أدى إلى شلل عام أو جزئي للمصابين، أما المحظوظون فقد بُترت إحدى أطرافهم. ما عليك إلا أن تنتظري في عيون الأمهات وأهالي الجرحى والقتلى. كان عليك أن تري عيني أرملة أحد الجنود القتلى التي لم ينقض شهر على زواجهما، والتي لم تكن على علم بأنه أرسل إلى لبنان، كانت تطلق الصيحات الهستيرية وترفض التصديق بأن زوجها هو ذلك الذي رأته في ثلاجة مشرحة المستشفى.

33

تركز القصف على منطقة خلدة من الدبابات والمدفعية الإسرائيلية الثقيلة وكذلك من البوارج القريبة من الشاطئ إضافة إلى الطيران. كان التصدي للهجمات المتكررة عملاً بطولياً، تكفلت به القوات المشتركة، ولكن الصمود بوجه القصف الكثيف والمستمر عن بعد ومن جميع الجهات كان يحتاج إلى معجزة. إزاء هذا الواقع قرّرت القيادة الفلسطينية التحضير لخط دفاع ثانٍ في حال سقوط محور مثلث خلدة، وكان من الطبيعي اختيار منطقة الأوزاعي لذلك.

دعا "أبو الطيب" المسؤول عن قاطع الأوزاعي جميع قوات الـ 17 إلى اجتماع طارئ، حيث تمّ تعيين الرائد "الشيخ زيد" قائداً للمحور، وتمّ توزيع الكتائب والسرايا والفصائل في أماكن استراتيجية محددة على الخرائط العسكرية، وذلك بناءً لتسليحها وعديدها وجغرافية التمركز من الناحيتين الاستراتيجية والطبيعية. كذلك تمّ اعتبار المنطقة

منطقة عسكرية لا يسمح بالدخول إليها إلا بتصريح رسمي مطبوع ومختوم وموقع، كما تمّ توحيد أجهزة الاتصال لتعمل جميع القوات على شبكة واحدة، وجرى توزيع التموين والذخائر على جميع المواقع.

34

أثناء صعود "رويتز" وراشد إلى الدور الثاني في مستشفى البربير، وبوصولهما إلى الدور الأول فاحت رائحة غريبة امتزجت فيها روائح الدماء والأدوية والمطهرات، فوضعا أيديهما على أنفيهما وأسرعوا الخطى صعوداً، استقبلتهما الضوضاء التي يثيرها أهل وزوار المرضى الذين ازدحموا في الممرات. سارا في الممر بحثاً عن الغرفة 203. قرع "رويتز" الباب المفتوح وأطلّ منه. هاله ما رأى، كائن، إنسان ما، غير معروف أكان ذكراً أم أنثى، يئنّ من الألم بكلمات متقطعة غير مفهومة، وقد غطّت الضمادات رأسه ووجهه ورقبته، أما باقي جسمه فكان تحت غطاء منصوب على أطراف السرير بشكل بعيد نسبياً عن جسمه، وقد جلست بقربه سيدة تحمل قطعة من الكرتون تستعملها تارة للتهوئة لتبريد جسم الجريح وطوراً لدفع الذباب بعيداً عنه.

في السرير المجاور استلقى طفل في حوالى التاسعة من عمره معصوب الرأس وقد احتشدت حوله الأجهزة الطبية وعبوات التغذية الوريدية.

توجّه "رويتز" إلى السيدة بالسؤال بصوت منخفض:

- إننا نبحث عن جمال؟

- لا إنها ابنتي حنان، إن جمال الفلسطيني في الغرفة التالية.

- أتمنى لها الشفاء. قال "رويتز" بألم وخرج.

قرع راشد باب الغرفة الثانية وفتح الباب.

- أهلاً وسهلاً. بادرت "أم جمال" عندما رأت راشد و"رويتز".
- الحمد لله على السلامة. عقب راشد.
- أرجو أن تكوني قد اطمأنتت إلى وضع جمال الصحي. سأل "رويتز".
- أنا تمام. تدخل جمال: ولكن الوالدة تحمل السلم بالعرض، هناك كسر بسيط في ذراعي وبعض الرضوض في كتفي وسأخرج من هنا صباح الغد إن شاء الله.
- بعد أن يكشف عليك الطبيب ويسمح لك بذلك. اعترضت "أم جمال".
- نعم، نعم، بعد أن يراني الطبيب. أكد جمال مستسلماً لتعليمات أمه.
- الحمد لله على السلامة. قال راشد.
- كل هذا بسيط أمام ما تعرّضنا له في المواجهات مع الإسرائيليين.
- أين كانت مواقعكم؟ سأله "رويتز".
- لقد تنقلنا من خلدة إلى الدوحة ثم الناعمة مروراً بالدامور فالسعديات والجبية ثم الرميّة، حيث اشتبكنا مع الإسرائيليين عدة مرات، ثم اضطررنا للانسحاب إلى برجا بعد أن كشفنا الطيران الإسرائيلي، فانهمر القصف علينا جواً وبراً وبحراً. وبسبب وجود جرحى في مجموعتنا، اضطررنا للتراجع سيراً على الأقدام إلى الجبال عبر ظهور عين الحور ثم إلى قرى الجاهلية فجسر القاضي فقبرشمون ومنها إلى بيروت، واستغرقتنا رحلة التراجع هذه يومين ونصف.
- هل ستعود للقتال في الجبهة؟ سأله "رويتز".
- لن يعود سوى إلى البيت. تبرّعت "أم جمال" بالإجابة عنه.
- ستكون ذراعي في الجبس لمدة سيحددها الطبيب غداً، ولكني متأكد من استطاعتي مساعدة المقاومة بعدة طرق أخرى غير القتال في الوقت الحاضر.

- يمكنك البدء بمساعدتنا مثلاً تدخل راشد: سنقوم قريباً بتعبئة أكياس رمل لنرفعها كدفاعات للحماية ضد القذائف والشظايا الإسرائيلية.
- أخشى أننا سنحتاجها، فلا شك أن بيروت هي هدف الإسرائيليين، فهم يريدون اقتحام العاصمة، ولكن بيروت ستكون ستالينغراد الثانية، فيما النصر أو الفناء. علق جمال.

35

بينما كانت صواريخ البوارج الحربية الإسرائيلية تعاقب بيروت الغربية لصمودها ودفاعها عن كرامتها: عبر قصف محيط منطقة الحمراء وقريطم والروشة، وبينما كان القتلى والجرحى يسقطون قرابين فداء عن عاصمتهم، كان دماغ الآلة العسكرية الإسرائيلية الشرير يحاول إقناع بشير الجميل بأخذ زمام المبادرة ومهاجمة بيروت الصامدة، عبر زيارة قام بها مناحيم نافوت (مندي) وأفنير آزولاي (فيليب) إليه في مقرّ القوات اللبنانية في الكرنتينا.
- عليكم أن تتحركوا وتأخذوا دوركم في العمليات المستمرة حالياً. اقترح مندي.

- ولكنكم اتفقتم مع الفلسطينيين والسوريين على هدنة لوقف إطلاق النار.

- إن هذه الهدنة لا تعني سوى جماعة عرفات والسوريين، أما نحن فعملياتنا العسكرية مستمرة. أجاب فيليب.
- ما المطلوب إذاً؟

- أحمل لك رسالة من هيئة الأركان. أجابه مندي: يطلبون منك أخذ زمام المبادرة بالتحرك واحتلال المطار للإتصال بقواتنا الزاحفة من الجنوب.

- ولكن الموضوع بحاجة إلى استطلاع وتخطيط وتجهيز لضمان نجاح الهجوم. أجابته بشير بقلق.

- عليكم أن تستغلوا الفرصة الآن، فأنتم أصحاب الأرض، وإذا هاجمتم جماعة عرفات والسوريين فلن يتمكّنوا من الردّ عليكم لاضطرارهم لاحترام الهدنة التي تمت برعاية الأميركيين.

- هل أنت واثق من أن الأميركيين لن يعترضوا على عملية كهذه؟
- إن اتفاق الهدنة واضح، وهو لا يلزمكم بشيء، فهذا بلدكم وجماعة عرفات والسوريين غرباء عنه، وأنتم تحاولون بكل بساطة تحرير وطنكم من الغرباء. أكد له فيليب.

ولكن أفكار بشير لم تكن على نفس موجة تطلعات الإسرائيليين، فعين بشير كانت على كرسي رئاسة الجمهورية، لذلك كان بحاجة إلى رضا ومباركة جميع الأفرقاء اللبنانيين بما فيهم المسلمون، مما جعله يماطل في المشاركة في الأعمال العسكرية متكللاً على الإسرائيليين للقيام بالأعمال القذرة. في حين كان الإسرائيليون يحاولون من جهتهم توريث الكتاب في حربهم لتحطيم جميع الجسور وتكريس القطيعة بين الأفرقاء الذين يكوّنون العائلة اللبنانية.

- أنا على استعداد للقيام بهكذا عملية. بادر بشير: ولكن عليّ أن أجمع مع غرفة عمليات قطاع مطار بيروت، للتأكد من أن جميع الأهداف التي سنتعامل معها هناك غير لبنانية.

- سأتولى التنسيق لهذه المهمة بأسرع وقت. أجاب مندي.

- والآن دعنا نذهب للقاء الوزير ورفول.

انتقل الجميع إلى فيلا الموساد في منطقة طبرجا، حيث كان شارون ورفائيل إيتان يتفحصان الخرائط العسكرية المطروحة على طاولة كبيرة. وبالتنسيق مع بشير ومساعديه توصلوا إلى أن قرية بسابا المشرفة على مطار بيروت هي أفضل وأنسب نقطة لالتقاء القوات الإسرائيلية الزاحفة

من الجنوب مع القوات اللبنانية المتقدمة من الشمال. وَقَعَ أرينيل شارون على خطّ التحركات الذي تمّ تحديده على الخارطة، وأخذ إيلي الزايك نسخة عنها، حيث نقلته مروحية خاصة إلى يورام بيئر، قائد قوة المظليين المتقدمة، والتي كانت ستلتقي بالقوات اللبنانية في قرية بسابا.

36

- رنّ جرس الهاتف في منزل راشد. وضع صحيفة "السفير" جانباً وتناول السماعة معتقداً أن أمه تطلبه كالعادة في هذا الوقت من الصباح.
- أهذا أنت يا راشد؟ سأله بروفيسور شومان.
 - نعم، كيفك بروفيسور؟
 - الحمد لله، أين أنت هذه الأيام يا راشد؟
 - كنت مشغولاً، لقد ذهب أهلي إلى الجبل وكان لديّ بعض الواجبات أقوم بها.
 - لقد حاولت الاتصال بك عدة مرات خلال نهار أمس وقبله، ولكن لم يجب أحد على اتصالي.
 - إجمالاً لا أتواجد في المنزل سوى صباحاً ومساءً حين يتّصل أهلي بي عادة.
 - ما رأيك أن تشاركنا الغداء اليوم عندي في البيت؟
 - لا أريد أن أتعبكم!
 - لا، لا، ليس هناك من تعب، لن نحضّر شيئاً خاصاً لك، سنتناول معنا طعام الغداء وكأنك فرد من العائلة.
 - شكراً دكتور، سأتي ظهراً.
 - لا تتأخر، فهناك أشياء هامة جداً سنتحدّث فيها ولا تنسَ دفتر ملاحظاتي.

37

يعجّ الشارع الرئيسي في مخيم برج البراجنة بالحركة باكراً، وقد نشر باعة الخضار والفاكهة بضائعهم القليلة على رصيفيه، بينما يجلس بعض الرجال المتقدّمين في السن على ناصية المقهى الصغير يشربون الشاي ويدخنون النرجيل، ويبحثون الأوضاع السياسية والعسكرية المستجدة. وإذا كنت غريباً عن المنطقة وتزورها للمرة الأولى، فلن يدور في خلدك أن أزقة المخيم وشوارعه الضيقة قد تعرضت في الليلتين الماضيتين إلى قصف وحشي لم يسلم منه أي بناء فيها تقريباً. وإذا دلفت في أزقة المخيم الضيقة فسترى وتلمس آثار القصف المرعب في جدران المنازل المتواضعة المزروعة بالشظايا هنا، والمهدّمة هناك، والمحروقة هنالك، حتى المسجد الصغير لم يسلم رغم تمرّد اسم الجلالة الذي بقي منتصباً فوقه، بينما انتشرت الشعارات المكتوبة على الجدران تدعو إلى الصمود والمواجهة وإلى دحر إسرائيل.

يسير جمال بسرعة في أحد الأزقة متجنباً الردم والحجارة والرمال وبقايا الزجاج التي ملأت الطريق، ومبتعداً عن الحفر التي أحدثتها القذائف والتي امتلأت بمياه المجاريير الأسنة. يتوقف فجأة أمام أحد البيوت الصغيرة الذي تبدو نافذاته المتضررتان كعينين بشريتين اعورت إحداهما بفعل القصف، في حين اتخذ الباب المخّلع شكل فم مفتوح من الدهشة.

ينادي جمال على أهل الدار عدة مرات: خليل، يا خليل.
ولكن أحداً لا يجيب. يستدير حاملاً كيسه الورقي وقد يئس من وجود أي شخص، ويتّجه إلى الدكان الصغير المجاور المفتوح.
- كيف حالك يا حاج شاهين؟ توجّه راشد إلى الرجل الكهل

- الذي يعتمر كوفية فلسطينية ويتحرك بثقل واضح.
- السلام عليكم يا ابني، أنت ابن مَنْ؟
- أنا ابن أخ جارك الشهيد "أبو هاني".
- أهلاً وسهلاً يا ابني، دار عمك رحلوا من هنا، زوجة عمك أخذت العيال من ثلاث أيام وهربوا من هنا، سلامتك، هل أصابتك شظية؟
- لا إنها رصاصة مرتدة، هل تعرف إلى أين ذهبوا؟ سأل جمال.
- قالوا إنهم ذاهبون إلى حديقة الصنائع.
- شكراً، شكراً، ولكن لماذا بقيت أنت هنا يا حاج؟
- كل العائلات رحلت، لم يبقَ سواي والمقاتلين. أنا مقطوع من شجرة، أولادي في السويد والدانمارك وروسيا، وليس لي هنا سوى هذا الدكان الذي أنام وأكل وأعمل فيه.
- ولكن ألسنت خائفاً من القصف؟
- الحمد لله على نعمة الطرش، فأنا لا أسمع معظم أصوات القصف وخاصة عندما أغلق باب الدكان وأخذ للنوم.
- ولكن عليك بالحدز، فالإسرائيليون يقتربون من المخيمات، ويقال إن لديهم نية في دخول المخيمات وجرف البيوت، لأن بشير الجميل يريد تحويلها إلى حدائق.
- خستوا، فلن نسمح لهم بالاقتراب من هنا أو الدخول إلينا، وأنا متابع للمعارك يوماً بيوم عبر الإذاعة وعبر الشبان الذين يأتون إليّ دائماً لشراء السجائر.
- الله يحميك. أجاهبه جمال عائداً أدراجه من حيث أتى.
- من بعيد صرخ الحاج شاهين: لا تخف، عندي كلاشينكوف أخصص جاهز لقتالهم.

38

- جئت لأودّعكم قبل الذهاب إلى شرق بيروت. توجّهت "أم ميشال" بالتحية إلى عائلة الزين ضمن جولتها الوداعية على جيرانها.
- لقد قررتما الرحيل إذن؟ قال "أبو عبد الله".
- إن ابنتي في عين الرمانة تتصل بنا يومياً راحيةً أن نذهب لعندها، كما أنك تعرف وضع "أبو ميشال" الصحي، لذلك قرّرنا أن نرتاح عندها لبعض الوقت.
- سنفتقدكما. قالت "أم عبد الله" بنبرة حزينة: لا تتأخرا بالعودة إلينا.
- من المؤكد أنني لن أتأخر في عودتي، فأنا لا أطيق البعد عن بيتي ومنطقتي التي وُلدت فيها.
- الله معكم. قال لها "أبو عبد الله" وقد وقفت زوجته وبناته إلى جانبه.
- وأنا أودّعكم كذلك بالنيابة عن "أبو ميشال"، فهو غير قادر على صعود السلم. واستدارت نحو "أم عبد الله" قائلة: قبلي ابنك الياس عني.
- منذ نعومة أظفاره كان لقب عباس الزين "أبو عبد الله"، كونه أكبر أولاد الحاج عبد الله "أبو عباس"، على أمل أن يكون باكورة أولاده صبيّاً يطلق عليه اسم عبد الله تيمناً باسم جده. ولكن إرادة الله كانت أن تكون الباكورة أنثى أسمياها ملاك، ثم جاءت زهراء، وتبعتها أميرة، فكثُر الكلام وأصبحت "أم عباس" تطلق على كتنها لقب "أم البنات".
- وعندما عرفت "أم ميشال" بأن "أم عبد الله" حامل، للمرة الرابعة، اقترحت عليها أن تسير من بيتها إلى كنيسة مار الياس حافية القدمين وتضيء شمعة لمار الياس وتدعو الله أن يرزقها صبيّاً على أن تسميه على اسم القديس الياس. وهكذا فعلت "أم عبد الله". وكان أن رزقها الله

صبياً. وكان عرس حقيقي في البيت، إلى أن عرف حميها بأنها تنوي تسمية الصبي الياس، فانقلب العرس إلى شبه مأتم.

وحدث منذ حوالي الثلاثة أشهر أن كان "أبو ميشال" وزوجته في زيارة لآل الزين لتهنئتهم بمولودهم الجديد وقد أحضروا معهم هدية جميلة تعبيراً عن سرورهم بهذه المناسبة. ولكن تحفظ والديّ "أبو عبد الله" عند استقبالهما ومحادثتهما، أثار حفيظة "أبو ميشال" الذي انبرى قائلاً: مبروك المولود الجديد، إن شاء الله يعيش باسمه.

- عندها كثر الحاج عبد الله الزين عن أنيابه قائلاً: أعتقد أنه سيعيش بلا اسمه والفضل يعود لزوجتك المصونة.

- وما هي الجريمة التي اقترفتها زوجتي يا حاج عبد الله؟
- نهض الحاج عبد الله حانقاً وقال: الجريمة أنها غيرت اسم مولودنا الجديد من عبد الله إلى الياس.

- وقف "أبو ميشال" مواجهاً الحاج عبد الله: وما الخطأ في اسم الياس، أنا أستاذ لغة عربية وقد درست القرآن الكريم في الجامعة، ألم تقرأ في سورة الأنعام قول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وفي سورة الصافات ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. أتبحث عن اسم مبارك أكثر من هذا الاسم؟ ثم إن "أم عبد الله" استجارت بالله بكل إيمان ونية صافية ونذرت هذا الاسم، فاستجاب الله لها لأنها سيدة سالحة، فما الخطأ في ذلك.

- وقف "أبو عبد الله" محاولاً ترطيب الأجواء: إن لقبى سيبقى "أبو عبد الله" إلى الأبد، جلّ ما في الأمر أن اسم المولود على الهوية سيكون الياس عباس عبد الله الزين، تقديراً وشكراً لله الذي أنعم علينا بهذا الصبي.

- ونعم بالله يا ابني. علق الحاج عبد الله مصطنعاً ابتساماً انتصار: كل ما في الموضوع إنني أردت أن يبقى لقبك "أبو عبد الله".

- ابتسم "أبو ميشال" وقال: الحمد لله، فإذاً يا دار ما دخلك شر.
- استقبلت مدام ناديا شهاب جارتها "أم ميشال" بالأحضان قائلة "ستغادرنا البركة معكما يا "أم ميشال".
- ابتسمت "أم ميشال" قائلة: البركة فيكم، كوني على ثقة أنني لن أتأخر في زيارتي لابنتي.
- ردت مدام ناديا وقد انفرجت أساريرها: واضح أنك ستعودين بسرعة لأنك قلت أنها مجرد زيارة.
- تعرفين أنني لا أطيق العيش بعيداً عن بيتي، ولكنني سأهادن ابنتي روز كي لا تزعل.
- المهم أن تهدأ الأمور ويتوقف هذا الاجتياح المشؤوم ونرتاح من قصفه الوحشي. علقت مدام ناديا متنهدة.
- إن شاء الله. ردت "أم ميشال" بقلق: على كل كيف الأحوال معك؟
- وضعت مدام ناديا يدها على خدها الأيمن وقالت: هل تعلمين أن ضرس العقل لا زال يؤلمني منذ أكثر من أسبوع، ولكنني لا زلت أؤجل الذهاب إلى طبيب الأسنان خوفاً من تجدد القصف أثناء معالجته لي.
- الواقع لديك حق في ذلك، لو كنت مكانك لتصرقت مثلك.
- إنني أشغل نفسي بالرسم والتلوين لأنسى وجع الأسنان وهموم القصف وألم غربة أولادي.
- ولكن لماذا لا تذهبين لعند أختك في الجبل حيث الوضع أكثر أماناً؟
- وكيف أترك بيت المرحوم زوجي الذي عشنا فيه ثلاثين عاماً وربينا أولادنا فيه، لا، لا أستطيع ترك ذكرياتي كلها والعيش بعيداً عنها، أنت تعرفين كم حاول أولادي حملي على السفر إلى أميركا، ولكنني لا أستطيع، رغم اشتياقي لهم ولأولادهم.

- مدام ناديا، أريد أن أطلب منك معروفًا، وهو أن تروي حوض الزهور في منزلي أثناء غيابي.
- بالتأكيد، وهل تسمحين لي برسمها؟ سألت مبتسمةً.
- بالتأكيد، وشكرًا لك.
- نظرت "أم ميشال" في ساعتها وهزّت رأسها موافقة وهي تنهض: هذا هو مفتاح المنزل، والآن عليّ أن أذهب، فقد حان موعد وصول سيارة التاكسي، إلى اللقاء.

39

- وقف راشد إلى جانب بروفيسور شومان على شرفة منزله في منطقة الروشة يراقبان القصف الإسرائيلي على منطقة خلدة. كانت نيران الانفجارات بفعل قصف الدبابات والبوارج البحرية واضحة في عزّ النهار، بينما كانت الطائرات الحربية تطلق صواريخها أثناء انقضاضها لترتفع مع توهج أهدافها بالنيران وارتفاع أعمدة الدخان منها محددة أماكن الإصابات، ليصل رجعّ أصوات انفجارها متأخرًا إليهما.
- في هذه الأثناء خرجت السيدة شومان إلى الشرفة، وعندما رأت هذا المنظر وضعت يديها على أذنيها وقالت: يا لطيف، يا حرام.
- بالفعل، إنها جريمة في وضح النهار أمام أنظار العالم كله، ولكن الرأي العام العالمي المتحضر لا يريد أن يرى أو يسمع. قال بروفيسور شومان بانفعال.
- نظرت إليه زوجته وقالت: لقد طلبت منك أن تغادر إلى أميركا لأجنيبك هذه التجربة الصعبة ولكنك رفضت.
- وما زلت أرفض، فليصيني ما يصيب أبناء وطني، أما أنتِ فإذا أردت المغادرة مع البنات فسأندبر الأمر صباح الغد.

وضعت جولي شومان يدها على كتفه قائلة: لن نغادر إلا عندما تقرر المغادرة معنا، على كل حال أنا جنّت إليكما هنا لأخبركما أن طعام الغداء جاهز والبنات بالانتظار.

رغم قضاء البروفسور مدة عامين ونصف في أغوار الأردن، فإنه ما انقطع عن إرسال الرسائل إلى زوجته التي تقبّلت هذا الواقع رغم الغصّة التي لازمت حلقها منذ ذلك اليوم المشؤوم كما تقول، حتى كان أحد الأيام عندما جاء إلى بيروت في إحدى إجازاته، حين عبّرت له عما يجيش في خاطرها:

- أنت شخص أناني، لا تفكّر إلا بنفسك محاولاً حلّ عقدك الشخصية متناسياً واجباتك العائلية. فكيف تفضّل تضحية نفسك لقضية تؤمن بها متجاهلاً عقدك الروحي والأدبي مع زوجتك وعائلتك. ألسنت أنت من تواظب على القول أن على المرء أن يبدأ بنفسه. نعم لقد بدأت بنفسك ولكنك تصرّفت بطريقة خاطئة. ألسنت من علّمني المثل الصيني الفائل: "إن الانتصار على النفس هو أهم وأصعب من الانتصار على العدو، لذلك يجب على الإنسان أن يعيد ترتيب أولوياته لتتماشى مع الواقع على الأرض".

بعد هذه المحاضرة بشهرين، انسحب البروفسور من حركة "فتح" وعاد إلى لبنان.

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء، انتقل البروفسور وراشد إلى غرفة الاستقبال للحصول على بعض الخصوصية.

- بادر بروفسور شومان بالحديث: لقد اجتمعت مع مسؤولين في المقاومة عبر أحد الأصدقاء القدامى وعرضت عليهم فكرة تطوير صارخ سام 7 وأخبروني أنه سيتمّ عرض الموضوع على المراجع العليا لاتخاذ القرار، وأنهم سيتصلون بي عند الوصول إلى قرار.

- الحقيقة بعد قراءة الأفكار المذكورة في دفتر ملاحظاتك وجدت أن فكرتك عبقرية ولكن لا زال ينقصها العامل الأساسي، وهو جهاز

PMT لتحسس الأشعة فوق بنفسجية بمعزل عن الأشعة تحت حمراء.
علق راشد.

- حاك البروفسور رأسه قائلاً: هذا هو بالتحديد أكثر شيء يشغل بالي، وما زلت أعمل عليه، أنا أعرف المكونات المطلوبة للتنفيذ، ولكني لا أستطيع الحصول عليها، كما أنني لا أملك المعدات اللازمة لتجميعها وتصنيعها بشكلها النهائي.

هنا تدخل راشد سائلاً: ولكن أليس بالإمكان الحصول على هذا المتحسس جاهزاً؟

- هذا هو بالفعل ما أعمل عليه الآن. غمزه البروفسور: إنني أبحث عن أجهزة أو أنظمة موجودة في المؤسسات الصناعية تستخدم هذه التقنية بشكل مختلف، وذلك لفك متحسس أشعة UV عنها ووضعها على الصاروخ.

هزّ راشد رأسه باستغراب: بروفسور شومان، إنك تدهشني. لماذا هذا التعب كله، ألم يكن أسهل عليك لو استجبت لدعوة السفارة الأميركية لك ولعائلتك للالتحاق بهم في جونه لترحيلكم خارج لبنان؟

- نظر إليه البروفسور بتأثر وقال: إنك لا تفهم طبيعة الولاء الإنساني للوطن والشعب، إن إسرائيل تبحث عن طرق لضمان استمراريتها في المنطقة، عبر نزع الفكرة الوطنية والقومية من رؤوس العرب والتي تقول إن فلسطين عربية، ويتم ذلك إما سلمياً عن طريق زرع فكرة الصلح معها أو مخابراتياً عبر ضرب الطوائف والمذاهب والأعراق والمناطق بعضها ببعض، أو عسكرياً عبر كبح كل نشاط قد يؤدي إلى تغيير الأوضاع الراهنة.

- ولا شك أن حضرتك ما زلت تمارس قاعدتك الذهبية القديمة التي طبقتها على السجائر الأميركية، بأن على كل شخص أن يبدأ بنفسه، ولذلك فأنت مصرّ على الصمود هنا، لا بل مقاومة إسرائيل عبر تطوير الصاروخ.

ضحك البروفسور وقال: بالضبط، علينا أن نبدأ بأنفسنا، هل تعلم أنني عندما تركت حركة فتح في العام 1970 كنت أمارس نفس القاعدة التي ذكرتها، ذلك أنني كنت ضد فكرة التمرکز في المدن والقرى الأردنية البعيدة عن الأغوار، وضد التدخل في شؤون الناس والسلطة، حتى أنني كنت مع انتقال المقاتلين إلى الداخل الفلسطيني للاندماج مع الشعب الفلسطيني في الداخل والتفاعل معه ونسج مقاومة شعبية حقيقية، ولكن مبدأ اضرب واهرب والحرب بالشعارات انتصر، فبدأتُ بنفسِي وانسحبت.

- ألم يحاولوا الضغط عليك للبقاء معهم.

نظر البروفسور بعيداً: لقد حاول البعض، ولكن الأغلبية كانوا مسرورين بمغادرتي، وبمغادرة الكثير من المثقفين، كان بيننا أطباء ومهندسون ومحامون أغنياء وفقراء من مختلف الدول العربية، حتى أنه كان بيننا أمراء سعوديون وكويتيون. ولكننا جميعاً سئمنا سير المقاومة على وقع سياسة الأنظمة العربية التي أسهمت في تشتيت الجهد المقاوم إلى عدة تنظيمات وجبهات وحركات لتتمكّن من السيطرة عليها.

أتجّه بروفسور شومان نحو النافذة قائلاً: أنظر، لا زال القصف على منطقة خلدة مستمراً، إن المقاومة لم تتعلم من أخطائها في الأردن، فعندما جاءوا إلى لبنان احتموا بالمدنيين بدل أن يبقوا ويقاوموا في "فتح لاند"، فتدخلوا بالسياسة اللبنانية وساندوا أحزاباً ومنظمات لبنانية ضد أخرى، ووصلت بهم الأمور إلى العمل كمخافز محلية وشيوخ صلح لحل المشاكل الاجتماعية بين أفراد الشعب اللبناني وغالباً لصالح مناصريهم وليس لصالح الحق.

وقف راشد وتوجّه إلى البروفسور قائلاً: فإذا أنت تعتقد أن هذا هو السبب الذي أوصل إسرائيل إلى مشارف بيروت.

- لا شك أنه أحد الأسباب، ولكن هناك أسباب عديدة أخرى في التركيبية اللبنانية ساعدت على هذا، منها إقحام السياسيين اللبنانيين للطائفية والمذهبية في السياسة للحصول على مكاسب شخصية، متجاوزين فيها

المصلحة الوطنية العامة، مما خلق أجواء تعصب طائفي ومذهبي ومناطقية بين شرائح المجتمع اللبناني، جعلها تتخذ مواقف انفعالية أدت بها إلى الولاء للطائفة والمذهب وليس للوطن والشعب والأرض. كذلك فقد ساهم في ذلك لجوء السياسيين إلى طلب نصرته القوي الخارجية بدل مصارحة ومواجهة شركائهم في الوطن عبر الحوار، وذلك سعياً ومحافظة على مصالح شخصية ومناصب سياسية، مما جعل الوحدة الوطنية اللبنانية هشّة وقابلة للانهار تحت أي ضغط داخلي أو خارجي.

- إذاً فحضرتك تعتقد أن الإسرائيليين أقوى منا لإجادتهم اللعبة السياسية!

- لا شك بذلك، فهم يمرّرون مصالحهم ويطبّقونها عبر استغلالهم ل نقاط الضعف في النسيج الاجتماعي والسياسي في لبنان وجميع الدول العربية، ولن ننتصر عليهم سوى عندما نشبك أيدينا بأيدي بعض، ونعمل لمصلحة أوطاننا وشعبونا بدل العمل لمصالحنا الشخصية.

- وهكذا نعود إلى قاعدتك الأساسية وهي أن على الإنسان أن يبدأ بنفسه.

- نعم لا شك بذلك، وعلى كل لبناني وعربي أن يبدأ بنفسه ويصلحها فيصبح مواطناً صالحاً فتصالح جميع الأمور حوله.

40

بعد سقوط الدامور بفعل التدمير الكبير نتيجة القصف الجوي المركّز عليها، تقدّمت سرية مظليين إسرائيليين عبر المنطقة الجبلية باتجاه قرية كفرمتى، حيث فاجأت كتيبة بدر وأوقعت فيها أكثر من 50 شهيداً، ثم تابعت باتجاه قرية قبرشمون الاستراتيجية لوقوعها على تقاطع أربع طرق أساسية في الجبل.

ففي هذه الأثناء كانت المدرعات الإسرائيلية تشتبك مع اللواء 85 من القوات العربية السورية الذي وقع بين ناري المدرعات على الطريق الساحلي وقوات المظليين التي استطاعت السيطرة على محور قبرشمون، في حين تراجع رتل المدرعات الإسرائيلي أمام وطأة القوات المدافعة. عند ذلك دفعت القيادة الإسرائيلية بسرية من قوات غولاني لمساندة كتيبة المدرعات، حيث دارت معارك حياة أو موت مع القوات المدافعة، التي كانت تعرف أنه إذا سقطت مواقعها في تلال عرمون فستصبح الطريق مفتوحة إلى مطار بيروت، وبالتالي إلى العاصمة نفسها. واستمرت هذه المعركة العنيفة لأكثر من 20 ساعة للسيطرة على شارعين لا يتجاوز طولهما الكيلومتر الواحد، وانتهت بسقوط بلدة عرمون بيد الإسرائيليين. عندها صدرت الأوامر لقوات المظليين بالتقدم نحو بلدة شمالان التي احتلتها بسهولة وتقدّمت نحو بلدة عين عنوب حيث تفاجأت القوات السورية المتمركزة فيها بالإسرائيليين الذين كانت تتوقعهم أن يتجهوا نحو مدينة عاليه، فما كان منها إلا أن انسحبت بدون أي قتال.

عند الرابعة من فجر يوم الأحد اتصل يا حير يورام قائد القوة الإسرائيلية بطليعة القوات اللبنانية المولجة استقبلهم في قرية بسابا طالباً منها تحديد مواقعها، فأمر فادي أفرام بإرسال إشارة، عندها نزع مسعود الأشقر الصمام عن قنبلة دخانية ليخرج منها دخان أخضر. خلال دقائق ظهر صف طويل من الإسرائيليين يتقدمون نحوهم، ليتحقق أول لقاء علني بين مقاتلي القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي.

41

بعد انتهاء قداس يوم الأحد، هبط "أبو ميشال" و"أم ميشال" سلم الكنيسة الحجري وقد أحاط بهما ابنتهما روز وزوجها أنيس حداد وابنتهما داني مرتدياً زي القوات اللبنانية متوجهين نحو سيارة "أبو داني". ولكن

بدل العودة بهم إلى البيت، أقنعهم داني بالذهاب معه لرؤية القوات الإسرائيلية التي التفتت إلى بلدة بعبداء من الجنوب عبر منطقة الدوحة وصولاً إلى قرية بسابا.

كان جداه معارضين وحاولا ثنيه، ولكن ابنتهما روز أقنعتهما أنهما سيشهدان شيئاً جديداً وفريداً، خاصة وأن هذه المنطقة هي نقطة حراسة ابنها داني، فرضاخا تحت إلحاحها.

كانت جموع المواطنين تملأ ساحة بلدة بعبداء، وقد احتشدوا على الأرصفة، وفي مداخل الأبنية وعلى شرفاتها وأسطحها. نظرت أم ميشال "مينياً ويساراً مرة ومرتين مستغربة وجود هذه الحشود. دارت في ذهنها تساؤلات عدة، هل هؤلاء لبنانيون؟ هل أتوا لاستقبال الإسرائيليين وتحيتهم، أم أنهم جاءوا بدافع الحشوية فقط؟ أسئلة عديدة جالت في خاطرها لم تجد لها إجابة، إلى أن توقفت السيارة إلى جانب الطريق ونزلوا منها، ليرشدهم داني للوقوف إلى جانب سيارة جيب عسكرية تابعة للقوات اللبنانية، بعد أن حيا المقاتلين الجالسين فيها.

تناهى إلى سمع الحشد صرير جنازير دبابات آت من نهاية الشارع، فاشربأت الأعناق وتسمرت العيون نحو مصدر الصوت. تفحصت أم ميشال" الوجوه حولها، كانت العيون مترقبة والشفاه تستعد للابتسام، بينما كان المزيد من الجماعات تتقاطر وتتدافع لمشاهدة عرض الذل القادم. فجأة برزت فوهة مدفع دبابة تتقدم ببطء، كم طويلة هي سبطانة مدفع الدبابة، ثم ظهر برجها إلى أن اكتملت كلها. بلعت أم ميشال" ريقها، بينما ظهرت الدبابة الثانية، وقد جلس على برجها ثلاثة جنود إسرائيليين، ارتفعت أصوات صرير الجنازير بينما كان الإسفلت يتآكل تحت وطأتها، في حين برز المزيد من الدبابات وحاملات الجنود والشاحنات. ومع اقتراب الرتل من الحشد المنتظر علا التصفيق والهتاف "الله، لبنان، بشير وبس". نظر أحد الجنود الإسرائيليين إلى

الجموع المهلّلة واستدار إلى زميله محرّكاً يديه باستغراب وعلى وجهه علامات الدهشة. لمحت "أم ميشال" هذا الموقف فعلقت قائلة: إنهم لا يصدّقون عيونهم، كيف يستقبل شعب مهزوم محتليّه بالتصفيق والترحاب.

كان الجنود الإسرائيليون تعبّين ومرهقين وكأنهم لم يذوقوا طعم النوم منذ عدة ليال. وقد أرسلوا شعر ذقونهم والعرق يتصبّب على ثيابهم الرثة والوسخة من جباههم ووجوههم المطلية بألوان داكنة، أما آلياتهم فكانت تعلوها الأوساخ والرمال والوحول.

رغم ارتفاع وتيرة الترحيب بهم "الله، لبنان، بشير وبس، شالوم، شالوم" وانهمار أرزّ الترحيب عليهم، فإنّ تعابير وجوههم بقيت صارمة ولربما شابها بعض التهكم أو الاحتقار أو حتى الإشمئزاز.

وضعت "أم ميشال" منديلها على أنفها اتقاءً من الدخان الكثيف المتصاعد من عوادم الآليات واستدارت إلى ابنتها روز وقالت بنهمك:

- هل أنتم مسرورون لأنهم يحتلون البلد؟ هل أنتم مسرورون بالقتلى والجرحى من أبناء وطنكم في الجهة الأخرى؟
- أرجوك يا أمي، لا ترفعي صوتك، ستنتسبين لنا بمشاكل مع الأمن المنتشر هنا.

- أنا لا يهمني لا الأمن ولا الجيش الإسرائيلي كله. واستدارت موجّهة كلامها إلى الجموع حولها: هل تعتقدون أنهم يقدمون هذه الخدمة لكم مجاناً ولوجه الله؟ هل نسيتم عندما استقبلتم السوريين بالأرز والتهليل؟

وضعت روز ذراعها حول عنق أمها بخوف: أرجوك يا أمي إن كلامك يضعنا في دائرة الخطر.

- أريد أن أعود إلى بيتي في المصيطبة الآن، إنني لا أطيق البقاء هنا. صرخت "أم ميشال".

- أرجوك يا أمي لقد ابتدأ الحصار الآن، لقد ابتدأت الحرب الآن،
 إن الخطر عليك في غرب بيروت قد ابتدأ الآن.
 - لعنكم الله ولعن الإسرائيليين، سيجعلونكم تدفعون ثمناً غالياً لقاء
 خدماتهم الإنسانية هذه، سأذكرك بهذا في يوم من الأيام، ستدفعون الثمن
 دماءً غالية.

42

دخل جمال حديقة الصنائع باحثاً عن عائلة عمه التي تهجرت من
 مخيم برج البراجنة. زحمة أولاد تلعب في ممرات الحديقة وبين
 الشجيرات والشتول التي نُشر فوقها الغسيل. بعض الرجال يلعبون
 الورق وآخرون طاولة الزهر، بينما أشعلت إحدى النساء النار في بعض
 الأغصان اليابسة ووضعت فوقها طنجرة سوداء اللون، وانحنى بجانبها
 امرأة أخرى على وعاء بلاستيكي أحمر تغسل ثياباً بيديها.

تابع جمال سيره من ممر إلى آخر باحثاً عن عائلة عمه إلى أن
 جاءه من الخلف ولد صغير لا يتجاوز السنوات العشر ونادى عليه:
 كيف حالك يا جمال؟ استدار جمال باحثاً عن مصدر الصوت ليرى ابن
 عمه الصغير ياسر وقد فتح ذراعيه مستعداً للعناق.

عانقه جمال ورفعته عن الأرض سائلاً عن عائلة عمه فرداً فرداً.
 أرشده إلى خيمة بدائية الصنع مكوّنة من بطانية وغطاء سرير تمّ
 تشبيتهما إلى إحدى الأشجار لتستر سكانها أثناء النوم.

- السلام عليكم. نادى جمال من بعيد محبباً زوجة عمه التي كانت
 منكبة على قطعة من الخشب تفرم عليها بعض البصل.

- وعليكم السلام يا ابني يا جمال. ردت عليه "أم هاني" بصوت
 متهدج: الحمد لله على السلامة، لقد انشغل بالنا عليك، ماذا حصل لذراعك؟

- الحمد لله على سلامتكم، كيف هاني و خليل وسوسن؟ سأل جمال وهو يجول بعينه بحثاً عن أي منهم.
- أنا هنا. وخرجت من الخيمة فتاة تبلغ حوالي الثمانية عشر ربيعاً مبتسمةً لجمال.
- سلمّي على خطيبك يا سوسن. دعتهـا "أم هاني".
- كيف حالك يا سوسن؟ سألها جمال وهو يتقدّم منها وقد مدّ يده ليسلمّ عليها.
- الحمد لله، لقد انشغل بالي عليك وعلى أهلك، ماذا حصل لذراعك؟ سألته سوسن.
- الحمد لله أنا وأهلي بخير، لقد مرّ عليّ وقت عصيب، لقد انكسرت ذراعي من رصاصة أثناء اشتباكنا مع الإسرائيليين، ولكن أين إخوتك؟
- الحمد لله على السلامة، لقد ذهبوا لشراء بعض المؤون للبيت. استأذن جمال زوجة عمه للتنزّه مع خطيبته في الحديقة.
- من كان يعتقد بأننا سنتنزّه في هذه الحديقة في يوم من الأيام؟ سألتها جمال.
- نحن معتادون على التنزّه في أزقة البرج وكورنيش المنارة، أما هنا، بين الأشجار والزهور، فهذا جديد علينا، المؤسف أنه لا يوجد هنا باعة فستق وبزر وكعك. أجابته سوسن.
- لقد لاحظت بائع شراب السوس قرب بوابة الحديقة. طمأنها جمال.
- إذن دعنا نذهب لتناول شراب السوس. طلبت منه سوسن بغنج ودلال.
- أمسك بيدها وسارا باتجاه مدخل الحديقة. توقّف جمال عن السير فجأة وجعل يحدّق في شاب يجلس على أحد مقاعد الحديقة يقرأ جريدة "المعركة". وكان الشاب أحسنّ بأن هناك من يراقبه، فرفع رأسه ونظر باتجاه جمال الذي ناداه مباشرة "علي حرب؟"

لم يكن جمال الشاعر وعلي حرب زملاء دراسة في ثانوية برج البراجنة وحسب، بل كانا صديقين يجمعهما تفوقهما باللغة العربية وعضويتهما في نادي الشطرنج ولجنة تحرير مجلة "الشعلة" التي يصدرها النادي الأدبي في الثانوية.

بعد العناق بادره علي بالسؤال: شو القصة؟ الحمد لله على السلامة.
هزّ جمال رأسه قائلاً: الحمد لله، بسيطة، كسر بسيط، أعرفك على خطيبتي سوسن، ابنة عمي.

انفجرت أسارير علي عن ابتسامة كبيرة: مبروك، تشرّفنا.
- عقبالك، ما هي أخبارك؟ سأله جمال.
- كنت أقاتل على محور خلدة مع حركة أمل، وأنا في إجازة لمدة 48 ساعة مكافأة لي ولأحد الإخوة، لأننا تمكنا من أسر ناقلة جند إسرائيلية خلال الاشتباك على المحور.
- عظيم جداً، مبروك يا بطل. هنأه جمال معانقاً.
دعاهما علي للجلوس معه على مقعد الحديقة، ولكنهما أصرّا عليه للتوجه معهما لتناول شراب السوس.

أثناء احتسائهما الشراب تجاذبا أطراف الحديث حول الذكريات وإسرائيل والاشتباكات والصمود واتفقا على أن يلتقيا في الغد قرب منزل جمال للمشاركة في تعبئة أكياس الرمل لحماية سكان وأبنية الشارع.

43

بعد وصول القوات الإسرائيلية إلى بعدوا والقصف العنيف الذي تعرّضت له منطقة خلدة بالأمس من الجو والبحر والبر، أضحت شوارعها وطرقاتها تشبه حقلاً تمت فلاحته استعداداً لموسم الزراعة، كذلك كانت الحالة النفسية للمقاتلين وروحهم المعنوية في وضع لا تحسدان عليه.

كانت الأجواء مزروعة حقداً من الذين استقبلوا الإسرائيليين بالأرزّ والعطور والتهليل، ومزروعة غضباً من الإخوة العرب الذين لم يتضامنوا إلا بالكلمات الرنانة عبر الإعلام، وعلى الجيش اللبناني الذي لم يطلق رصاصة واحدة في وجه الغزاة، وعلى الوطنيين الذين رموا أسلحتهم وحقنوا دقونهم وشرعوا الأبواب للمحتلين رافعين الأعلام البيضاء على سطوح منازلهم. هذا النوع من الزراعة سينبت شوكة وعلقماً في قلوب هؤلاء الشبان الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم، واقترشوا الخنادق منازلًا، والتحفوا سماءً تمطر عليهم نيراناً محرقة ليل نهار.

لم يكن حال المقاتلين داخل بيروت، أفضل من حال إخوانهم على الجبهات، فعندما صدرت الأوامر لبعض الكوادر بحرق الأرشيف السري لتنظيماتهم في براميل خاصة أثناء الليل، أوجس المقاتلون خوفاً من الآتي، وشعروا هم كذلك بالشوك والعلقم في حناجرهم، كيف سيضخون بحياتهم غداً في سبيل القضية، وقد يتم اتفاق على وقف إطلاق نار وخروج للمقاومة بعد غد؟ وهكذا أصبح لسان حالهم يسأل: هل أن وصول الإسرائيليين إلى بعبداء هو بداية النهاية؟

اتصل ياسر عرفات باللواء محمد حلال قائد اللواء 85 السوري ليعرف موقفه ولكنه لم يتلق جواباً، فاتصل بمدير المخابرات اللبنانية جوني عبده طالباً منه تنسيق عملية لخروج مقاتليه من المدينة.

أما في مدينة جونية التي وصلها أرنييل شارون بسيارة مدنية من بلدة بعبداء المحتلة، فقد دخل على بشير الجميل كالثور الهائج وهو يستشيط غضباً قائلاً: نحن نضع أرواحنا على أكفنا لإنقاذكم وتحرير بلادكم ونتكبد 170 قتيلاً لأجلكم، وشبانكم يتمتعون بالسباحة على الشواطئ ويزدحمون على أبواب دور السينما والملاهي، بدل الاحتشاد أمام مكاتب التعبئة؟

التزم بشير الصمت إلى أن أفرغ شارون غضبه، ثم سأله ما المطلوب منه. سحب بشير دفترًا صغيراً من جيبه وسجّل فيه ثلاث نقاط مع الوعد بالتنفيذ، كانت كافية لامتناس غضب شارون.

44

وقفت جولي شومان على شرفة منزلها تراقب القصف العنيف المستمر الذي ما زالت منطقة خلدة تتعرض له. انفجار إثر انفجار، ودوي إثر آخر، وكلما سقطت قذيفة انتفض عصفورا الحب في قفص ابنيتها بيسان، بينما السماء تتوهج بألوان حمم النيران ولهب الحرائق، متجاوزة سحب الدخان الكثيف التي تلف أجواء المنطقة، مما يحولها إلى ما يشبه آتوناً جهنمياً.

تتساءل جولي، هل سيأتي اليوم الذي تكون فيه هي وعائلتها ضحية لنيران جهنمية كالتي يتعرض لها المقاتلون وسكان منطقة خلدة؟ إلى متى سيتمكنون من الصمود؟ ما هو حجم القصف القادرون على احتماله؟ ... تُقرر أن تفتح الراديو لتعرف آخر المستجدات.

- نجيب حيدر يُطمئن الأهل في قرية اللبوة عن وصوله إلى بيروت بالسلامة.

- رقيّة غدار تطمئن أهلها في الغازية أنها وعائلتها بخير.
- طانيوس وفيوليت معوض يزفان إلى الأهل في بلدة زهور الشوير خبر ولادة ابنتهما ناجي، والطفل ووالدته بصحة جيدة وخير.

- محمود عيتاني يطمئن الأهل في بحدون أنه وصل إلى بيروت وأن المنزل سليم ولم يصب بالقذائف، ولكن قوات الكتائب صادرت الطعام وغالون الماء الذي يحمله على حاجز الحازمية...

وتستمر اللائحة وتستمر، في محاولة لطمأنة الشعب المشرد على أهله وأحبته.

دخل البروفسور شومان إلى غرفة الجلوس يحمل مجلة وتوجّه إلى زوجته جولي سائلاً: إلى ماذا تستمعين؟

- إنها مأساة! تصوّر أنه في بلدكم الصغير الذي تقارب مساحته مساحة أصغر ولاية أميركية، لا يستطيع المواطنون فيه التواصل المباشر بين بعضهم أو عبر الهاتف، فيستخدمون الإذاعات لمعرفة أخبار بعضهم.

غمزها البروفسور قائلاً: الحاجة هي أم الاختراع، أرجو أن تخفصي صوت المذيع إذ إنني سأحاول القراءة عسى أنسى ما يدور حولنا.

فتح البروفسور مجلة Popular Science وشرع يقلب صفحاتها متصفحاً المواضيع التي يتناولها العدد، إلى أن وصل إلى موضوع لفت نظره.

ماسحات الألوان الضوئية الأسطوانية:

تعرّف إلى الآلات الفريدة التي أصبحت العمود الفقري لصناعة الطباعة

إن ماسحات الألوان الضوئية الأسطوانية هي أجهزة يمكنها إنتاج أفلام طباعية إيجابية أو سلبية مفروزة ومصححة بطريقة إلكترونية، حيث تختصر قدرات هذه الماسحات الإلكترونية جميع الخطوات اليدوية السابقة التي قامت عليها هذه الصناعة.

توجد حالياً حوالي 2000 مساحة في العالم، 500 منها في الولايات المتحدة. وتتجلى الثقة بقدرات هذه الآلات عبر القبول والاستحسان الكبيرين اللذين صاحبها إطلاقها في أسواق النشر والطباعة. وليس عليك سوى تخيل أن باستطاعة هذه الآلة الفريدة تكبير حجم سلايد شفاف بمقاس 35 ملليمتر إلى مقاس 50×40 سنتم وفرزه وإنتاج 4 أفلام عنه.

كيف تعمل مساحة الألوان الضوئية

يثبت الأصل الذي قد يكون إما سلايد أو صورة على أسطوانة بلاستيكية خاصة. تدور الأسطوانة بسرعة ثابتة تقارب الـ 25 دورة في الثانية ثم يتم تسليط بؤرة ضوء لتتير الأصل من داخل الأسطوانة للسلايدات الشفافة ومن خارجها للصور. ومع كل دورة للأسطوانة تتحرك بؤرة الضوء جانبياً بمسافة توازي عرض خط المسح.

ومع كل دورة يتجزأ خط المسح الذي يبلغ عرضه حوالي نصف من الألف من الإنش إلى عدة آلاف من الصور الصغيرة حول الأسطوانة. ويتم تحليل كل بؤرة ضوء خلال عبور الضوء من الأصل عبر فتحة ضيقة إلى عسات الإذخال، ثم إلى المساحة ليمر الضوء عبر مشطرات للحزم الضوئية ومنها إلى فلترات حمراء وخضراء وزرقاء لفصل الألوان، حيث يتم التقاط كل إشارة بصرية بورياً في مضخمات التحسس PMT ليتم تحويلها من إشارات بصرية إلى إشارات إلكترونية متناسبة مع كمية اللون من الضوء الموجود في بقعة الضوء على الأصل.

وهناك عدة شركات تنتج مساحات ألوان ضوئية وبموديلات مختلفة مثل:

شركة كروسفيلد التي تنتج مساحات ماجناسكان 530 و 540 و 510 و 515 و 520 و 550 و 570

شركة داينبيون التي تنتج مساحات SG-701 و 601 و 1000 و 606 و 505

شركة هل - كروماجراف التي تنتج مساحات 350 و 229 و 299

خلال قراءته لهذه المقالة كان وجه بروفيسور شومان يشع سروراً متأثراً بمحتواه، أعاد قراءته ثانية، وسجل بعض الملاحظات في دفتره. ثم رفع سماعة الهاتف وطلب النقيب "أبو حسين" رفيق السلاح السابق في الأغوار ومسؤول التسليح في فتح.

- "أبو أرز"؟ أين أنت يا رجل؟

- أنا لا زلت بانتظار مهاتفك لي!

- أعرف ذلك، ولكنني أضعت رقمك ويجب أن أراك.

- متى؟ هل غداً مناسب؟

- أهلاً وسهلاً.

- إلى اللقاء.

45

في هذا اليوم الشديد الحرارة واتقاءً من أشعة الشمس الحارقة، دخلت مجموعة من العسكريين الإسرائيليين إلى مركز بريد بلدة بعبداء، وأحاطت بطاولة نشرت فوقها خارطة عسكرية باللغة العبرية تمت تغطيتها بطبقة من البلاستيك. على رأس الطاولة وقف ضابط يشير إلى عدة نقاط ومواقع، متوجهاً بالحديث إلى ضباط الصف المحيطين به، بينما يضع إشارات "X" في عدة أماكن محدداً لهم تعليماتهم. قريباً منه وقف داني حداد في موقع حراسته بزي القوات اللبنانية مبتسماً، رغم أنه لم يفقه شيئاً مما يجري. وما أن انتهى الضابط من توجيه تعليماته، حتى سارع إلى لفّ الخارطة، فيما انطلق ضباط الصف المحيطون به نحو دباباتهم، وما أن لمحهم العسكريون المسترخين على الرصيف في الظل، حتى رموا زجاجات البيرة جانباً وهبوا باتجاه دباباتهم أيضاً. وما هي إلا لحظات حتى زمرت أكثر من 50 دبابة تضم رتلًا من دبابات الهويتزر M108 مطلقه سحابة من الدخان الأسود الخانق. تحرك قسم منها غرباً باتجاه تلال بلدة الحدث ومحيط الريجي، بينما خاض القسم الآخر طرقاً وعرّة جنوباً باتجاه تلال الشويفات ودير قوبل.

في الجهة المقابلة كانت الخطة الإسرائيلية قد أصبحت واضحة. فبعد الإحاطة ببيروت الغربية والضاحية الجنوبية، استنتجت قيادة المقاومة أن سياسة القضم البطيء هي التي ستسود. وبناءً على هذا التحليل تقرر زرع كمائن مصغرة على طول خط المواجهة، بحيث يكون كل كمين مكوناً من ثمانية عناصر على رأسه ضابط، والهدف من هذه الكمائن الإنذار في حال ملاحظة أي تحرك لقوات العدو، ثم التصدي له ومشاغلة قواته بينما تتحرك كتيبة الـ م/د المحمولة للتصدي للهجوم.

بعد تعزيز عديد المقاتلين تحسباً لتراجع القوات من محور خلدة، قررت القيادة ضرورة تعزيز التحصينات كذلك. وبناءً لتعليمات العميد "أبو الوليد"، أمر العقيد "أبو الطيب" تراكتورات جر المدفعية بأن تسحب الكونتنيترات والشاحنات المغلقة والمبردة المتوقفة قرب مركز تعبئة الغاز، ووضعها بشكل صفوف متتالية في وسط الطريق العام وعلى أطرافه، ثم استقدم 7 شاحنات مملوءة برمل البحر لتعبئة أكثر من ألفي كيس بالرمال. ثم أمر بوضع أكياس الرمل داخل الشاحنات، كما عمد إلى سد جميع الفراغات أسفل الشاحنات بأكياس الرمل محوِّلاً صفوف الشاحنات إلى عدة خطوط من الدشم المرصوصة.

خلال إنجاز هذا التدبير، كشف الإسرائيليون تحرك الشاحنات فزرعوا المنطقة قصفاً من البحر بحيث بلغ معدل القصف قذيفة كل 15 ثانية. وللدرد على الإسرائيليين أمر "أبو الطيب" سرية من الـ 19 مؤلفة من مدفعين 106 ومدفعين SPG9 بالتمركز في المسبح العسكري إضافة إلى راجمتي صواريخ BM ذات 30 فوهة بالتمركز في الرملة البيضاء للتعامل مع البحرية الإسرائيلية.

46

نظرت مدام ناديا شهاب من شرفة منزلها محاولة معرفة ماذا يجري في الشارع. كان أحد الأشخاص يمسك طرفي كيس فارغ بينما يقوم آخر يحمل رفشاً بتعبئة الكيس بالرمل، ليربطه ثالث، بينما يحمله شخص آخر على كتفه لينقله إلى أسفل المبنى حيث تتولى مجموعة من الأشخاص رصّ الأكياس بشكل جدار واقٍ أمام المخازن ومدخل البناء. بهرتها لحظة "العونة البيروتية"، وضعت اسماً للوحته الجديدة قبل أن ترسمها، دخلت المنزل بسرعة واختطفت حاملة أوراق الرسم وقلم الفحم

وعادت إلى الشرفة لتلتقط الصورة الحيّة، وتجسدها خطوطاً على ورق "الكانسون". حركية الأجسام جميلة ومتناسقة ومميزة من فوق، ولكنها ترغب في إبراز تعابير الوجوه وانطباعاتها وتفاعلها مع هذه الحالة الشبه فريدة. دخلت إلى البيت من جديد وبسرعة باتجاه باب الخروج، محاولة القفز على درجات السلم كي لا تفوتها اللحظة. وصلت إلى الشارع بسرعة، وجلست على أحد كراسي مقهى "أبو عفيف". أخرجت ورقة بيضاء ناصعة جديدة، وشرعت ترسم وجوه الأشخاص. هذا راشد ابن الجيران بقسمات وجهه الجادة، يحمل رفشاً ويغرز في تل الرمال ثم يرفعه ممتلئاً بالرمال، ليفرغه في كيس يمسكه جمال ابن الناطور بيدين أحدهما صحيحة والأخرى بالجبس. وكلما امتلأ كيس تربطه ميرا صاحبة "توفوتيه ميرا" المجاورة ليتناوله شاب رياضي خلع قميصه وبانت عضلاته، كان جمال يدعو علي. كان علي هذا يحمل كيس الرمل على كتفه ويسير به نحو المتراس ليدفعه فوقه، حيث يقوم "رويتز" و"أبو عفيف" بضبطه بشكل هندسي متراسف ومتناسق مع بقية الأكياس. كانت خطوط من العرق تتحدر على وجوه وأعناق الجميع بينما كانت حبات العرق تتقصد من جسم علي حرب، ورغم ذلك فإن أحداً من المجموعة لم يتأفف أو يبدي انزعاجاً. بل على العكس، فإن أقلام مدام ناديا سجلت نظرات تصميم وقسمات تحدّ على وجوه العاملين الشبان.

ما أن اكتمل ارتفاع المتراس على رصيف البناء ليحمي مدخله والدكاكين المحيطة به حتى جلس الشبان على كراسي مقهى "أبو عفيف"، وتوقفت مدام ناديا عن الرسم بعد أن أشبعت صفحاتها باسكتشات مختلفة الزوايا لوجوه المجموعة التي عملت على المتراس. من بعيد نادى "أبو عفيف": أهلاً بالشباب، أعطاكم الله العافية. ووصل إلى طاولة مدام ناديا حاملاً صينية عليها زجاجات الكولا.

تفحصت مدام ناديا وجوه المجموعة مبتسمة وقالت: عافاكم الله،
لقد أثبتتم أنه بالتضامن وحده يمكن تحقيق الأهداف.
- تفضلوا، اشربوا الكولا. قال "أبو عفيف".
توجه جمال إلى مدام ناديا قائلاً: هذا علي صديقي منذ أيام
الدراسة، ولقد أصرّ على مساعدتنا.
- أهلاً وسهلاً علي، وشكراً لكم جميعاً، لقد قمتم بعمل تشكرون
عليه، الآن باستطاعتنا النزول إلى الملجأ دون خوف من أن تصيبنا
شظايا القذائف.

47

بعد انتهاء الاجتماع المغلق بين أريئيل شارون وإيلي حبيقة في
المقر الإسرائيلي العام الذي تمّ اتخاذه في مدرسة مون لاسال اللبنانية،
خرج HK محاولاً استعادة الحديث الذي تمّ بينه وبين وزير الدفاع
الإسرائيلي، الذي شدّد على ضرورة توغل القوات اللبنانية باتجاه الشياح
في ضاحية بيروت الجنوبية، وذلك لحصار القوات الفلسطينية - اللبنانية
المشتركة المترجعة من محور خلد، وإذا بأحد الأشخاص يحبيه قائلاً:
"شالوم إدار".

إدار هو اسم إيلي (الياس) حبيقة الحركي عندما كان يتابع دورة
عسكرية في العام 1977 في إسرائيل. أما في لبنان فكان اسمه الحركي
HK كافياً ليثير الرعب في نفوس أصدقائه قبل أعدائه.

نزع HK نظارتيه السوداوين فتعرف إلى الملازم شيمون مدربه
السابق في إسرائيل.

- شالوم، كيف حالك ليوتنان شيمون؟ سأله HK بلغة إنكليزية
ركيكة: ماذا تفعل هذه الأيام؟

- لقد أصبحتُ كابتن الآن، وأنا أخدم هنا... تعال لأريك ماذا أفعل.
أدخله شيمون إلى غرفة كبيرة تمت تغطية نوافذها بقماش أسود.
كانت هناك طاولتان كبيرتان، وضعت عليهما عدة شاشات تلفزيونية
وقرب كل واحدة جهاز كمبيوتر، جلس أمامها عسكريون إسرائيليون
يتابعون الصور على الشاشات ويتحدثون عبر الراديو. كانت هذه الغرفة
هي مركز متابعة حركة عمليات الطيران الحربي الإسرائيلي في سماء
لبنان. على إحدى الشاشات ظهرت صورة طائرة وهي تتحرك ببطء
وقد ظهرت تحتها أبنية وشوارع.

- تقوم طائرتنا التي تطير بدون طيار، والتي تمت صناعتها في
إسرائيل، بتصوير كامل منطقة العمليات، حيث تم تقسيم بيروت
وضواحيها إلى مربعات محددة، وقد خصصت شاشة لكل مربع تتناوب
على تصويره عدة طائرات بدون طيار تجوب السماء متنقلة من مربع
إلى آخر، حيث تقوم بالتصوير والبث المباشر بالوقت الحقيقي.
هزّ HK رأسه بإعجاب وقد زمّ شفّتيه: ممتاز، نكي جداً، وهل
يمكن تكبير الصورة لتوضيح التفاصيل.

ابتسم الكابتن شيمون قائلاً: يمكننا تكبير الصورة على الكمبيوتر
المجاور إلى حدّ يمكننا من معرفة موديل سيارة تسير على الطريق
ورقم تسجيل لوحتها.

استمر HK في هزّ رأسه معجباً بما يسمعه: إذا يمكنكم اصطيد
عرفات متى أردتم ذلك.

- من ناحية المبدأ نعم، ولكننا بحاجة إلى تقارير جماعتك
المباشرة من بيروت الغربية لمعرفة مكان وجوده بالتحديد.

- إننا نقوم بجهود جبارة لملاحقته، وأنا أكيد أننا سنتمكّن منه قريباً.
لقد تسلّل مخبرونا إلى جميع الأماكن التي يرتادها هو وجماعته، كما أننا
ثبتنا أجهزة التنصّت على الهواتف والأجهزة اللاسلكية التي قدّمها لنا جهاز
"أمان" لاقتناص أخباره وأية أخبار أخرى قد نقيدها ونقيدهم.

يتسم له كابتن شيمون مرتباً على كتفه قائلاً: أمل ذلك من كل قلبي، أنظر! أنظر إلى الشاشة!

ظهر خط أبيض قصير على الشاشة، إنه صاروخ إسرائيلي يتجه إلى بناء في منطقة الفاكهاني فيصيبه، فينتفخ البناء ويبدأ بالانهيار بينما تتصاعد منه سحابة من الدخان وسط تهليل HK والإسرائيليين.

48

تناول بروفيسور شومان سيجارته الفرنسية ووضعها بين شفتيه مُشعلاً عود كبريت ولكنه عاد وأطفاها متوجهاً بالسؤال إلى رفيق السلاح "أبو حسين": هل التدخين مسموح هنا؟

- وهل نستطيع العيش بلا سجائر؟ أجابه "أبو حسين".

أشعل بروفيسور شومان سيجارته وعدل من جلسته متوجهاً إلى "أبو حسين" بالسؤال: شو الأخبار؟

- الأخبار عاطلة، ما زال الوحش الإسرائيلي يقضم خطوطنا لقمة بعد أخرى.

- والحل؟

- الصمود والتصدي إلى أن يفرجها ربك.

- الله يستر. علق البروفيسور: وما أخبار الموضوع الذي تكلمنا فيه.

- لقد وافقت القيادة على إعطائك الصاروخ على مسؤوليتي

ومسؤوليتك الشخصية.

إرتشف البروفيسور الشاي وقال: أنا موافق ولكني أريد أن تعطيني معه كل الكتالوجات والكراريس التابعة له.

- لا بأس. قال "أبو حسين" وتناول ورقة من مكتبه وقدمها إلى

البروفيسور.

تحية الثورة

إلى الأخ النقيب "أبو عوض"

قائد كتبية م/ط

بعد التنسيق مع الأخ العميد "أبو الوليد" تمت الموافقة على صرف صاروخ سام 7 عدد واحد من عهدة السرية الثالثة بتوقيع الأخ الملازم "أبو عبدة"، وتسليمه إلى حامل هذه الرسالة لإجراء بعض الاختبارات العلمية عليه بغاية تطويره.

وثورة حتى النصر

المقدم "أبو صلاح"

العمليات المركزية

1982/6/14

- شكراً أخي "أبو حسين"، ولكن الحصول على الصاروخ منفرداً لن يفيدني، فأنا بحاجة أيضاً إلى جهاز طباعي محدد.
- هل تقصد أنك تريد لوازم طباعية؟ سأله "أبو حسين".
- رفع البروفسور يديه وكأنه يحاول القول إنه غير أكيد من كلامه: شيء من هذا القبيل.
- لا بأس، سأكلّم الأخ "أبو شامخ" في مطابع الثورة وهو لا شك سيساعدك.

49

اجتمع فادي أفرام رئيس أركان القوات اللبنانية وفؤاد أبي ناضر رئيس شعبة عملياتها مع أفنير آزولاي مسؤول الموساد في لبنان بناءً على طلبه المستعجل والمتكتم بضرورة عدم معرفة أي شخص بهذا الاجتماع السري.

- لقد طلبت الاجتماع معكما اليوم لسبب خطير. توجه آزولاي إلى مسؤولي القوات اللبنانية: إن رئيس الوزراء قلق جداً لعدم تجاوب

بشير معه للقيام بعملية نوعية تُشعر الإسرائيليين بأن جيشهم لا يقاثل وحده في لبنان، ويريد أن يُثبت لهم أن اللبنانيين يساندونهم فعلياً ويقاثلون معهم.

كان فادي أفرام يصغي إليه بانتباه وهو يهزّ رأسه: أنا أوافقك الرأي، ولكن هذا القرار يُتخذ على صعيد القيادة وعلى رأسها بشير.

أجابهُ آزولاي وقد رفع من وتيرة صوته: لهذا السبب جمعتمنا بسرية للقيام بمبادرة من طرفكما لإعادة الثقة بيننا.

- ولكن أي تصرف منا بدون معرفة بشير ستكون عواقبه سيئة علينا. علّق أبي ناضر.

- إن نتائج العملية التي أريدكما أن تتفّذاها ستكون لمصلحة بشير والقوات، أنا أتكلّم من حرصي على علاقتكم مع السيد بيغن ودعمه لكم، فهو مستاءٌ من ترك قوات جيش الدفاع الإسرائيلي تقاثل منفردة بينما قواتكم تتفرج عليها.

- وما نوع العملية المطلوبة؟ سأل أفرام بينما كان أبي ناضر يحملق فيه.

- المطلوب عملية محدودة تتمثل بطرد قوات عرفات من الجامعة اللبنانية في منطقة الحدث واحتلالها.

- وهل ستشاركوننا بالعملية؟ سأل أفرام.

- سنساندكم بالمدفعية، ولكنكم ستنفذون العملية منفردين، وسيتم تغطيتها إعلامياً عبر الصحافة الإسرائيلية.

- حسناً، سنقوم بالتحضيرات غداً، وننفذ العملية فجر بعد غد، ما رأيك؟

- موافق، شرط أن لا يعرف بشير شيئاً حتى بعد التنفيذ.

50

لا بد أن مطعم "أبو عفيف" للفول هو الوحيد من نوعه الذي يسمح لرواده بلعب الشطرنج بدل تناول الفول المدمس بالزيت. وهناك، جلس جمال وعلي يحاولان التركيز على رقعة الشطرنج أمامهما رغم وقع الانفجارات غير البعيد عنهما مطمئنين لسلامتهما خلف ساتر أكياس الرمل.

إلى طاولة مجاورة جلس "رويتز" يقرأ جريدة الصباح وإلى جانبه معلم موسى يراقب المباراة البطيئة محاولاً معرفة قواعد اللعبة مستمعاً في الوقت نفسه إلى نشرة الأخبار عبر راديو الترانزستور أمامه. نقر معلم موسى بأصابعه بسرعة على يد "رويتز" التي تمسك جريدة السفير التي تخفي وجهه قائلاً: هل سمعت؟

كان المذيع قد قرأ خبراً مفاده أنه تم الاتفاق بين رئيس الجمهورية اليااس سركيس ورئيس الوزراء شفيق الوزان بناءً على اقتراح قائد القوات اللبنانية بشير الجميل الدعوة إلى تشكيل "هيئة الإنقاذ الوطني". والهدف منها كما ورد في الخبر، حل التناقضات الداخلية للوصول إلى حلول للأزمة التي يمر بها الوطن. وقد دعي إلى اجتماعها قادة جميع الفرقاء على الساحة اللبنانية، بما فيهم وليد جنبلاط، ونبيه بري، ونصري المعلوف، وفؤاد بطرس إضافة إلى بشير الجميل ورئيسي الجمهورية والوزراء.

- إنها مهزلة. صرخ "رويتز" وهو يطوي صحيفته بعصبية: كيف يجتمعون في القصر الجمهوري في بعدا المحاط بالإسرائيليين، إنه ذل ما بعده ذل.

استغرب معلم موسى موقف "رويتز": ولكن هدفهم وقف هذه الحرب وإنقاذ الوطن. قال معترضاً.

- وهل يتم إنقاذ الوطن وهو تحت الجزمة الإسرائيلية بهذه الطريقة؟ إن هذا البلد لا يسير سوى بالتوافق الوطني وبمعادلة لا غالب ولا مغلوب، وكل ترتيب خارج هذا الإطار مصيره الفشل.
وصل راشد على دراجته حاملاً كيس المناقيش وتوجّه إلى طاولة "رويتز" ومعلم موسى.

- يظهر أن عدوى بناء متاريس أكياس الرمل أمام الأبنية قد تفشّت في المنطقة. بادر راشد بالحديث: فأمام الأبنية التي فيها الفرن والصيدلية وصالون الحلاقة ارتفعت سدود عالية مثل هذه لدرء خطر شظايا القذائف والصواريخ عن الناس والأبنية.

ابتسم "رويتز" قائلاً: ولكن الفكرة الأولى كانت فكرتك، يعني فكرتنا سوية، لقد كنا السباقين في التنفيذ.

غمزه راشد: لا بأس، المهم أنه لولا هذا المتراس لما استطعنا الجلوس هنا بأمان وقراءة الجرائد ولعب الشطرنج. ونظر إلى جمال وعلي وتوجّه إليهما بالحديث: تفضلوا يا شباب لتناول المناقيش.

- أين الشاي؟ زرع معلم موسى باتجاه "أبو عفيف".
- حالاً حالاً. أجابه "أبو عفيف" وقد وصل يحمل صينية عليها إبريق الشاي والسكر مع عدة أقذاح.
- أهلاً بالشباب. توجّه "رويتز" بالتحية للجميع.
- ابتدأ "أبو عفيف" بصب الشاي في الأقداح: يا شباب هل يُعقل أن تأكلوا المناقيش في مطعم "أبو عفيف" المخصص لتقديم الفول؟
- وهل تريدنا أن نتناول الفول المدمس كل يوم؟ سأله معلم موسى: لماذا لا تقوم بإنشاء فرن صغير للمناقيش فنصبح من زبائنك؟
- فكرة ممتازة. علّق جمال.
- جال "أبو عفيف" بنظره بين الجميع: والله فكرة معقولة سأفكر فيها.

- أعتقد أنه سيكون مشروعاً رابحاً. علّق راشد: خاصة وأنني رأيت العديد من السيارات والشاحنات التي تحمل عائلات عديدة نازحة من قرى الجنوب تلجأ إلى المدرسة الرسمية الخالية في الشارع الموازي لنا.

- ها قد حضر الزبائن قبل أن تفتتح الفرن، لو كنت مكانك لابتدأت بالتنفيذ حالاً، وفي هذه اللحظة بالذات.

- "جاءنا الآن الخبر التالي" انطلق صوت المذياع:

أفادت وكالة الأنباء الوطنية بأن الشاعر خليل حاوي وُجد منتحراً في منزله هذا الصباح، وسنوافيكم بتفاصيل هذا الحادث حال ورودها إلينا.

نظر موسى في وجوه الجالسين حوله محاولاً استنتاج تأثير موت هذا الرجل عليهم وسأل: من هو خليل حاوي هذا؟

- إنه شاعر لبناني ملهم. أجاب "رويتر".

- إنه شاعري المفضل، إنه شاعر الثورة والتمرد، اسمعوا هذا الجزء من قصيدته (الجسر). وضع راشد قده الشاي جانباً وأغمض عينيه محاولاً تذكر كلمات القصيدة:

أَيْنَ مَنْ يُفْنِي وَيُحْيِي وَيُعِيدُ
يَتَوَلَّى خَلْقَ فَرخِ النسرِ
من نسل العبيدِ
أنكرَ الطفلُ أباهُ، أمَّهُ
ليسَ فيه منهُما شَبهُ بَعِيدِ
ما لَهُ يَنْشَقُّ فينا النَّيْتُ بَيَّتَيْنِ
ويَجري البَحْرُ ما بَيْنَ قَدِيمٍ وَجَدِيدِ
صرخةٌ، تقطيعُ أرحامِ،
وتَمْزِيقُ وَرِيدِ،
كَيْفَ نَبْقَى تحتَ سَقْفِ واحدِ
وبحارٍ بيننا.. سورٌ عَنيدٌ

وصَحْرَاءُ رَمَادٍ بَارِدٍ
 وَجَلِيدٍ.
 وَمَتَى نَظْفَرُ مِنْ قَبْوٍ وَسَجْنٍ
 وَمَتَى، رَبَّاهُ، نَشْتَدُّ وَنَبْنِي
 بِيَدَيْنَا بَيْتَنَا الْحُرَّ الْجَدِيدَ

توقف راشد برهة وأخذ نفساً عميقاً وقال: اسمعوا الآن هذا المقطع
 الرائع.

يَعْبُرُونَ الْجِسْرَ فِي الصَّبْحِ خَفَافاً
 أَضْلَعِي امْتَدَّتْ لَهُمْ جِسْراً وَطِيدُ
 مِنْ كُهُوفِ الشَّرْقِ، مِنْ مُسْتَقْعِ الشَّرْقِ
 إِلَى الشَّرْقِ الْجَدِيدِ
 أَضْلَعِي امْتَدَّتْ لَهُمْ جِسْراً وَطِيدُ

نظر "أبو عفيف" في عيني راشد المغرورقتين بالدموع وقال:
 ولكني لم أفهم تماماً ماذا يقول الشاعر.

- إنه يدعو العرب إلى الثورة على التقاليد وعلى واقعهم،
 والانطلاق نحو غد جديد ولو اضطر بعضهم للتضحية بنفسه لتحقيق
 ذلك. أجابه راشد.

- إنه شعرٌ رائع. هتف علي: سأذهب غداً إلى المكتبة لأحصل
 على دواوينه.

- لا تتعب نفسك. علق "رويتز": سأجلبها لك غداً بسعر مخفض، ولكن
 أخبرني هل لديك الوقت لقراءة الشعر؟ ألم تنتهي إجازتك العسكرية بعد؟

- بعد وصول الإسرائيليين إلى بعدا وتشكيل "هيئة الإنقاذ
 الوطني"، يبدو أن قيادتنا قد غيرت من أولوياتها فأعطتنا إجازة مفتوحة
 من الحرب. أجابه علي وهو يهز رأسه بأسى.

51

دلف بروفوسور شومان عبر سائر أكياس الرمل التي تحمي مطبعة حركة فتح في منطقة الفاكاهاني، واتجه إلى غرفة علّقت عليها يافطة (الإدارة).

- أريد مقابلة الأخ "أبو شامخ".

- أنا "أبو شامخ"، مين الأخ؟

- أنا الدكتور سامي شومان، ولقد أرسلني إليك الأخ "أبو

حسين".

- آه، تذكرت، لقد كلمني "أبو حسين" عنك، وكلفني تسهيل

أمورك، وإعطائك قطع الغيار التي تريدها، رغم أنني لم أفهم طلبك

بالتحديد. أجابه "أبو شامخ".

بدا الإحراج على وجه بروفوسور شومان: هذا صحيح، إذ إنني

لست متأكدًا من الجهاز الذي أبحث عنه... هل لديكم مساحات

ألوان ضوئية سكانر؟ سأله الدكتور، وهو يُخرج ورقة صغيرة من

جيبه.

- نعم، لدينا آلة سكانر لفرز الألوان من شركة هل موديلها 350.

- ممتاز، هذا ما أبحث عنه. أجاب البروفوسور وهو يقرأ

المعلومات في الورقة بين يديه: وهل لديكم قطع غيار لهذه الآلة.

أطرق "أبو شامخ" مفكرًا ثم قال: نعم نعم، لدينا الكثير من قطع

الغيار، حيث أن هذا الموديل هو الفريد من نوعه في بيروت، لذلك لا

يمكننا الاستعانة بدعم مطابع أخرى في حال الأعطال، لذلك قررنا

الإتيان بمجموعة كبيرة من قطع الغيار الضرورية للطوارئ.

انفرجت أسارير البروفوسور قائلاً: ممتاز، هل يمكنني الاطلاع

على قائمة قطع الغيار؟

- بالتأكيد تفضل الشاي بينما يجلب لنا مسؤول الصيانة قائمة قطع الغيار.

رشف البروفسور الشاي وسأل مستفهماً: أرجو أن لا تطراً الحاجة إلى هذه القطعة بعد أن أخذها.

- لا تقلق، فلقد أوقفنا آلة فرز الألوان عن العمل، ونحن نُصدر الآن مجلة متواضعة بالأسود والأبيض لعدم توفر الوقت والورق والجهاز الفني الكافي.

أغمض البروفسور عينيه راضياً عن هذا الخبر ورشف الشاي قائلاً: لا شك أن مصائب بعضهم عند بعضهم فوائد.

- حسب ما فهمت من "أبو حسين" فإنك تحاول تحويل مصائبنا إلى فوائد.

انتفض البروفسور مستغرباً معرفة "أبو شامخ" بالتفاصيل وقال وهو يلعن "أبو حسين" في سرّه: إنها مجرد نظريات علمية أحاول إثباتها.

تناول "أبو شامخ" كتيب قطع الغيار من الموظف وألقى نظرة سريعة عليه وأعطاه للبروفسور قائلاً: سأتركك لتتصفح القائمة، وإذا أردت أي شيء مني فأنا في الغرفة المقابلة.

جلس البروفسور إلى الطاولة وشرع ينظر إلى الصور في الكراس عليه يكتشف رسم (مضخمت التحسس) التي يبحث عنها، ولكنه لم يهتد إليها عبر الصورة، فشرع يبحث تحت PMT. كانت هناك المئات بل الآلاف من قطع الغيار بأحجام وأشكال مختلفة. براغي وعدسات وفيوزات وقواطع ولمبات ومفاتيح ومقاومات و... PMT.

نهض البروفسور عن الكرسي وعيناه تبرقان جزلاً واتجه صوب غرفة "أبو شامخ" قائلاً وهو يغمزه: لقد وجدتها... بالإذن من نيوتن.

- عفواً، لم أفهم، ماذا قلت؟

- لا شيء، فقط كنت أقول إنني وجدت (مضخمت التحسس) التي أبحث عنها.
 - ممتاز، دعني أرى، نعم إنها موجودة لدينا في المستودعات، فهذه الإشارة أمام الرقم تفيد عن توفر قطعة واحدة منها، سأجلبها لك حالاً.

52

تحت غطاء تمويهى كثيف من القصف الإسرائيلي بقذائف م - 107 ومن دبابات الهويتزر م - 108 ومن هاونات القوات اللبنانية عيار 120 ملم، تسللت مجموعة النخبة في القوات اللبنانية عبر بساتين منطقة الحدث، وهي ترتدي زي الجيش اللبناني باتجاه مباني الجامعة اللبنانية، الذي تحتل قسماً منه مجموعة من مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت الساعة الرابعة فجراً، وكان فؤاد أبو ناصر قائد العمليات في القوات اللبنانية على رأس القوة التي اختار أفرادها شخصياً فرداً فرداً. أما الهدف فكان مبنى كلية العلوم المكوّن من خمس طبقات ويشرف على مطار بيروت الدولي وعلى قسم كبير من ضاحية بيروت الجنوبية.

عندما أصبح مبنى كلية العلوم تحت مرمى نيران القوات المهاجمة التي توزعت حسب الخطة التي تمّ التدريب عليها في اليوم السابق، أدارت ثلاث سيارات جيب سبطانات مدافعها عيار 106 ملم باتجاه المبنى المستطيل الشكل الذي تكسو جدرانه شعارات الجبهة الشعبية والمقاومة الفلسطينية.

فجأة اشتعل خط المواجهة بقصف عنيف من مختلف أنواع المدفعية وقذائف الآر بي جي والرشاشات، فتهافت أجزاء من جدران المبنى

وتساقط الزجاج وقطع الألمنيوم محدثة أصوات مخيفة، بينما كان الرد من المدافعين عن المبنى متأخراً ومتواضعاً وكأنهم أخذوا على حين غرة. وفي حين اشتد القصف وعُنف، شبت النيران في إحدى الغرف المحصنة جراء إصابتها بالرصاص الحارق. تواصل الاشتباك العنيف تحت أنوار القنابل الضوئية لحوالي الدقائق العشر إلى أن تحول إلى قصف وإطلاق نار من طرف واحد، طرف القوات اللبنانية المهاجمة. وفجأة لاحت من إحدى النوافذ قطعة خشبية علّق عليها قميص داخلي أبيض اللون. أمر أبو ناصر رجاله بوقف إطلاق النار، وما هي إلا لحظات حتى برز من مدخل البناء مجموعة من المقاتلين بينهم العديد من الجرحى وقد رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم وهم يسرون ببطء نحو أعدائهم.

أثناء ذلك، كان فادي أفرام يراقب المشهد عبر المنظار الليلي المكبر من على تلة مدرسة الآباء الأنطونيين، وقد أحاطت به مجموعة من الضباط والصحافيين الإسرائيليين بينما كانت عينا أفنير آزولاي تشعان سعادة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

في هذا الوقت، وفي الجبهة المقابلة كانت تجري محاولات إنزال بحرية في منطقة خلدة قرب الآثارات ومدينة الملاهي مترافقة مع قصف بري وبحري كثيفين ربما لتغطية عملية كلية العلوم. ولكن قائد المحور الرائد راسم الغول قرر استعادة موقع كلية العلوم. فاختر 12 مقاتلاً من خيرة عسكريه وتسللوا إلى الكلية. ولكن القوات اللبنانية اكتشفت تحركاتهم، فانهمر عليهم الرصاص والقصف من القوات المتواجدة في المبنى واستمرت المعركة أكثر من ساعتين استشهد جرائها أربعة مقاتلين وجرح ستة وتم أسر الاثنين الباقين.

في صباح اليوم التالي جنّ جنون بشير الجميل وهو يقرأ خبر عملية كلية العلوم في صحف الصباح، إنتابته ثورة من الغضب، فاستدعى فادي أفرام على عجل وعنفه لأنه تصرف بدون استشارته.

حاول أفرام تبرير العملية: أردنا أن نرفع معنويات الإسرائيليين ليشعروا أنهم ليسوا وحدهم في المعركة وليستمرروا في دعمنا. انفجر بشير بوجهه قائلاً: هذا ليس اختصاصك، بسبب عمليتك هذه سنبقى وحدنا بدون دعم باقي اللبنانيين، أنت لا تفهم بالسياسة، ألا ترى أن الانتخابات الرئاسية أصبحت على الأبواب، ونحن بحاجة إلى جميع الأصوات المسلمة للتمكن من استلام الرئاسة، وأنت بهذه الطريقة تخرب كل شيء عملنا لأجله حتى الآن.

لا تقلق يا باش. أجابه أفرام محاولاً تهدئته: سأصحح هذا الخطأ عبر توزيع خبر جديد يوضح حقيقة العملية وسأشره في الصحف غداً.

53

في محاولة للتخفيف من أصوات الانفجارات البعيدة نسبياً، ولإبعاد أسراب البعوض عنه لينعم بأطول قسط من النوم رغم الحر الشديد، قرر راشد أن ينام وغطاء السرير فوق رأسه. ولكن هذه الأصوات المرتفعة التي يسمعا الآن لا يمكن أن تكون أصوات قصف بعيدة. أزاح الغطاء عن وجهه مستكشفاً طبيعة الأصوات، ليتبين له أن شخصاً ما يطرق باب المنزل.

قفز من سريره وفتح الباب ليستقبل والده وشقيقته خلود. حياهما وقبّلها ودخلا جميعاً إلى غرفة الجلوس.

سأل "أبو راشد": كم عدد ساعات التقنين الكهربائي المطبقة عليكم

هذه الأيام؟

- ليس هناك من قاعدة، فبعض الأحيان ننعم بالكهرباء طوال الليل، وبعض الأحيان 4 ساعات في النهار، إذ ليس هناك من برنامج تقنين محدد.

- ولكن هذا يبقى أفضل من المناطق الجبلية حيث نسكن الآن،
فقسم كبير من بلدة بحدون لا تصله الكهرباء إطلاقاً بسبب انهيار كلي
للشبكة في المنطقة، وبالتالي نحن نعيش على مولدات الكهرباء.
- وكيف هي أعصاب الوالدة؟ سأل راشد: هل هي أفضل حالاً
الآن؟

- نحن نحاول معظم الوقت أن نزلها عن الأخبار السيئة، فلا
جرائد ولا راديو ترانزستور، ولا حديث حول القصف والمعارك
والقتلى والجرحى، وهي لا بأس بها الآن مع المواظبة على تناول
علاجها اليومي.

تدخلت خلود قائلة: لقد أرسلت لك طنجرة كبة باللبن لأنك تحب
هذا الطبق، وهي تسأل عنك دائماً.

- لقد اشتقت إليها أيضاً، ولكني غير منزعج هنا، صحيح أن
الأمر ليست مثالية، ولكن هل نترك مدينتنا للغرباء؟ هل نستقيل من
جذورنا؟

- حسناً فعلتم ببناء ساتر أكياس الرمل أمام البناء، هكذا تحافظون
على أنفسكم وعلى البناء كذلك.

- لقد ساعدت شبان الحي ببنائه.

- الله يعطيكم العافية ويحميكم، أعتقد أنك بحاجة إلى بعض المال،
أليس كذلك؟

- بالفعل، كما أن هناك فاتورة طويلة لدى دكان معلم موسى
ومطعم "أبو عفيف" بحاجة إلى تسديد.

- حسناً، دعنا ننزل ونسدّد الفواتير، كما عليّ أن أحضر بعض
الأدوية غير المتوفرة في الجبل لوالدتك.

قرع جرس الهاتف فأجاب راشد على بروفيسور شومان الذي كان
على الخط.

- كيف الأحوال يا راشد؟
- تمام دكتور، ما هي أخبارك؟
- تعال لعندي إلى البيت غداً ظهراً لتناول طعام الغداء وستعرف آخر الأخبار المشجعة.
- حسناً دكتور، أراك غداً.

54

رغم حداثة سنه وخبرته السياسية القصيرة نسبياً، فإن بشير الجميل قطع شوطاً هاماً في الوصول إلى أهدافه. فبعد أن تخلّص من سلطة والده وهيمنة أخيه الأكبر، انتقل للسيطرة على الشارع المسيحي. ولم يقف طموحه عند هذا الحد، بل قرّر التحالف مع الشيطان لطرده الفلسطينيين والسوريين. والآن وقد بدا وكأنه قارب الوصول إلى هدفه، انتقل للعمل على تحقيق حلمه الأكبر وهو الوصول إلى كرسي رئاسة الجمهورية.

لقد اكتشف بشير بالطريقة الصعبة بأن لبنان لا يُحكم بالقوة والقهر، بل بالتفاهم والتوازن بين مختلف عائلاته الروحية ومراكز القوى فيه. لذلك استتف عن القيام بأي عمليات عسكرية مباشرة ضد المنطقة الغربية المسلمة من بيروت، وترك العمل القذر للإسرائيليين، وذلك لكي لا يتهمه المسلمون يوماً بأنه المسؤول عن تدمير مناطقهم وقتل أبنائهم.

واليوم وبعمر 35 سنة وبيروت تحت الحصار، يتوجّه بشير لعقد اجتماع سرّي في السفارة الأميركية يحضره إضافة إلى السفير روبرت ديلون المبعوث الأميركي فيليب حبيب ومعاونه موريس درابر.

- حسناً فعلتم بتكذيب خبر هجومكم على كلية العلوم. بادر فيليب حبيب بالكلام.

- كان هذا ضرورياً، رغم أنني لم أقرأ النص بعد.
- تفضل أقرأ النص. قال السفير ديلون.
- تناول بشير جريدة النهار وشرع يقرأ:

صدر عن القوات اللبنانية البيان التالي:

حاولت مجموعة مقاتلة فلسطينية فجر الأربعاء 16 حزيران/يونيو التقدم نحو منطقة الحدث، فاشتبكت قواتنا معها وأوقفت تقدمها الاستفزازي. إن هذا الاشتباك المحدود لا يحمل أي مغزى سياسي أو عسكري، وتؤكد قيادة القوات اللبنانية بأنها لن تنجرّ إلى أي معارك عسكرية جانبية، ولكنها في الوقت نفسه لن تسمح بأي تجاوز لخطوطها الأمامية.

- وقد تمّ نشر هذا الخبر في الصحافة الدولية عبر وكالات الأنباء العالمية. علّق موريس درابر.

انفجرت أسارير بشير: ممتاز، لقد كانت العملية خطأً كبيراً، ولم أكن على علم مسبق بها، لذلك كان علي طمأنة المسلمين بأن سياستنا لم تتغير، فحن بحاجة إلى أصواتهم في الانتخابات الرئاسية المقبلة.

- لقد فتحت حديث الرئاسة، ويهمّني أن أبحث هذا الموضوع معك على أفراد. قال فيليب حبيب مضيقاً: سيدا ديلون ودرابر هل سمحتما بتركنا على أفراد؟

بعد أن خرج الاثنان مستغربين هذا التصرف غير الدبلوماسي، انتقل فيليب حبيب إلى المقعد الأقرب إلى بشير، وبحركة مفاجئة لديبلوماسي، وأميركي بشكل خاص، أمسك حبيب بيد بشير محققاً في عينيه قائلاً: لقد قررت الإدارة الأميركية أن تدعم ترشيحك لرئاسة الجمهورية اللبنانية.

لم يصدّق بشير ما سمعه أذناه، ولكن ردة فعله اللاشعورية كانت بالضغط الشديد على يد حبيب: أشكرك عمو فيليب، وأشكر فخامة الرئيس على ثقنتكما بي.

- ولكن عليك أن تحسن من تصرفاتك لتساعدنا بإقناع المسلمين الذين سنتولى أمرهم عبر أصدقائنا السعوديين.

- لا تجزع، سأكون عند حسن ظنكم، ولن أخيب أملككم. دعني أبوح لك بسرٍ يجب أن يبقى بيننا، إنني أفضل ألف مرة التعامل معكم على التعامل مع الإسرائيليين.

نهض حبيب الذي انبعثت فيه عاطفته الشرقية قائلاً: أنت الوحيد القادر على إنقاذ بلادك، دعني أقبلك.

55

أصبح من الواضح أن الإسرائيليين سيتابعون تضيق الخناق على العاصمة عبر سياسة القضم البطيء لجزء بعد آخر ولمنطقة بعد أخرى من الضاحية الجنوبية والشرقية. وتنفيذاً لهذا التكتيك شرعوا ابتداءً من الساعة الثانية فجراً بتنفيذ قصف مدفعي وصاروخي كثيف من منطقة مدينة الزهراء جنوبي خلدو، ومن مواقعهم في تلال الدوحة على مواقع القوات المشتركة في محور المطار والرمل العالي وبئر حسن. في حين قامت البحرية الإسرائيلية بقصف مناطق الرملة البيضاء وبئر حسن والطريق الجديدة والفاكهاني، بينما كان الطيران يقوم بغارات وهمية صاحبها إطلاق قنابل إنارة فوق جميع المناطق أحالت الليل إلى نهار.

أما شهية الجيش الإسرائيلي فكانت مفتوحة هذه الليلة كما يظهر لقضم مطار بيروت الدولي، حيث تقدمت أرتال دباباته التي كانت متواجدة في تلال عرمون وبشامون والمقابلة باتجاه محيط المطار الجنوبي، واستطاعت تحت ستار القصف البري والبحري الكثيف من احتلال مبنى الإطفاء الخاص بالمطار بعد أن أشبعت قذائفها وصواريخها مدارجه ومنشأته تدميراً وتخريباً مما أدى إلى إحراق ثلاث طائرات مدنية لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية.

لم تقف القوات الفلسطينية مكتوفة الأيدي أمام هذه الاعتداءات، بل قامت مدفعيتها وراجمات صواريخها بذكر تحركات العدو، وتبلغت من مواقعها المتقدمة تحقيق إصابات قاتلة. كما تمكنت عناصر كتيبة المدفعية الثقيلة والرشاشات المحمولة في المقاومة الفلسطينية من الوصول إلى طليعة القوات العدو، واستطاع رماة الأريبي جي تدمير دبابتين وجرافة، فاتحين الطريق أمام رفاقهم لتكثيف الهجوم وطردهم الإسرائيليين من مبنى الإطفاء، بعد معركة عنيفة سقط فيها ثلاثة شهداء وثلاثة عشر جريحاً. وبناءً على هذه التطورات أمرت القيادة الفلسطينية السرية الأولى بالتمركز في منطقة الكوكودي قرب المطار لدعم القوات المدافعة عن المطار، فمن المؤكد أن هذه المحاولة لن تكون الأخيرة، وربما كانت عملية لجس نبض قدرات المدافعين استعداداً للهجوم الكبير.

56

وصل راشد إلى مبنى سكن البروفسور في منطقة الروشة على دراجته الهوائية، وقد ربط طنجرة "الكبة باللبن" على المقعد الخلفي. أدخل الدراجة إلى مدخل البناء، وربطها بماسورة الماء قرب السلم بواسطة سلسلة حديدية وقفل خاص. تنفس الصعداء عندما وجد أن نور المصعد مضاء دليلاً على توفر الكهرباء، فصعد فيه وضغط على الرقم 5. رحبت جولي شومان براشد ودعته للدخول.

- شكراً مدام، هل الدكتور هنا؟ سألها وهو يناولها طنجرة "الكبة باللبن".

- تفضل إنه في غرفة الجلوس، ولكن ماذا يوجد في هذه الطنجرة؟
- لقد أرسلتها لي أمي من الجبل، إنها طبخة "كبة باللبن" التي أحبها، فأردت أن تشاركوني الطبق الذي أحبه.

- أنت ملاك يا راشد، ونحن بدورنا يسعدنا أن تشاركنا الطبق الذي نحبه نحن أيضاً، تفضل.

دلف راشد من المدخل إلى غرفة الجلوس عبر الموزع الذي كان يضح بصوت الموسيقى الصادرة من إحدى غرف بنات البروفسور. قرع الباب ففتحه البروفسور مبتسماً سعادة لمشاهدته.

لملم البروفسور صفحات الجريدة عن الأريكة الكبيرة ودعا راشد للجلوس.

- كيف الأحوال يا راشد.

- لا بأس، ما هي آخر الأخبار.

- كل شيء بدأ يتبلور الآن، لقد حصلت على الـ PMT وغداً سنحصل على الصاروخ.

صرخ راشد وقد جحظت عيناه: ماذا!

- اخفض صوتك يا راشد، لا أريد أن يسمع أحد شيئاً، ولا أريد لأفراد عائلتي أن يعرفوا شيئاً.

- ولكن هذا شيء خطير، عندما كنت تعمل على النظرية كان كل شيء جميل ومثير، ولكنك تتكلم الآن عن صواريخ فعلية متفجرة، وهذا شيء خطير!

توجّه البروفسور نحو الباب وأغلقه ثم استدار نحو راشد: اسمع يا راشد، ما نفع النظريات بدون تطبيق، لا شك أن العرب هم أعظم منظّرين على وجه الكرة الأرضية، وكل عربي ينتظر من كامل الأمة العربية أن تعمل حسب نظرياته، ولكنه غير مستعد للعمل شخصياً لتنفيذها. لذلك لا زلنا نجتزّ كلامنا ونتبارى في إطلاق الشعارات المنمقة، ولكننا لا نتحرك لتحقيقها وتفعيلها. فإذا أردت أن تكون واحداً من القطيع فأنت حرٌّ بنفسك، أما أنا فلن أترجع عن تحقيق هدفي، ولن أكون يوماً خروفاً يسير مع القطيع يجترّ الكلام وعيناه في الأرض.

نهض راشد عن الأريكة رافعاً سبابته ومحرّكاً يده بطريقة النفي: أنا لم أكن يوماً من محبي الكلام، بل كنت دائماً أعمل بصمت، وشعاري أن الكلام مهما كان عظيماً يبقى سلبياً بدون تنفيذ، وأن العمل ومهما كان ضئيلاً فهو إيجابي. ولكن المشكلة هنا أنك تتكلم عن صاروخ قابل للانفجار، فهل تريدنا أن ننتحر؟

- بتاتاً يا راشد، أنا لا أنوي تعريض حياتي أو حياتك للخطر، فأنا مسؤول عن عائلتي وعنك، ولكني في الوقت نفسه مسؤول نحو وطني أمام ضميري. ولكن دعني أكلمك الآن بطريقة علمية، أريدك أن تعلم أن هذا الصاروخ لا يمكن إطلاقه بدون توصيله إلى بطارية خاصة. تشعل جهاز إطلاقه، لذلك عليك أن تهدي من روعك وتتعاطى مع الموضوع بالمنطق الإيجابي.

- أعود وأكرّر لك أنني شخص إيجابي ووطني، ولكني بحاجة إلى الاقتناع لتنفيذ أي عمل طوعي، ولو شرحت لي من البداية موضوع البطارية لما كان علينا الخوض في هذا النقاش العقيم.

- لا بأس بتعبير الإنسان عما يجول في خاطره وما يشغل باله، أما الآن فالمهم ما هو قرارك؟

- قراري واضح من الأساس، أنا موافق من الأساس طالما نحن نعمل لهدف سام بدون التعرض لخطر تدمير أنفسنا.

- فإذاً لنبدأ من جديد. وتناول البروفسور المنحسّس بيده: هذا هو الـ PMT الذي سنضعه داخل الصاروخ الذي سنجلبه غداً.

- نجلبه، يعني تريدني أن آتي معك؟

- نعم، إذا ليس لديك من مانع؟

- لا ليس هناك من مشكلة، ولكن هل فكرت كيف ستنتقل

الصاروخ وأين ستضعه لنعمل عليه؟

- ليس تماماً، أنا أعرف أنني سأضعه في الطابق الرابع الذي

تحتنا، فأصحاب المنزل خارج لبنان ولن يعودوا حتى تستقر

الأحوال، ومفاتيح البيت معنا حيث تقوم البنات بريّ أخص الورد في شرفتهم. هذا من ناحية مكان العمل، ولكن طريقة النقل لم أعرفها أي اهتمام بعد.

- إنها نقطة هامة، بروفيسور، فإذا شاهدنا مطلق شخص نقل الصاروخ إلى هذا المبنى لُقضي علينا.

كان البروفيسور يهزّ برأسه موافقاً وهو يستمع إلى رأي راشد:

لديك كل الحق، للحقيقة لقد فاتني هذا الموضوع. هل لديك أي أفكار؟
- أعتقد أن لديّ حقيبة كبيرة خاصة بأدوات التزلج، يمكن إخفاء

الصاروخ داخلها بدون إثارة أي شبهات.

- ممتاز، هل تعلم أنك تذكرني بنفسي أيام الشبان، حين كنت أهتم

بتفاصيل التفاصيل.

- إنك لا تزال وستبقى أستاذي ومعلمي.

57

تحركت سيارة المرسيديس 180 الخضراء اللون طراز العام 1970، والتي تحمل لوحة عمومية ببطء في شارع المقدسي، الموازي لمستشفى الجامعة الأميركية في منطقة الحمراء. بدا السائق رجلاً، وكأنه يكلم نفسه، ولكنه في الواقع كان يتكلم باتجاه ميكرفون صغير مزروع في حاجبة أشعة الشمس أمامه، وهو يتلو اسم الشارع وأسماء الأبنية والمحلات التجارية التي يعبر بقربها على الجانبين، بينما كانت آلة التسجيل الموضوعّة في جهاز الكاسيت تدور مسجّلة كلامه. أما عدسة كاميرا الفيديو المصغّرة والمنفرجة الزاوية المزروعة خلف مرآة السائق، فكانت تصوّر معالم الشارع أمامه على شريط فيديو مضغوط تمّ وضع آلتّه تحت المقعد الخلفي.

منذ أسبوعين ورجا يواظب على مهمة تصوير معالم شوارع صبرا وشاتيلا والفاكهاني والطريق الجديدة والمزرعة ومار الياس. ولكن وبعد معلومات عن لجوء قيادات المقاومة إلى منطقة الحمراء ورأس بيروت، تم توجيه نشاطه إلى شوارع فردان والحمراء والمنارة والروشة. فالتعليمات صدرت إلى جهاز الأمن بتعقب القيادات الفلسطينية بجميع الوسائل والطرق، ومحاولة معرفة مصير الأسرى الإسرائيليين لدى المقاومة الفلسطينية. وبناءً على هذا تم توزيع أدوار شبكة التجسس بحيث كان رجا يؤمن التصوير الأرضي، وفوكس يتابع التنصت الهاتفي، بينما يقوم الزبيق (محمود) وجماعته بتقصي الأخبار على الأرض، في المكاتب الحزبية والصحفية والمستشفيات والفنادق والمقاهي وعلى الطرقات. أما الهدف فهو "أبو عمار" بالدرجة الأولى ثم "أبو أياد" و"أبو جهاد" و"أبو الوليد" و"أبو الزعيم". أما المعلومات التي تجمعها الفرق الثلاث فتصب في مكتب شعبة المخابرات المتصل مباشرة بجهاز الاستخبارات الإسرائيلي.

وبالأمس القريب تكافتت جميع العناصر لاصطياد "أبو أياد". وابتدأت العملية عندما سمع الزبيق من مراسل قناة التلفزة الكندية في فندق الكومودور بأنه سيقابل "أبو أياد" في مكتبه في الفاكهاني في الغد. إثر ذلك، وبناءً على أوامر مكتب التنسيق بين شعبة مخابرات القوات اللبنانية واستخبارات الجيش الإسرائيلي، تحرك رجا للتأكد من حضور القائد الفلسطيني إلى مكتبه، حيث وجد سيارته الرانج روفر الخضراء متوقفة أمام باب البناء الذي يضم مكتبه في منطقة الفاكهاني. اتصل رجا مباشرة بمكتب التنسيق مؤكداً وصول الهدية، وبسرعة خاطفة أعطيت تعليمات محددة لفوكس للمتابعة.

من موقعه في سنترال بدارو، ومن مقسمه الموصول مباشرة بمكتب التنسيق الإسرائيلي في مدرسة المون لاسال، اتصل فوكس بإحدى أرقام هاتف "أبو أياد" الخاصة.

فوكس: أريد أن أتكلم مع المعلم.

"أبو أياد": من يريده؟

فوكس: أنا نبيل الرملاوي من مكتب لندن.

"أبو أياد": لحظة أستاذ نبيل، سأناديه حالاً.

عرف "أبو أياد" من اللحظة الأولى بأن المتكلم ليس نبيل الرملاوي الذي يعرف بالتالي صوت "أبو أياد" جيداً بدون أن يسأل عنه. ولتكتمل الخدعة، فإن "أبو أياد" لم يكن عندها في مكتبه في الفاكهاني. ذلك أن "أبو أحمد" مسؤول سلاح الإشارة، قام سابقاً بتوصيل أرقام هواتف المعلم الخاصة إلى العديد من مكاتبه الأخرى في المدينة الرياضية والطريق الجديدة والصنائع والرملة البيضاء والحمرات، بحيث يستطيع استلام مخابراته الخاصة شخصياً في أي مكان يتواجد فيه. لذلك لم يكن "أبو أياد" قلقاً على نفسه، بل على سائقه محمود الذي ذهب إلى مكتب الفاكهاني لإحضار بعض الأوراق الهامة. وبناءً على إحساسه بوجود مؤامرة، طلب من مرافقه ناصر تقمص شخصية "أبو أياد" والإجابة على المخابرة المشبوهة، ومحاولة إطالة المحادثة أكبر مدة ممكنة.

ناصر: أهلاً نبيل، كيف الأحوال؟

فوكس: الحمد لله، شو الأخبار عندكم؟

في هذا الوقت كان "أبو أياد" يحاول الاتصال بسائقه محمود في مكتب الفاكهاني من الهاتف الآخر بدون التمكن من الحصول على أي رد.

ناصر: الوضع زفت، ولكن المعنويات عالية.

فوكس (بلؤم): لا تخف، فإن شاء الله سيصبح كل الزفت فوق

رأسكم بعد قليل.

نظر ناصر إلى "أبو أياد" فشاهده يهزّ رأسه أسفاً وهو يغلّق سماعة

الهاتف، فصرخ بغضب في سماعة الهاتف:

- بدنا نزفّت ك... أمك وأم شارون يا ابن الكلبة.

وإذ يهّم ناصراً بإغلاق السماعه، صدر صوت صغير انزلاقٍ سريع لطائرة حربية، تبعه صوت انفجار كبير.
ضرب "أبو أياد" كفه برأسه وتنهّد قائلاً: "حماك الله يا محمود.

تابعت السيارة طريقها إلى أن وصلت إلى تقاطع شارع السادات، فانحرفت صعوداً فيه. لم يكن شكل سيارة المرسيديس المحطمة وسائقها رجا يوحيان بانتمائهما إلى شبكة مخبرات مُحكمة الترابط، خاصة مع وجود صورة - شهيد فتح، الشهيد البطل محيي الدين بلاطة، الذي استشهد دفاعاً عن عروبة لبنان - ملصقة على الزجاج الخلفي للتمويه. وربما كان رجا هو الذي تسبب بمقتل الشهيد محيي الدين منذ أسبوع وعلّق صورته، وربما يبحث غداً عن صورة محمود الخواج، سائق "أبو أياد" ليلصقها إلى جانبها أيضاً ليصبح زجاج السيارة الخلفي لوحة تخلد إنجازاته في خدمة إسرائيل، إلى جانب خدماته الأخرى. فنتيجة خدماته الجليلة كانت مجموعة ضخمة من الصور الفوتوغرافية لجميع مباني مناطق المدينة الرياضية والجامعة العربية والطريق الجديدة والفاكهاني وصبرا وقصص والبربير والمزرعة، قد أصبحت بتصرف المخبرات الإسرائيلية. هذه الصور التي فاق عددها العشرة آلاف، كانت محفوظة ومؤرشفة لدى جهاز أمن إيلي حبيقة في الأشرفية ومبوبة بتسلسل مفهرس لتسهيل البحث عن المطلوب منها عبر أرقام وحروف أبجدية متقاطعة ومسجلة خلف كل صورة منها. هذه الرموز كانت متطابقة مع خارطة جدارية كبيرة مكونة من مئات الصور الجوية الملصقة جنباً إلى جنب، والتي تمّ تقسيمها إلى مربعات تمّ ترميزها أفقياً بالأرقام وبالحروف الأبجدية عمودياً. كانت عملية الاستفادة من هذا الأرشيف الضخم تتم عبر مقارنة العناوين التي يقدمها المخبرون

نتيجة استقصاءاتهم اليومية عن قادة المقاومة ومخازن الذخائر ومواقع المدفعية، بمجموعة الصور المحفوظة، حيث تتَمَّ مطابقتها على إحدائيات الخارطة الجوية الجدارية، وبناءً على هذه الإحدائيات كانت تنظَّم لائحة يومية بالأهداف التي ترسل إلى غرفة العمليات الإسرائيلية لتوجيه طلعات الطيران الإسرائيلي في اليوم التالي.

58

جلست عائلة شومان حول طاولة الغداء المستديرة مع ضيفها راشد وهبه.

نظر بروفيسور شومان إلى صحن راشد الفارغ وقال: حسناً فعلت أن جلبت معك طعامك، ذلك أنني كنت في شك إذا كنت ستُعجب بطعامنا أم لا؟

- إنسي أحاول معرفة نوعية الطعام الأسود هذا، إذ إنني لم أشاهد شيئاً كهذا من قبل!

- إنها مقلوبة الباذنجان. تدخّلت جولي شومان.

- لهذا السبب لم أعرف الطبق، هل تصدّقون أن الباذنجان لم يدخل يوماً إلى بيتنا، ذلك أن والدتي لا تحبه، وهي تقول إن جدتي كذلك لم تكن تحبه، وبالتالي لم يدخل منزلها أيضاً.

- إذاً أعتقد أنك لن تحب طبقنا المفضل كذلك. عقّبت جولي.

- الموضوع أنني لا أعرف كيف هو طعم الباذنجان، إذ إنني لم أتذوّقه في حياتي، لذلك أرجو أن تضعي لي ملعقة واحدة منه فقط في صحنِي للتجربة.

- فإذاً سأسكب ملعقة واحدة سوداء في صحنك، وسأسكب لنفسي طبقاً أبيضاً من طبخ والدتك. علّقت جولي.

- هل تعلم يا راشد. تدخل بروفيسور شومان: كنت في الماضي مثلك لا أحب الباذنجان لأنني لم أذقه في حياتي، وكذلك أمي وجدتي لم تكونا تحبانه، ربما لأنه أسود اللون.
- هل تعتقد بروفيسور أن كون الباذنجان أسود اللون قد جعل والدتي ووالدتك وجدتي وجدتك لا تدخلنه إلى بيوتهن؟
- هذا ما يقوله صديقي الأخ جمال جونسون.
- الأخ... جمال جونسون؟
- نعم، فهو أحد أصدقائي الأميركيين وهو الذي عرفني على الباذنجان، ولذلك قصة.
- لقد شوقتني بروفيسور.
- عندما كنت أدرس في الولايات المتحدة، ذهبت في عطلة الميلاد لزيارة أحد الأصدقاء في مدينة أتلانتا. وهناك دعاني صديقي زهدي للعشاء في مطعم اسمه مصنع الباذنجان The Aubergine Factory. أما اسم المطعم فيوحي بقائمة أطباقه: الباذنجان المحشي باللحم، والباذنجان بالطماطم، وبيتزا الباذنجان، ومقلوبة الباذنجان، والتشيكين كباب بالباذنجان، إضافة إلى التحليات مثل الباذنجان المجفف بالسكر، وتحلية الباذنجانية، وتارت الباذنجان.
- رفع راشد يده في الهواء مستغرباً: غير معقول! ما هذا الجنون؟ وهل يرتاد هذا المطعم ما يكفي من الزبائن ليبقى عاملاً؟
- قد لا تصدق يا راشد، إذ عليك أن تحجز مسبقاً لدى الأخ جمال جونسون.
- حقاً، وما هي قصة الأخ جمال جونسون هذا.
- الأخ جمال كان أحد أنصار مالكولم إكس، ثم اعتنق الإسلام، وهو صاحب فلسفة تقول إن العرق الأبيض مصاب بمرض الفوقية على العرق الأسود، لا بل على كل شيء لونه أسود بما فيه الباذنجان. لذلك أسس مطعمه ودعمه بحملة إعلانية وإعلامية كان شعارها "الباذنجان:

الخضار المظلومة" فأصبح المطعم بين ليلة وضحاها مقصد المثقفين واليساريين والسود الأميركيين وفتح فرعين في نيويورك وممفيس. وضع راشد ملعقته جانباً وهو يتذوق مقلوبة الباذنجان: حقاً إنه لذيذ، له طعم غريب، هلاً سكنتي لي المزيد رجاءً. ضحك الأولاد وابتسم البروفسور وكأنه كان على علم مسبق بهذه النتيجة وقال وهو يغمز راشد: أهلاً بك إلى نادي الباذنجان الدولي.

59

فجأة توقف القصف. غاب الطيران. انكفأت البوارج البحرية. واستراحت مدافع الميدان والدبابات. كانت فرصة ذهبية انتهزها أهل بيروت وسكانها للنزوح على خطين منها وإليها، فالكثير من سكان غرب بيروت الذين ذاقوا ويلات القصف الإسرائيلي إلى جانب هموم انقطاع الكهرباء والماء، حشروا عائلاتهم وما ارتفع ثمنه وخف وزنه داخل سياراتهم واتجهوا شرقاً، متحملين غطسة الإسرائيليين ونزق القوات اللبنانية على الحواجز. من جهة أخرى استغل من تبقى من سكان الضاحية الجنوبية والمخيمات الفلسطينية هذه الفرصة للجوء إلى المنطقة الغربية سعياً إلى الأمان، محتلين دور السينما والمدارس والمباني الحكومية والمصارف وحتى منازل بعض المسيحيين المشكوك بانتمائهم أو بتعاطفهم مع الكتائب، وساعدهم على ذلك مسلحون فلسطينيون وعناصر من حركة أمل والمرابطون.

هذه الهدنة تمّ الإعداد لها عبر اتصالات أميركية - إسرائيلية على أعلى المستويات، بغية إصابة عصفورين بحجر واحد. العصفور الأول تسهيل اجتماع هيئة الإنقاذ الوطني في قصر بعيدا، بحيث جلس إلى طاولة الرئيس سر كيس كل من رئيس الوزراء شفيق الوزان وفؤاد

بطرس ونصري المعلوف ونبيه بري وبشير الجميل ووليد جنبلاط، ممثلين جميع الأفرقاء المتقاتلين وتناقشوا على مدى عدة ساعات في محاولة لإيجاد معادلة مناسبة لخروج القوات الفلسطينية والسورية والإسرائيلية من لبنان، دون الوصول إلى نتيجة. أما العصفور الثاني، فهو تسهيل دخول جوني عبده، مدير شعبة المخابرات في الجيش اللبناني، إلى بيروت الغربية للاجتماع بياسر عرفات، موفداً من قبل رئيس الجمهورية في محاولة لمعرفة توجهاته وتبليغه موقف القيادة اللبنانية.

ترجّل جوني عبده من سيارة المرسيديس التي توقفت قرب محور العجة، وصعد إلى سيارة الجيب التي كانت بانتظاره هناك. نزع نظارته السوداء وألقى التحية على اللواء "أبو الوليد" الذي أمر السائق أن ينطلق نحو العنوان المتفق عليه. توقفت السيارة أمام منزل في منطقة وطى المصيطبة، انتشرت حوله ثلاث سيارات انحشر فيها مقاتلون مدججون بمختلف أنواع الأسلحة. ارتقى "أبو الوليد" وجوني عبده السلم الحجري مع المرافقين إلى الطابق الثالث حيث منزل شفيق الحوت، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، حيث كان "أبو عمار" في الانتظار.

بعد التحية بين الصديقين اللدودين دخل جوني عبده مباشرة في صلب الموضوع.

- الشرط الإسرائيلي الوحيد لوقف القتال هو خروج المنظمات الفلسطينية من لبنان قادة ورجالاً وسلاحاً.

- إلى أين يريدوننا أن نرحل؟ سأله "أبو عمار" بانفعال: إلى مصر نلتعرف بكامب ديفيد، أو إلى سوريا لنبقى أسرى المخيمات، أم إلى الأردن لمواجهة جديدة مع جيشه؟

- هم يقولون المهم أن تخرجوا من لبنان، إلى أين لا يهمهم. علّق

عبده.

- ما رأيك يا "أبو الوليد"؟ سأل "أبو عمار".
 - إن موضوع الرحيل عن بيروت غير وارد. قالها "أبو الوليد" بغضب وعيناه تحنقان شذراً بعيني جوني عبده. هل قاتلنا وصمدنا واستشهدنا لنسحب بأمر إسرائيلي؟ أين كرامتنا وكرامة رجالنا وكرامة الثورة؟

هنا تدخل "أبو عمار": هل تريدوننا أن نخذل شعبنا كما خذله بعض إخواننا في جبهة الصمود والتصدي وفي الحركة الوطنية اللبنانية؟ لا، لن يدخل الإسرائيليون إلّا إلى غابة من جثث الشهداء وبحر من دمائنا.

كان رأس جوني عبده مطرفاً إلى الأرض يستمع، فرفع رأسه وقال: أنتم أحرار في قراركم، ولكن كان عليّ أن أبلغكم بالموقف الإسرائيلي...

قاطعته "أبو عمار": طيب، ولكن ما هو رأي الرئيس سرركيس؟
 - إن موقف الرئاسة واضح، نحن معكم في أي قرار تتخذونه، إذا كان هو البقاء في بيروت أو الرحيل عنها.
 نهض "أبو عمار" فجأة وكأنه ينهي الحديث: بلغ الإسرائيليين إن القطة عندما تُحاصر تتحول إلى نمر شرس، ونحن باقون هنا، إما ننتصر أو نستشهد بشرف، كما أرجو أن تشكر فخامة الرئيس على موقفه وتبلغه تحياتي.

60

انطلق بروفيسور شومان بسيارته يرافقه راشد نحو مكتب الـ 17 في مخيم مار الياس للاجئين. كان البروفيسور يعرف أنه يدخل إحدى المناطق الأكثر خطراً وعرضة للقصف، ولكنه كبت أفكاره لنفسه، ولم

يُخطر راشد بهواجسه خوفاً من تراجعها عن هذه المهمة. في الوقت نفسه كانت تراود راشد الأفكار نفسها، ولكنه لم يفصح عنها للبروفسور كي لا يشتت تركيزه عن قيادة السيارة، خاصة وأن الطيران الحربي الإسرائيلي كان يحوم في الأجواء. عبرت سيارة الرينو 6 قرب مدرسة الشهيد غسان كنفاني الابتدائية، وانحرفت يساراً إلى مبنى متواضع مكون من طبقتين رُفِعَ عليه علم فلسطين وأحاطت به الدشم.

منعهم الحرس من ركن السيارة قرب المبنى حرصاً من أن تكون مفخخة، فأوقف البروفسور سيارته القديمة على مضض بعيداً قرب قطعة أرض بور نصب فيها مدفع مضاد للطائرات ثنائي الفوهات تم تويبه بأغصان الأشجار، واتجه برفقة راشد نحو مكتب الـ 17.

استقبلهما النقيب "أبو عوض" بحرارة بعد إعلامه باسم البروفسور، الذي سلّمه بدوره لإصال تسليم الصاروخ.

- تفضّلاً بالجلوس بينما يتم الاتصال بالأخ "أبو عبيدة" ليسلمكما الأمانة.

- شكراً حضرة النقيب. أجابه راشد.

- نحن هنا لا نتعامل بالألقاب يا أخ راشد، فكلنا إخوة في السلاح، حتى الأخ القائد العام؛ نناديه بالأخ "أبو عمار".

تناول البروفسور طرف الحديث مستطرداً: نفس الكلام هذا وجّهه إليّ "الختيار" شخصياً عندما تعرّفت إليه في الأغوار منذ حوالي الـ 15 سنة. فعندما تلعثمت محاولاً شكره لأنه خصّني ببطانية إضافية قال: "هنا كلنا إخوة متساوون، أما أهم شخص بيننا فهو الأكثر تضحية لفلسطين، وهو صاحب شرف نيل أرفع وسام فيها ألا وهو لقب شهيد فلسطين".

- إن الختيار هو مثلنا الأعلى... وهنا استدرك النقيب "أبو عوض" المعلومة التي سمعها من البروفسور: ولكن هل أنت في التنظيم؟

- كنت في الماضي، ولكني تفرغت للتعليم.
- ولكن الثورة اليوم بحاجة لجميع أبنائها. أجاهه النقيب.
- أعرف ذلك، ولهذا تراني هنا أحاول أن أقدم ما أستطيع من مساعدة.

رفع النقيب رأسه وأجال بنظرة بين البروفسور وراشد وكأنه يحاول أن يبلغهما سرّاً خطيراً.

- إن الثورة بحاجة إلى مساعدة ودعم جميع مناصريها أمام هذه الهجمة الإسرائيلية الشرسة. قالها بصوت منخفض، واستطرد قائلاً بصوت أكثر ارتفاعاً: الوضع خطير، يجب أن نتذكر أن لدى الإسرائيليين أقوى جيش في المنطقة، وهو مجهز بأفضل الأسلحة الحديثة، وقد دفع بقوات ضخمة تؤمن له سرعة الحركة والقدرة على احتلال مناطق واسعة والاستمرار في التقدم بدون أي انخفاض بزخم وفعالية هذه القوات، كل هذا تحت مظلة جوية مكونة من أحدث الطائرات الحربية المجهزة بأرقى أنظمة الرصد والمتابعة والقصف.

هنا تدخل البروفسور: ولا تنسَ أن الإدارة الأميركية قد فتحت أمامها أبواب ترساناتها لتزودها بما شاءت من الصواريخ الذكية والقنابل الفتاكة.

استلم النقيب خيط الحديث مجدداً: ولكن السرّ يكمن في مقدرتنا على الصمود. فالرأي العام العالمي وفي طبيعته الاتحاد السوفياتي بدأ بالتحرك، مما سيؤثر على الدعم الأميركي لإسرائيل. وقد سمعت اليوم من إذاعة لندن بأن الرئيس الأميركي ريغان مستاء من وزير خارجيته الجنرال هيغ، الذي أفاده بعد اجتماعه مع بيغن، بأن العملية العسكرية ضد المخربين لن تستغرق أكثر من خمسة أيام، وها هو أسبوعها الثالث يطل علينا بدون أن تصل إسرائيل إلى أهدافها، وأن الرئيس الأميركي عازم على التدخل في هذا الموضوع للمحافظة على سمعة الولايات المتحدة...

قاطعته البروفسور قائلاً: وهل تصدق هذه التفاهات؟ إن سياسة الولايات المتحدة لا يمكن أن تكون في يوم من الأيام معادية لإسرائيل، لقد عشت هناك ولمست كيف تسير الأمور عندهم.

- أعرف أنه لا يمكن أن نراهن على هذا، ولكن ما أحاول قوله، أنه كلما طال أمد هذه الحرب، كلما كان حظنا في عدم الخسارة أكبر، فليس بعار علينا أن نتّمكّن القوات الإسرائيلية من التقدم والوصول إلى ما وصلت إليه، ولكن العار كل العار أن نتقدم بدون أن تواجهها مقاومة مستميتة تكبدها أكثر ما يمكن من الخسائر، مما سيساعد في تأليب الرأي العام الإسرائيلي والعالمي على الحكومة الإسرائيلية.

في هذه الأثناء دخل مقاتل على عجل وهو يتصبّب عرقاً ووجهه كلامه إلى النقيب "أبو عوض" بينما كانت عيناه تجولان بين البروفسور وراشد: هل هما أصحاب الأمانة؟

- نعم بالضبط، وهذا هو الإيصال الرسمي. أجابه النقيب "أبو عوض" وهو يشير إليه معرّفاً ومخاطباً البروفسور وراشد: وهذا هو الأخ الملازم "أبو عبدة" الذي سيسلمكما الأمانة.

61

قفز "أبو جمال" من فراشه مذعوراً يئنّ متلمساً ذقنه التي بلّها العرق. فرك عيناه ونظر نحو "أم جمال" فألفاها غارقة في سبات عميق. إستغفرَ ربه من الكابوس اللئيم الذي أيقظه، للمرة الثالثة خلال أسبوع واحد حيث كان جنديان إسرائيليّان يمسكان بيديه وكتفيه من الخلف، وكان ثالث يحاول حلق ذقنه بحربة بندقيته والدماء تنزف منها.

قبل خلوده إلى الفراش كان "أبو جمال" يجالس الشباب على الرصيف في مقهى "أبو عفيف" وهم يعرضون همومهم منزعجين من

الأحوال المعيشية: الكهرباء والماء وعدم توفر المواد الغذائية والطبية التي أضافت هموماً إضافية فوق هم القصف الإسرائيلي.

- ولكن يجب أن نفعل شيئاً بدل التذمر ولوم الآخرين. تدخل "رويتز".

- وماذا نستطيع أن نفعل. علق "أبو عفيف" متأففاً.

- إذا أردنا أن نبقى صامدين في بيروت يجب أن نفعل شيئاً لنحسّن أوضاعنا المعيشية، وإلاّ فلنترك بيوتنا كما فعل غيرنا. ردّ "رويتز".

هنا احتدّ معلم موسى قائلاً: يا أخي الصمود له مقومات أساسية، وهي بالذات التي نفتقدها في حياتنا اليومية!

تدخلّ عباس الزين بهدوء قائلاً: لحظة، دعونا نتكلم بالأشياء الملموسة، هل لديك أي أفكار يا "رويتز"؟

- بالطبع، كبدائية... هل أنتم مسرورون بجبل النفايات والقاذورات هذا؟ سأل "رويتز" مشيراً إلى موقع براميل القمامة التي فاضت قاذوراتها فارتفعت مشكلة جبالاً صغيراً تفوح منه روائح مقرزة وتحول إلى مسكن مثالي للجرذان والذباب والبعوض.

هزّ عباس رأسه: بالتأكيد لا، ولكنك تعرض المشكلة التي نعاني منها كلنا، بينما نحن نبحث عن الحلول!

- عظيم، هناك حلان لا ثالث لهما، إمّا نحرق هذه القمامة في مكانها، أو نقلها إلى مكان آخر، ما رأيكم؟

- من الواضح أن لا مجال لنقلها من مكانها لصعوبة إيجاد شاحنة مناسبة... والأهم صعوبة إيجاد البنزين لتشغيل الشاحنة. علق عباس.

- فإذاً نحرقها في مكانها! ما رأيكم؟ سأل "رويتز".

- أنا لا أمانع، ولكن أئن يعترض الجيران في الأبنية المجاورة من الدخان وروائح الحريق التي ستصدر؟ سأل "أبو جمال".

- وهل هم راضون بهذه الروائح النتنة الصادرة الآن؟ تساعل عباس.
- أفضل شيء أن يمرّ "أبو جمال" صباح الغد على الجيران ويطلب منهم إغلاق نوافذهم لمدة ساعة تقريباً بينما ننتهي من إحراق النفايات. قال "رويتز".
- علّق "أبو عفيف" قائلاً: أعتقد أن هذا أفضل تدبير.
- وبعد الانتهاء من حرقها يجب أن ننقل موقع النفايات إلى مكان آخر. أضاف "أبو جمال".
- صحيح، فكرة ممتازة. قال "رويتز" وقد أشرق وجهه.
- أعتقد أن قطعة الأرض البور في آخر الشارع هي مكان مناسب لتجميع القمامة وحرقها عندما تدعو الحاجة. علّق "أبو عفيف".
- ولكن كيف سننقل القمامة من البيوت إلى الموقع الجديد؟ سأل "أبو جمال".
- نحن بحاجة إلى عربة يد لنقل القمامة أولاً بأول، كما أننا بحاجة إلى أشياء عديدة أخرى للحفاظ على صمودنا. استنتج عباس.
- ماذا تقصد يا "أبو عبد الله"؟ سأل "رويتز".
- أقصد أن مشكلة الماء والكهرباء أخطر من مشكلة القمامة التي وجدنا لها حلاً، وأنا لديّ أفكار لحل مشكلة الماء أيضاً.
- وما هي هذه الأفكار؟
- بالفعل لديّ أفكار... ما رأيكم لو أنشأنا صندوقاً مالياً للحّي لشراء عربة يد كبدائية، ثم لشراء مولّد كهربائي صغير لتشغيل موتورات آبار المياه في الحّي؟
- لبيت هذه الأمنية تتحقّق. تنهّد "أبو جمال": فلو توفّر الماء كل صباح لما كنت تركت شعر ذقني يطول ويتسبّب لي بالكوابيس كل ليلة.
- فكرة ممتازة، ولكن هذا التحرك بحاجة إلى تنسيق، فالمال الذي بيد الناس عزيز جداً هذه الأيام؛ ولن يتخلوا عن أي منه بدون التأكد من

- الفائدة التي سيجنونها لقاء ذلك، رغم أن تحركنا السابق ببناء متراس أكياس الرمل أمام الأبنية أثبت لهم مصداقيتنا بالعمل. علق "رويتز".
- فإذاً يجب أن نبدأ التحرك بالسؤال عن أسعار عربة اليد وموآد الكهرباء لمعرفة الميزانية المطلوبة لتحقيق المشروع، ثم نعرض الموضوع على سكان الحي.
- وهل تستطيع أنت القيام بهذا يا "أبو عبد الله" كونك موظف في البنك ومتابع للأسعار؟
- أنا جاهز للخدمة دائماً وسأبدأ بالتحرك من صباح الغد.

62

قاد راشد دراجته عبر كورنيش المزرعة على وقع أصوات انفجارات عميقة، رغم أن سماعة راديو الترانزستور التي وضعها في أذنه لم تقده بأية أخبار جديدة. فجأة أصبحت الانفجارات قريبة جداً وضجت السماء بأصوات الطائرات الحربية. قطعت الإذاعة أناشيدها الوطنية معلنةً أن منطقتي شاتيلا وبرج البراجنة تتعرضان لقصف مدفعي عنيف، ناصحة المواطنين الابتعاد عن الطرقات والنزول إلى الملاجئ.

دلف راشد يميناً باتجاه شارع فردان هرباً من الكورنيش المكشوف للطائرات والخالي من الأبنية السكنية، فطالعه أحد باعة الشموع والمصابيح الغازية يرمي محتويات بسطته في صندوق سيارته بطريقة هستيرية، بينما زميله بائع السجائر قد انتهى للتو من تفريغ بسطته في سيارته وهو يهم بالهروب. فجأة دوى من خلفه إطلاق رصاص غزير مصحوباً بجلبة وصوت منبه سيارة إسعاف، نظر خلفه فإذا بعربة جيب عسكرية تتجه نحوه بسرعة جنونية وتكاد تدهسه. قفز عن دراجته نحو

الرصيف وقد هوى الراديو النقال من أذنه وجيبه، بينما كان الفتى المنتصب وراء رشاش الدوشكا والممسك مقبض المدفع بيده اليسرى ومقوساً ظهره إلى الخلف على طريقة رعاة البقر وهو يشير بسبابته اليمنى إلى راشد مقهقهاً من منظره.

عادت الذاكرة براشد إلى سبع سنوات خلت عندما كان في عمر المراهقة عائداً مع والده من المدرسة خلال إحدى جولات عنف الحرب الأهلية اللبنانية المجنونة، حيث كانت عربية عسكرية مماثلة تابعة لإحدى التنظيمات المحلية تقطع الطريق الوحيد المؤدي إلى منزلها. عندها ضغط "أبو راشد" على منبه سيارته سائلاً السائق إفساح الطريق له ليمر. استشاط المسلح المنتصب وراء المدفع الرشاش غضباً، وجعل يكيل لهما السباب مضيفاً أن لولاه وجماعته لكانت المنطقة أصبحت كلها تحت الاحتلال، وأدار رشاشه نحوهما متهماً إياهما بالجبن والعمالة وهو يخرطشه استعداداً لإطلاق النار. ولولا تدخل أصحاب الدكاكين المجاورة مهدئين النفوس ومرطبين الأجواء لكانت النتيجة دموية. بعد إفساح الطريق لهما وأثناء صعودهما سلم المنزل كان "أبو راشد" يختم توصياته لابنه والتي بدأها لحظة انتهاء الإشكال قائلاً: "كل هؤلاء المسلحين الجهلة الذين تراهم حاملين أسلحة موجهة إلى داخل الوطن هم خونة، السلاح وجد ليوجه إلى العدو الخارجي، أما أبناء الوطن الواحد فالحوار والتفاهم هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى نتائج حقيقية بينهم... المهم الآن أن لا تخبر أمك بشيء مما حصل كي لا يصيبها انهيار عصبي جديد".

نهض راشد نافضاً الرمال والغبار عن ثيابه وماسحاً العرق عن وجهه، فوضع الراديو النقال في جيبه وركب دراجته وهو يلعن الجهلة. عبّر منعطف مدرسة الكرمل صعوداً ماراً بمبنى دار الهندسة وصولاً إلى مبنى الإنتاج الحيواني، حيث كانت جمهرة من النسوة تسد الطريق

بانظار حلول دورها لتقديم أوراقها الرسمية التي تؤهلها الحصول على المعونة المالية، رغم حرارة الشمس اللاهبة والطيران الإسرائيلي الذي يجوب الأجواء. تقدم إلى الأمام وهو يقرأ ملصقات أيوب على جدران الشارع داعيةً الشعب إلى الصمود والتصدي (صباح الخير يا بيروت، صباح الصمود، صباح الفقراء وراء الخبز) رغم تاريخ الشارع الأسود.

ففي هذا المبنى قتلت إسرائيل "أبو يوسف النجار" وكمال عدوان وفي المبنى المقابل اغتالت كمال ناصر وعند أسفل ذاك البناء فجرت "أبو حسن سلامة". تابع راشد قيادة دراجته نحو ساقية الجنزير ومنها بإتجاه شارع أستراليا حيث مبنى سكن البروفسور. ضغط على زر أنترفون شقة آل شومان فردّ عليه البروفسور قائلاً إنه سينزل لموافاته عند مدخل البناء.

كان التيار الكهربائي مقطوعاً في اليوم السابق عندما جلب راشد والبروفسور الصاروخ من مخيم مار الياس. لذلك قررا ركن السيارة في مرآب المبنى الأعلى كي لا يلاحظ أيٌّ من الجيران شيئاً في حال حملاه صعوداً على سلم البناء.

- أهلاً بروفسور، هل جلبت معك مفتاح شقة الطابق الرابع؟

- نعم، نعم، وكذلك مفتاح السيارة.

ركبا السيارة ونزلا إلى مرآب البناء السفلي الذي يتحوّل عادة إلى ملجأ خلال جولات القصف الشديد، ولكن لحسن حظهما كانت حدة القصف قد خفّت فخلا الملجأ من الناس. ركنا السيارة قرب المصعد، وضغط البروفسور على زر الصعود، بينما فتح راشد صندوق السيارة استعداداً لحمل الصاروخ. ما أن وصلت المركبة حتى فتح البروفسور الباب وأشار لراشد بالتقدم. حمل راشد حقيبة أدوات التزلج التي تحتوي الصاروخ وأسرع داخلاً المصعد. أغلق البروفسور الباب وضغط على زر الإيقاف Stop بإصبع وضغط على زر الطابق الرابع بإصبع آخر

بشكل متواصل ثم رفع إصبعه عن زر الإيقاف، فانطلق المصعد بدون توقف إلى الطابق الرابع. فتح البروفسور الباب بينما أمسكه راشد ليفتح البروفسور باب الشقة ويدخلها راشد مسرعاً حاملاً حقيبته.

- إن أفضل مكان لوضع الصاروخ والعمل عليه هو هناك على طاولة غرفة الطعام.

- أعتقد أنك على حق، المهم أن يكون مفتاح الغرفة موجوداً في الباب.

وضع راشد الحقيبة على الطاولة، بينما تأكد البروفسور من وجود المفتاح في الباب، وطفق يسدل الستائر على النوافذ كي يمنع العيون الفضولية من تبيّن ما يدور في الغرفة، ثم تعاونوا على سحب الصاروخ من الحقيبة ووضعاه بهدوء على الطاولة.

تلمّسه راشد قائلاً: كم هو جميل، أرجو أن نتمكّن من تحويله إلى رسالة موجعة لإسرائيل.

غمزه البروفسور قائلاً: المهم أن نقوم بواجبنا تجاه وطننا ويكون ضميرنا مرتاحاً.

- أعتقد أنه يكفيننا ما فعلنا اليوم كي لا نلفت أنظار أحد إلينا، ولنبدأ بالعمل الجاد ابتداءً من صباح الغد.

63

اليوم ولأول مرة منذ بداية الاجتياح تطلب إسرائيل من فيليب حبيب وفقاً لإطلاق النار.

فبعد اجتماع على مستوى قيادة القوات المشتركة تم التوصل إلى قرار يقضي بتلقي الجيش الإسرائيلي درساً لتفهم قيادته بأن الروح القتالية لدى القوات المشتركة لا زالت متقدة وأن ترسانتها العسكرية لا

تشكو من نقص في الموارد والإمكانيات. وبناءً عليه قامت القوات المشتركة بتنفيذ قصف مكثف على جميع الجبهات وبمختلف أنواع الأسلحة. ورغم أن عملية القصف كانت مبادرة تكتيكية، فقد قدّمت مردوداً استراتيجياً مهماً بسبب الخسائر البشرية الإسرائيلية العديدة التي وقعت، مما جعل قيادتها تسرع بطلب هدنة، مما انعكس إيجاباً على نفسية ومعنويات مقاتلي المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية، خاصة وأن الجيش الإسرائيلي الجرّار المزوّد بأحدث الأسلحة وأكثرها فتكاً هو الذي طلب وقفاً للنار من القوات التي يحاصرها من جميع الجهات.

أما على جبهة الصمود الاجتماعي، ففي شارع فرعي من منطقة المصيطبة، كان "أبو جمال" يرش جبل النفايات بمادة الكاز ثم يشعل النار فيها. بينما جلست مدام ناديا على كرسي في مطعم "أبو عفيف" ترسم المشهد الذي حملها على النزول من بيتها.

حيّاهما "أبو عبد الله" وجلس على الكرسي المقابل وإلى جانبه جلس "رويتزر".

- لقد جلبتُ ثلاثة عروض لمولّدات كهربائية من ثلاثة مصادر. أضاف "أبو عبد الله" وهو يفتح الظرف الأسمر في يده.

- وهل الأسعار معقولة؟ تساءل "رويتزر".

- المولّد الأول طاقته ثلاثة آلاف شمعة بسبعة آلاف ليرة، والثاني طاقته خمسة آلاف شمعة بعشرة آلاف ليرة، والثالث طاقته ستة آلاف شمعة بثلاثة عشر ألف ليرة، وكلها يابانية المنشأ ومكفولة لمدة سنة.

- أعتقد أن المولّد الذي بقوة خمسة آلاف شمعة هو الأنسب.

- ولكن من أين لنا أن نؤمن عشرة آلاف ليرة بينما معظم سكان

الحي لا يعملون؟

- لضمان نجاح هذه العملية علينا إحصاء سكان الأبنية التي ستستفيد من المولد الكهربائي لنعرف مقدار مساهمة كل عائلة في هذا المشروع.

- لقد دفعت ثمن عربة اليد من مالي الشخصي على أن يتم تعويضي لاحقاً.

- لا تقلق يا شيخ، كل شيء سينتهي بخير.

- عفواً يا جبران. تدخلت مدام ناديا التي كانت تستمع للحوار: أنا جاهزة للمساعدة لتحقيق هذا المشروع الذي سيستفيد منه جميع أبناء الحي.

- بالفعل، يمكنك المساعدة عبر تعريف سكان الحي بهذا المشروع وإقناعهم بفائدته عليهم كي يساهموا بنصيبهم.

- أنا مستعدة عندما تطلبون أي شيء.

- فإذا لنبدأ بتحضير قائمة بأسماء السكان الذين يمكن أن يستفيدوا من مولد الكهرباء.

كانت الحصيلة مشجعة، فعلى مدى أربعة أيام وبعد أن زارت مدام ناديا يرافقها "أبو جمال" جميع الشقق المسكونة في أبنية الحي، حصلت على وعود من معظم الذين قابلتهم بالاشتراك بالمبادرة، حتى أن البعض عرض الدفع مسبقاً، ولكن مدام ناديا أخبرتهم أنها لازالت في مرحلة الإحصاء لتحديد نسبة مساهمة كل منزل في المولد وتوابعه. بعد إحصاء عدد المستعدين للمساهمة، تبين أنهم يبلغون 123 عائلة في واحد وعشرين بناءً، على أن تصل الكهرباء إلى آبار منازلهم يومياً بالتناوب وفي أوقات محدّدة. وبعد حساب ثمن المولد والكابلات الكهربائية ولوازم التمديدات وأجور العمل وثمان الوقود وعربة اليد تبين أن المساهمة الأساسية لكل منزل يجب أن تكون 86 ليرة لبنانية، على أن يتم حساب المساهمة الشهرية بعد مرور الشهر الأول.

64

تتميز الصواريخ المضادة للطائرات التي تُطلق عن الكتف بحركيتها وعدم حاجتها إلى منظومة رادار خاصة لتوجيهها. كذلك فإن صغر حجم هذه الصواريخ وخفة وزنها تجعلها أسلحة مناسبة للحروب الشعبية التي تعتمد على قاعدة أُضرب واهرب. من هذه الناحية كان اختيار بروفوسور شومان صائباً في انتقائه لصاروخ سام 7، ولكن من جهة أخرى كان أمامه عمل دقيق لتحويل آلية تقصي الطائرات المستهدفة في الصاروخ، من الأشعة تحت الحمراء إلى فوق البنفسجية لضمان إصابة أهدافه.

دخل راشد الشقة في الطابق الرابع فأغلق بروفوسور شومان الباب وراءهما وغمز راشد قائلاً:

- لقد دقت ساعة العمل الثوري.

- أنا جاهز للعمل.

- للحقيقة إنني لست جاهزاً كفاية، ذلك أن عيني لم تعرفا طعم النوم ليل أمس وأنا أفكر بآلية تحويل نظام تقصي الطائرات المستهدفة. ولقد وصلت أخيراً إلى قرار منطقي يؤكد النتائج لتقصي الهدف وإصابته. لذلك، فإن آلية التنفيذ ستتم عبر المحافظة على نظام تقصي الأشعة تحت الحمراء الموجود أصلاً في الصاروخ، بشكل يقوم فيه هذا النظام بتوجيه الصاروخ بداية نحو الهدف والذي قد يكون بالوناً حرارياً تطلقه إحدى الطائرات، لكن وقبل الوصول إليه بثوانٍ محددة، سأقوم بحسابها لاحقاً، سأجعل آلية نظام تقصي الأشعة فوق البنفسجية تبدأ بالعمل بينما تتوقف آلية تقصي الأشعة تحت الحمراء لإعادة توجيه الصاروخ نحو مصدر الأشعة فوق البنفسجية التي ستكون بدن الطائرة و/أو محركاتها النفاثة. إن هذا التدبير كفيل بوصول الصاروخ إلى محيط الطائرة الهدف عبر انجذابه إلى بالوناتها الحرارية في البداية، ثم

الانحراف نحو جسم الطائرة عند ابتداء نظام تقصي الأشعة فوق البنفسجية بالعمل وتوقف نظام تقصي الأشعة تحت الحمراء.

- إنها فكرة جهنمية... لا بل عبقرية. استدرك راشد.
غمزه البروفسور قائلاً:

- سمّها ما شئت، ولكن أرجو من الله أن تتجح خطتي هذه. أما الآن فعلينا تحضير قائمة بالأدوات واللوازم الضرورية للتنفيذ.

فتح البروفسور كراساً يضم خرائط ورسوماً تخطيطية تبين طريقة عمل الصاروخ وأجزائه وقطع غياره وملحقاته، وتوقف عند رسم تخطيطي لتمديداته الكهربائية:

- نحتاج إلى أسلاك كهرباء جيدة العزل كي لا تتأثر إلكترونيات الصاروخ بذبذبات التيار الذي سيسري فيها، كذلك نحن بحاجة إلى جهاز توقيت مزدوج لتشغيل نظام الأشعة فوق البنفسجية بعد وقت محدد من انطلاق الصاروخ وإيقاف نظام تقصي الأشعة تحت الحمراء، وأنا أعرف من أين آتي بهذه اللوازم، كل ما أريده منك هو جلب العدة الكهربائية والميكانيكية كلها في حال احتجنا لها.

- لا شك أن صندوق عدتي سيعجبك كثيراً.

65

ليل أمس أعلنت المدافع الإسرائيلية حلول شهر رمضان. أما سكان بيروت فقد استقبلوا الشهر الكريم بكآبة كبيرة لم يعهدها من قبل، فمدينتهم التي أصبحت تشبه مزيجاً من مدن الأشباح ومكبات النفايات وميادين المعارك، ما زالت صامدة تعضّ على الجراح ولا تستسلم. ولكن، ومنذ المساء وبعد غارات وهمية عديدة، ورمي منشورات تهديدية جديدة فوق العاصمة سرت في المدينة شائعة بأن العدو يستعد

لجولة جديدة من القصف والاقحامات، والتي شكّلت الأساس لعزم الكثير من أهل الجنوب والبقاع الذين لجأوا إلى العاصمة، للعودة إلى قراهم لقضاء شهر رمضان في بلداتهم خاصة وأن المعارك في الجنوب قد انتهت باحتلال الجيش الإسرائيلي لجميع مدنه ومناطقه. هذا الجو انعكس سلباً على علاقة علي حرب مع أفراد عائلته في حديقة الصنائع، والذين طلبوا منه تحضير حوائجه والاستعداد للمغادرة معهم إلى قريتهم في منطقة بعلبك البقاعية في الصباح. استنكر علي نيّة عائلته الهروب وترك بيروت التي حضنتهم في السلم وأصرّ على البقاء ولو وحيداً في بيروت، فخرج من الحديقة مسرعاً يسب ويلعن الإسرائيليين والجنباء.

أما في هذا الصباح المشرق فقد جلس أفراد عائلة مصباح الخشن في صندوق شاحنته الصغيرة التي يجمع فيها عادة بقايا الزجاج والحديد والمعادن الأخرى من الطرقات، بينما جلست إلى جانبه زوجته تحمل طفلتها التي ولدت بالأمس وأطلقت عليها اسم هاجر بسبب تهجرها عن منزلها. وفي سيارة الأجرة أمامهما جلست عائلة "أبو علي حرب" بدون بكرها علي وقد حُشر أفرادها مع مقتنياتهم في طريقهم نحو قريتهم في منطقة بعلبك. تكوّن الموكب المنطلق من أمام حديقة الصنائع من ثلاث سيارات وشاحنتين صغيرتين تضم حوالى ثلاثين شخصاً عائدين إلى قراهم، لينضموا بالتالي إلى أكثر من خمسين ألف مواطن جنوبي وبقاعي قرروا العودة إلى ديارهم، لأن - من يترك دياره يقل مقداره - حسب تعبيرهم.

مع استمرار الحصار على العاصمة، تحوّل نسيج سكانها البيروتيين إلى مزيج من الفقراء المعتمدين الذين لا يملكون المال الكافي للهرب منها، ومن الأثرياء الخائفين على مصالحهم وعقاراتهم من الاحتلال أو الاحتراق. أما الأغلبية الكبرى فتكونت من فئة مدنية رفضت أن تتهجر عن مدينتها بسبب ضغط العدو عليها، وقررت البقاء فيها عبر استنباط وسائلها الخاصة للصمود، وهي التي شكّلت عامل

الصمود والتماسك الأساسي للجميع في المدينة الصامدة. هذه الشريحة شعرت للمرة الأولى بجورها وارتباطها بالأرض والوطن وبمدينتها بشكل خاص. من هنا نشأت لديها العصبية البيروتية، وخاصة عندما لمست أنها الوحيدة في لبنان التي تتلقى الضربات دون أن يلتفت إليها أحد من السلطة أو الشعب، رغم عطائها الدائم لهم، كونها الحاضنة للحركة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في الوطن.

نظر علي حرب إلى ساعته فلم يصدق عينيه، إنها العاشرة صباحاً، وهو الذي اعتاد النهوض عند السادسة صباحاً على جلبه الأطفال، وصياح النسوة وحركة السيارات في محيط الحديقة. فبعد أن تشاجر مع والديه مساءً توجه نحو بيت صديقه جمال الذي طيب خاطره ودعاه لتناول طعام العشاء والنوم عنده في ملجأ البناء الذي يعمل والده بواباً له. وضع يده على رأسه مستعيداً شريط الأحداث المسائية، ولكنه طفق يعيد استعراض المقطع الذي كان له التأثير الأكبر فيه، وذلك حين توجه إليه والده قائلاً: "أذهب إذا أردت، ولكنك ستعود إلينا مثل الكلب لطلب المال، وعندها لن تجدنا، وستلحق بنا إلى القرية مثل الكلب أيضاً".

استقام في جلسته ونظر حوله فلم يجد جمال، فلبس ثيابه وخرج إلى الشارع يبحث عنه.

- جمال، يجب أن أبحث عن عمل. بادره علي.
- صباح الخير، ما بالك مستنقراً منذ الصباح؟
- يجب أن أجد عملاً فأنا مفلس تماماً.
- لا بأس رغم صعوبة ذلك، ولكننا سنبحث عن عمل، ولدي بعض الأفكار، ولكن في الوقت الحالي أستطيع أن أفرضك بعض المال.

على مسافة عشر دقائق بالسيارة بعيداً عنهما، كان فوكس مسؤول التنصت على المخبرات في مقسم هاتف بدارو يلعن حظه بعد أن خسر ثمانمائة ليرة لبنانية على طاولة القمار ليلاً.

- لقد وعدني الإسرائيليون بمليون دولار إذا استطعت تقصي مكان وجود عرفات، ولكن هذا العكر... يشبه الزبيق، كلما حددت عنواناً وأسرعت الطائرات لقصفه، يكون قد غادره، ولكن إلى متى سيهرب مني، لا بد أني سأمسكه قريباً وأقبض المليون.

66

وكان قصاصات الترويع والتهديد التي رمتها الطائرات الحربية الإسرائيلية لم تكن كافية لإدخال الرعب في نفوس سكان العاصمة للهروب منها، فانبثرت الإذاعة الإسرائيلية في ترهيب الناس بأن نيران جهنم ستصبّ على رؤوسهم وليس لهم من سبيل للنجاة سوى بالنزوح عن بيروت. ولكن كما أن النفس البشرية السامية هي التي جعلت الكثيرين من سكان بيروت يتشبثون بترابها، فإن النفس البشرية المنحطة هي التي جعلت بعض أمري الحواجز الإسرائيلية المتقدمة، يقبلون الرشوة التي كان يقدمها لهم سائقو شاحنات الخضار والفاكهة والمؤن. وهكذا كان الضابط الإسرائيلي يقبض 160 دولار أميركي لقاء غض الطرف عن كل شاحنة تموين تدخل إلى بيروت، مما كان يساهم في صمود البيروتيين في شهر رمضان رغم الأسعار المرتفعة التي كان هذا التموين يباع بها. ارتفاع الأسعار هذا جعل بعض سكان رأس بيروت يزرعون الخضار في أراضيهم بينما لجأ بعضهم الآخر إلى اصطيد العصافير بالندق، أما أصحاب الأعصاب الفولاذية والذين كانت الطائرات الإسرائيلية لا ترهبهم، فقد اختاروا صيد الأسماك من بحر بيروت.

وقف بروفسور سامي شومان وإلى جانبه راشد وهبه من وراء نافذة الطابق الرابع، يراقبان صيادي الأسماك الذين اتخذوا من شاطئ

الروشة صفّاً تصدّ بقصبات الصيد وصمودٍ بصورهم في وجه البوارج الإسرائيلية المنتشرة في عرض البحر.

- إنهم أبطال هؤلاء الصيادون. علّق راشد على المنظر أمامهما.

- إنها الحاجةُ يا راشد في وجه الجوع الكافر والإسرائيليين الكفار.

- صحيح، إنها أرخص وسيلة لتحصيل القوت اليومي لعائلة بطريفة شريفة.

قبل هذا كان البروفسور وراشد يعملان على ضبط توصيل شبكة الصاروخ الكهربائية بشكل يعمل فيه منقصي الأشعة الأصيل في الصاروخ بموجب ساعة توقيت لفترة محددة لينتقل أمر التقصي بعد ذلك إلى جهاز PMT الذي يتولى توجيه الصاروخ مجدداً نحو الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الطائرة الحربية.

في هذه الأثناء كانت فرقة من لواء غولاني تتقدم من بلدة بعيدا باتجاه مدينة عاليه، وعند وصولها إلى منطقة الجمهور أمر قائدها مناحيم عيان من أحد جنوده الذين يتكلمون العربية، ترجمة جملة من اللغة العبرية إلى العربية وإذاعتها عبر مكبرات الصوت داغياً السوريين إلى الاستسلام. ولكن أحداً لم يستجب. ذلك أن القوات السورية، كانت قد بدأت بالانسحاب قبل ذلك، بعد أن قصف الطيران الإسرائيلي مواقعها بالصواريخ والقنابل الأميركية الصنع بغزارة، وهكذا سيطر الإسرائيليون على الطريق الدولية بين بلدة بعيدا ومدينة بحدون.

67

دخل علي حرب مع الأستاذ هاني صاحب المطبعة إلى مسيح السان جورج وقد أخرج طرف قميصه من تحت سرواله وأسدله فوق حزامه الجلدي بعد أن شكّ فيه فرشاة شعره لتظهر بشكل مسدس. عند

وصوله إلى غرفة حارس ميناء الزوارق واليخوت السياحية رفع صوته بلهجة جنوبية مبالغة قائلاً: وينك يا معلم سليمان؟

خرج معلم سليمان متعجباً من هذه الزيارة المفاجئة: نعم! أمر؟
- أنا من طرف المسؤول "أبو عبّيس"، وبيقلك فوللي هالسيارة
بنزين.

ألقي معلم سليمان نظرة سريعة على طرف قميص علي المنتفخ ورسّم على وجهه ابتسامة صفراء قائلاً: على رأسي "أبو عباس"، طلباته أوامر. وسار نحو البوابة الحديدية ليفتح الباب أمام السيارة لتدخل إلى حرم المرفأ السياحي الصغير ويملؤها من البنزين المخصص للزوارق البحرية.

ضحك جمال الشاعر وهو يستمع إلى صديقه علي حرب يروي له كيف استطاع كسب ودّ ربّ عمله الجديد عبر تأمين البنزين لسيارته، ليتمكّن من الصعود إلى الجبل وتفقد عائلته.

- وتقديراً لمساعدتي له سمح لي بالنوم في المطبعة.
- وما هو عملك في المطبعة؟ سأل جمال.
- إنني أعمل حالياً في قسم التصوير وأتعلّم الطباعة في الوقت نفسه.

- وكيف تعلّمت هذه المهنة؟
- هناك فتى ذكي يعمل هناك وقد تعلّمت منه المبادئ نظرياً وشرعت بتطبيقها عند المساء عندما يتم تزويدنا بالتيار الكهربائي وتكون المطبعة خالية من الزبائن والعمال.

- وما هو نوع المطبوعات التي تتفوّنها هذه الأيام؟
- إنها ملصقات لا تنتهي لصور الشهداء ونماذج إدارية للمستشفيات وبعض المطبوعات التجارية، تصوّر أن أحدهم جاءنا بالأمس يطلب منا تزييف جواز سفر، فرفضنا بالتأكيد.

في ضوء الشموع المتراقصة صعوداً ونزولاً بدت أحجار الشطرنج على غير حقيقتها مع تراقص الظلال عليها، حيث بدت البيضاء منها سوداء اللون في بعض الأحيان، في حين كان الشاه يتقزم حيناً وتشرئب البيادق أحياناً أخرى.

- كش ملك. قال جمال فجأة بنبرة مسرحية.

ضرب علي كفاً بكف قائلاً: لقد ألهيتني عن التركيز والتفكير فخسرت الجولة.

- هذه هي الحرب يا ابني، إنها خدعة ثم ضربة مفاجئة.

- قلت لك إني خسرت الجولة وليس الحرب، من المفترض أن نلعب ثلاث جولات لنعرف من المنتصر.

- ولكن الحرب يا ابني ليست مباراة شطرنج، ولا يتم خوضها على طريقة عليهم يا عرب!

- ما بال العرب؟ سأل راشد وهو يسحب كرسيًا ليشارك الشابين جلستهما المسائية في مقهى "أبو عفيف".

- إننا نلومهم كالعادة على جميع مأسينا ومشاكلنا. علق علي.

- هذا خطأ، يجب أن نتكل على أنفسنا بالدرجة الأولى، فنحن نعرف مصلحة شعبنا ووطننا أكثر من أي طرف آخر. وعندما نأخذ المبادرة ونتحمل مسؤولياتنا كشعب ومسؤولين، ونضع أيدينا بأيدي بعضنا البعض وليس بأيدي غريبة نستطيع رفع الوطن على أكتافنا، رغم كل الحترقات التي يبحث أصحابها عن مصالحهم الخاصة. أجابه راشد.

- لقد سئمنا النظريات، المهم الآن أن تنتهي هذه الحرب ونعيد بناء البلد. بادره علي.

- ونعود إلى جامعاتنا. كان من المفروض أن أخرج هذه السنة ولكني لا أدري ماذا سيحصل الآن.

- كان من المفروض أن أسافر للعمل في السعودية، ولكن مع بدء الاجتياح الإسرائيلي، قررتُ البقاء والدفاع عن البلد، ولكنني الآن لم أعد أفهم كيف تفكر القيادة!

- كان المفروض أن أتزوج في عيد الفطر ولكن... يا شباب إنه مفصل مهم في حياتنا جميعاً لا شك أنه سيؤثر على مستقبلنا جميعاً وخاصة علينا نحن كفلسطينيين. علّق جمال.

68

حرب خفيّة كانت قائمة في كواليس وزارة الخارجية الأميركية بين وزير الخارجية القائد الأعلى السابق لحلف شمال الأطلسي الجنرال ألكسندر هيغ، ومبعوث الرئيس الأميركي لحل أزمة لبنان فيليب حبيب، الدبلوماسي المخضرم في الوزارة واللبناني الجذور. فبعد معاناة المدنيين في بيروت الغربية من العنف المتماذي على يد سلاح الطيران والبحرية والمدفعية الإسرائيلية، قدّم فيليب حبيب للرئيس الأميركي اقتراحاً يوجّه بموجبه ريغان رسالة تحذيرية إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي يهدده فيها بعقوبات إذا استمر بسياسة الأرض المحروقة ضد بيروت الغربية. ولكن وزير الخارجية هيغ استطاع إقناع الرئيس بأن هذا التصرف سيضر بشعبيته داخل الولايات المتحدة، فتم تجاوز الموضوع. سياسة هيغ المنحازة هذه كانت وراء تلطيف وتزيين التقارير الخطيرة والعديدة التي كانت السفارة الأميركية في بيروت ترسلها إلى وزارة الخارجية والتي كانت تصف خطورة الأوضاع الأمنية والاجتماعية والاقتصادية هناك بكل تجرّد. حتى أن هيغ تدخل شخصياً مرة لإلغاء كلمة "مأساوية" من أحد التقارير التي أعدتها وزارة الخارجية للرئيس تصف فيها الأوضاع الحياتية في بيروت الغربية. ووقف شخصياً وراء تمنع

الولايات المتحدة عن الموافقة على اقتراح مجلس الأمن الدولي الداعي إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان، وذلك بعكس موقف الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر الذي أوقف اجتياح إسرائيل الأول للبنان في آذار/مارس 1978. هذه المواقف المذلة للسياسة الخارجية الأميركية لم يستطع فيليب حبيب تحملها، فقرّر الانتقام من هيغ على طريقته وعلى جبهتين.

بداية عبر الإسرائيليين، حيث أعدّ فيليب حبيب تقريراً خاصاً سرّبه بطريقة سرية إلى المكتب البيضاوي ليطلع عليه الرئيس شخصياً، وهو مبني على سجلات مخابرات وزارة الخارجية الأميركية السرية والتي تؤكد تورط إسرائيل في محاولة اغتيال جون غونتر دين سفير الولايات المتحدة في لبنان بين العامين 1979 و 1981، بسبب مواقفه المناهضة لسياستها وتقاريره غير المتوازنة برأيها والتي كان يرسلها إلى وزارة خارجيته. وإذ يُعتبر القيام بعملية قذرة تظهر وكأن مجموعة أخرى قد نفذتها هو إحدى اختصاصات الموساد الإسرائيلي المفضلة، فإنها مارست اختصاصها هذا مساء 27 آب/أغسطس 1980 أثناء انتقال السفير الأميركي لدى لبنان مع زوجته في ليموزين السفارة، حيث كمن لهما عملاء لبنانيون للموساد في بيروت وأمطروا السيارة بوابل من الرصاص أتبعوها بقذيفتين مضادتين للدروع. ولكن سيارته المدرعة لم تتأثر بأي منها، بل إن عجلات السيارة التي فرغ منها الهواء انتفخت بالهواء تلقائياً من جديد وتابع الموكب سيره تاركاً في مسرح الجريمة ظروفاً فارغة للرصاص والقذائف تحمل ختم "صنع في الولايات المتحدة الأميركية". هذه المعلومات كان لها وقع سيئ على رأي الرئيس ريغان بالإسرائيليين.

أما الجبهة الأخرى التي حركها فيليب حبيب ضد هيغ فكانت جبهة القوات اللبنانية. فحبيب كان معجباً ببشير الجميل الذي كان بدوره يناديه "عمو فيليب"، فقرّر أن يلعب ورقة بشير التي كان الإسرائيليون

يحاولون مصادرتها لصالحهم عبر إقناعه بالهجوم على بيروت الغربية، وذلك لإقناع الرأي العام الإسرائيلي والعالمي والرئيس ريغان بشكل خاص بأن اللبنانيين هم الذين يواجهون الفلسطينيين. ولكن فيليب حبيب استطاع إقناع بشير بالامتناع عن خوض هذه المغامرة التي تضر بشعبيته بين المسلمين اللبنانيين وفي العالم العربي، وذلك ليبقى الجيش الإسرائيلي منفرداً بمواجهة الفلسطينيين. من جهته أبلغ رئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن الجنرال هيغ في أواخر شهر حزيران/يونيو بأن القوات اللبنانية الكتائبية ستقوم بهجوم كاسح على بيروت الغربية عبر معبر المتحف لتحتلها، وأن القوات الإسرائيلية ليست في وارد احتلال بيروت الغربية. فما كان من هيغ وفي محاولة لتبويض صفقة إسرائيل لدى ريغان، إلا أن أبلغ الرئيس بأن اللبنانيين سيأخذون زمام المبادرة ويهاجمون الفلسطينيين دفاعاً عن بلادهم. ولكن بشير ومن ورائه القوات اللبنانية خذلوا شارون وبيغن وهيغ ولم يتحركوا لإرضاء غرورهم وأهدافهم السياسية الخاصة، فحنق الرئيس ريغان من جهل هيغ لحقيقة الأمور على الأرض أو تجاهلها، ووجّه تعليماته إلى لاري سيكس الناطق باسم البيت الأبيض لإصدار بيان صحفي يقول بأن رئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن أبلغ الرئيس ريغان بأن القوات الإسرائيلية لا تنوي احتلال بيروت الغربية. وقّع هذا البيان الصحفي على ألكسندر هيغ وقوع الصاعقة، ذلك أنه لم يكن على علم مسبق به واعتبره إهانة شخصية له وتشجيعاً للفلسطينيين ضد الإسرائيليين، فطلب موعداً من الرئيس ريغان ليوضّح الأمور له. ولكن الرئيس الذي ضاق ذرعاً بسياسة هيغ، وتحت ضغط كبير من وزير دفاعه كسبار واينبرغر ورئيس مجلس الأمن القومي وليم كلارك ومجلس الشيوخ وهمسات فيليب حبيب له، إضافة إلى خطيئة هيغ الكبرى غداة محاولة اغتيال ريغان في العام الماضي حين أعلن أنه الثاني في القيادة، جعلت الرئيس يستقبله بجفاء ليفاجئه قائلاً: "لقد سمعت أنك تودّ الاستقالة، وأنا مصمم

على قبول استقالته". وبعد عدة دقائق كان ريغان يعين جورج شولتز وزيراً جديداً لخارجية الولايات المتحدة.

خسرت إسرائيل سنداُ رئيسياً في إدارة ريغان كانت وظيفته الدائمة توجيه بوصلة السياسة الأميركية باتجاه مصلحة إسرائيل، ومع رحيله بدأت مرحلة جديدة في الحرب على لبنان.

المشهد الثاني

26 حزيران/يونيو - 14 أيلول/سبتمبر

يظهر أن استقالة هيغ أو إقالته فرضت واقعاً جديداً على الحكومة الإسرائيلية وعلى عملية سلامة الجليل بمجملها، مما أنتج هدنة غير معلنة. هذه الهدنة لم يخرقها سوى صوت طبلة المسحر فجراً، إلى جانب غارات وهمية ليلية ونهارية تظلها رمي المزيد من مناشير التهديد والوعيد الموجهة إلى سكان بيروت. لكن ثمن الصمود كان غالياً، فمقومات الصمود لم تكن متوفرة دائماً، فإذا تمّ ضخ الماء للمواطنين يتم قطع الكهرباء عنهم فلا تصل الماء إلى خزانات المياه على أسطح الأبنية، فيضطر الناس إلى تعبئة أوعية الماء من مداخل الأبنية ثم حملها على أكتافهم إلى شققهم. وكما حسدت البيروتيات أخواتهن الجنوبيات على مقدرتهن موازنة أوعية الماء على رؤوسهن والسير بها مسافات طويلة وصعود سلالم مرتفعة بدون هدر نقطة ماء واحدة. أما عند الانقطاع الكامل للماء فقد اهتدى البيروتيون إلى مصادر لا ينضب ماؤها كمباني السفارات السعودية والصينية والألمانية لماء الشرب وملعب الجامعة الأميركية الأخضر لمياه الاستعمال المنزلي. أما أفضل الأوقات لتفادي الزحمة والتدافع عند هذه المصادر فكانت خلال وصلات القصف المجنون حيث يلجأ الناس إلى الأماكن الآمنة فينفسح المجال للمجانين منهم تعبئة ما شاعوا من الماء بدون أي إزعاج من أحد، اللهم إلا إزعاج القذائف والصواريخ. ولكن مشكلة جديدة كانت تنشأ عقب ذلك، فكيف السبيل إلى نقل أوعية الماء الممتلئة من مكان إلى آخر دون التضحية بمحتواها الثمين...؟ إزاء ذلك، ابتدع بعض الصبية عربات خشبية ذات عجلات تدفع باليد لنقل المياه لقاء خمس ليرات لكل حمولة. ولكن مع عدم توفر الكهرباء، وبالتالي توقف المصاعد

الكهربائية عن العمل، فإن نقل أوعية الماء إلى الدور المرتفعة كان مهمة شاقة أخرى. وهنا تمّ ابتداء آلية البكرة والحبل التي تثبتت على الشرفة ليعلق بطرف الحبل خطاف معدني يشبك فيه دلو الماء أو الوعاء المناسب ويتم رفعه بإدارة مقبض البكرة يدوياً.

أمام هذا العناية الكبير في الحصول على المياه ونقلها، كان من الضروري ترشيد استهلاك الماء بحيث لا يضيع هباءً. وهكذا ابتدعت البيروتيات طريقة لغسل الأطباق بحيث يضعن بعض الماء والصابون في وعاء بلاستيكي للجلي ويضعن بعض الماء في وعاء آخر لشطف آثار الصابون عن الأطباق، وبعد عدة جولات من جلي الأطباق وبعد أن يتسخ الماء والصابون في الوعاء الأول، يتم استخدام مياهه لتنظيف الحمامات، بينما يضاف الصابون إلى الوعاء الثاني ليحل مكان الوعاء الأول الذي تمّ استخدام مياهه ليتم ملؤه مجدداً بالماء النظيف لشطف الأطباق. أما الاستحمام اليومي الشخصي فكان يتم عبر استخدام منشفتين أو لاهما مبللة بالماء والصابون والثانية بالماء فقط.

نظراً لهذه الأوضاع، فإن تشغيل مولّد الكهرباء لسحب الماء من الآبار الارتوازية شكّل بلسماً من المأساة اليومية التي كان يعيشها سكان بناية وهبه والشوارع المحيطة بها، لا بل تعداه إلى حدّ الإسراف. فحلق "أبو جمال" نقنه، وروت مدام ناديا أصص ماري التي كانت على وشك اليباس، أما "أبو عفيف" فنادى على رواد مقهاه أن يرفعوا أقدامهم عن الأرض ليغرقها بوابل من ثلاث دلاء ماء لتبريدها من حرّ شهر تموز/يوليو. وهناك وبعد الغروب جلس بعض سكان البناية على ضوء الشموع يدللون أنفسهم بعد خضوعهم لاستحمام من العيار الثقيل.

- إن هذه الهدنة تشغل بالي وهذا الهدوء الغريب يثير أعصابي، لا بد أنهم يحضرون لجولة عنف جديدة، والدليل على هذا المنشورات التهديدية التي أسقطتها الطائرات اليوم. قالت مدام ناديا.

- يبدو أننا لم نعد نعرف ماذا نريد، فإذا اشتعلت المعارك طلبنا الهدنة، وإذا حصلنا على الهدنة نطلب المعارك. تصدّى لها "رويتز".
- ليس هذا ما أقصده، أنا أخاف من الغدر الإسرائيلي، الذي يجعلك تتجول بأمان أثناء الهدنة، وفجأة وبدون سابق إنذار يمطرك بقذائفه وصواريخه.

- لقد تمسحت جلودنا ولم يعد يهمننا شيء، المهم أن نصمد، فكلمنا طال الحصار قرُب الفرج، فالإسرائيليون لن يصمدوا طويلاً أمام ضغط الرأي العام الإسرائيلي والعالمي، إنها لعبة عضّ على الأصابع، الخاسر هو الذي يصرخ من الألم أولاً، رغم أن الاثنين يتألمان.

70

يوم هدنة جديد يثير أعصاب الصامدين بسبب الغارات الوهمية العديدة التي تخرق جدار الصوت على ارتفاع منخفض محدثةً أصوات انفجارات رهيبة، إضافة إلى رمي المناشير التهديدية لسكان بيروت بمغادرتها، والتي كانت اليوم كوكبياً من الألوان الزهرية والصفراء والخضراء. البعض لم يعد يحتمل الضغوط النفسية هذه، إضافة إلى الضغوط المعيشية من شح للماء وتقنين للكهرباء وصمت الهاتف وانقطاع البنزين والمازوت وندرة المواد الغذائية والتموينية، فحشر في سيارته إلى جانب أفراد عائلته ما استطاع من متاع وحاجيات وموّن، وخرج من بيروت لاجئاً عند قريب أو صديق أو في شقة مفروشة إذا كان ميسوراً. ولكن قبل الخروج من معبر المتحف كان عليه أن يدفع ضريبة الذل للقوات اللبنانية، عبر التحقيق معه عن مكان سكنه ومهنته ولماذا لم يترك المنطقة قبل الآن، ثم إيقاف سيارته ومن فيها إلى جانب الطريق لعدة ساعات تحت الشمس المحرقة لتفتيش محتوياتها وللتأكد من أنه أو أياً من أفراد عائلته غير مطلوب من أجهزتها الأمنية.

بدوره حاول ياسر عرفات الاستفادة من هذه الهدنة، فاتصل ببشير الجميل من مكتب الزعيم البيروتي صائب سلام، عارضاً عليه الانسحاب من بيروت الغربية إلى مدينة طرابلس في شمال لبنان. ولكن الأعيب "أبو عمار" لم تنطل على بشير، فطلب منه أن يرسل إليه "أبو الزعيم" لبحث موضوع هام معه يتعلق بالانسحاب الكامل لمنظمة التحرير وبقية الفصائل إلى خارج لبنان. فأرسل "أبو عمار" سائقه الخاص ليأخذ "عطا الله عطا الله" للاجتماع ببشير الجميل. ولكن وقيل عبوره إلى المنطقة الشرقية، انفجرت قربه سيارة ملغومة كان "أبو أياد" المعارض لمبدأ التفاوض مع العدو قد أوعز إلى أحد رجاله بتفجيرها، ولكن سيارة "أبو عمار" المصفحة خففت من حجم الانفجار وخرج "أبو الزعيم" سالمًا، ليتصل برئيس المخابرات اللبنانية جوني عبده، الذي أرسل إليه سيارة بديلة أقلته للاجتماع ببشير.

تزامناً مع الهدنة التهديدية أطلقت الحكومة الإسرائيلية حركة دبلوماسية كثيفة مهّدت لها اقتراح مجلس الوزراء الإسرائيلي بعد اجتماعه، والقاضي بدخول الجيش اللبناني إلى بيروت الغربية، حيث يسلمه الفلسطينيون أسلحتهم ثم يغادرون إلى سوريا تحت إشراف الصليب الأحمر الدولي. كان هذا هو الاقتراح نفسه الذي نقله بشير الجميل إلى "أبو الزعيم"، مستشار "أبو عمار" العسكري، لدى اجتماعهما في مبنى قيادة القوات اللبنانية في الكرنتينا، لينقله بدوره إلى القيادة الفلسطينية.

ساد الهرج والمرج اجتماع منظمة التحرير الفلسطينية أثناء بحث العرض الذي قدّمه الإسرائيليون عبر بشير الجميل، ليخرج "أبو جهاد" مصرحاً بأن شروط وقف إطلاق النار مهينة ولا يمكن القبول بها. وصل الخبر إلى الإسرائيليين الذين قرروا الردّ على طريقتهم، وخاصة عندما علموا عبر جواسيسهم داخل المنظمة بأنه جرى تكليف "أبو عمار" نقل ردهم السلبي إلى رئيس الوزراء شفيق الوزان ليلبغه إلى

فيليب حبيب وعبره إلى الإسرائيليين، وهكذا وخلال اجتماع الرجلين، انفجرت سيارة ملغومة قبل أوانها على الطريق الذي كان "أبو عمار" ينوي سلوكه عند عودته، مما أدى إلى مقتل ثلاثة مدنيين.

71

انتهى البروفسور شومان من الاستحمام وارتدى ثيابه وخرج إلى الشرفة ليحلق ذقنه. فمع تطور حصار بيروت واشتداده، ظهرت عادات جديدة للروتين اليومي للصامدين. فبسبب انقطاع الكهرباء وانعدام الرؤية داخل حمامات المنازل، ثبت البروفسور مرآة صغيرة في شرفة منزله لاستخدامها أثناء حلاقة ذقنه في الهواء الطلق. كذلك فإنه وخلال استحمامه أصبح يترك باب الحمام مفتوحاً للحصول على بعض النور الطبيعي ولسماع هدير الطائرات والقصف في حال حصول أي تطورات أمنية مفاجئة.

كانت رنا تراقب أباهما وهو يحلق ذقنه في الهواء الطلق مستغربة إزالته لذقنه التي تركها تنمو لأكثر من أسبوع.

- وأخيراً قرّرت حلاقة ذقنك... لقد رجوتك لمدة أسبوع أن تزيلها ولكنك كنت ترفض... هل عندك موعد ما اليوم؟

غمزها البروفسور قائلاً:

- لا، لا، بتاتاً، فقط فإن راشد سيرجع اليوم من زيارة أهله في الجبل وسيأتي لمقابلتي.

- صحيح؟ إنه لم يأت لزيارتنا منذ زمن بعيد.

حصل في الفترة الأخيرة استلطاف متبادل بين راشد وورنا عبر النظرات وتبادل التعليقات السريعة، ولاحظت أختها ميّرا وبيسان ذلك فأخذتا تعيظانها بترداد "رشرش شرّف، رشرش، شرّف".

كان راشد قد غادر بيروت إلى مصيف بحدون في الجبل لزيارة أهله بعد إلحاح شديد من أمه، التي اشتاقت إليه ولم يعد التحدث إليه عبر الهاتف يكفيها. وهي حاولت جاهدة أن تثنيه عن العودة مجدداً إلى بيروت، ولكن جهودها كلها لم تنفع مع راشد المصّر على الصمود في عاصمته والذي استطاع التغلب على عاطفته نحوها بصعوبة. ولكن الصعوبة الأكبر كانت في إقناع حاجز القوات اللبنانية على مدخل بيروت بأسباب عودته كما رواها للبروفسور شومان بعيد وصوله إلى "شقة النضال" كما اتفقا على تسميتها.

- لقد أقنعتهم بأنني ذاهب إلى بيروت خصيصاً لأخرج أمي المريضة من مستشفى الجامعة الأميركية وأعود بها إلى مدينة بحدون.

- وهل صدقوا أقوالك هذه؟

- لقد انفلتت أثناء حوارٍ معهم بشكل كبير، ربما من الخوف أو ربما لوجود موهبة تمثيل دفيئة لديّ لم أكن قد اكتشفتها بعد، فانهمرت الدموع من عيني عندما كررت ذكر أمي المريضة، فصاروا يطيبون من خاطري وسمحوا لي بالعبور.

- ممتاز جداً، والآن دعنا نكتشف مواهبك في العمل على الصواريخ.

كان الاثنان على موعد اليوم في "شقة النضال" لتنظيم آلية التوقيت في الصاروخ. فبعد الإيقاف المؤقت لنظام الإطلاق في صاروخ السام 7 وعزله لمنع أي إمكانية لوقوع أي حادث، تم ضبط جهازي التوقيت بشكل يعمل فيه الجهاز الأول المشغل لمتحسس الأشعة تحت الحمراء لمدة 6 ثوانٍ بعد إطلاق الصاروخ ليبدأ جهاز التوقيت الثاني المشغل لمتحسس الأشعة فوق البنفسجية بالعمل بالتزامن معه بعد 5 ثوانٍ. ثم انتقلا لضبط النظام الوقائي لتفجير الصاروخ في الهواء في حال لم يصب الهدف، وذلك كي لا يؤدي أحداً من المدنيين على الأرض، في

حال سقوطه في منطقة أهلة بالسكان. وفجأة دوى صراخ نسائي "ما هذا؟ أتعدّان قنبلة للانفجار؟"

كانت رنا هي المسؤولة عن ري أوص الجيران في الطابق الرابع، وكانت تنزل كل يومين لتنفيذ مهمتها هذه، وغالباً ما كانت تقف أمام باب غرفة الطعام المقفل تتساءل لماذا يحافظ والدها عليه مقفلاً طوال الوقت، وهو الذي أخبر أفراد العائلة بأنه يستعمل الشقة لتحضير بحث علمي هام مع راشد، ويلجأ إليها بعيداً عن الضوضاء التي تحدثها أخواتها، حيث يحتفظ بكتبه ومراجعته العائدة لبحثه الهام هذا. واليوم أرادت أن تفاجئ راشد، فانسَلت إلى الطابق الرابع وفتحت الباب بكل هدوء لتدخل وتفاجئ المناضلين وتفاجأ هي بما يجري.

- كلا يا حبيبتي، إنه ليس بقنبلة، بل نحن نعمل على تطوير علمي لصاروخ المقاومة الفلسطينية هذا ليصبح أكثر فعالية ضد العدو الإسرائيلي.

- ولكن ألا يوجد خطر عليكما، بل علينا جميعاً منه؟

- لا تخافي يا عزيزتي، إن آلية التفجير معطلة، ولا مجال لأي خطر على أحد من العمل عليه هنا، كل ما في الأمر أننا أردنا العمل بهدوء وسرية بعيداً عن عيون الفضوليين.

- والآن أصبح سركما بين يدي.

- أنا أعرف أنك عاقلة يا رنا ويمكن الاتكال عليك في حفظ

السر.

- من المؤكد أنني سأحفظ السر، ولكن على شرط.

- وما هو؟ تدخل راشد سائلاً.

- أن تسمح لي بالرسم والكتابة على الصاروخ وإهدائه إلى العدو

كما يفعل أطفال إسرائيل بكتابة إهداءات لشعبنا على صواريخ جيشهم.

72

استقبل بشير الجميل في مكتبه في قيادة القوات اللبنانية في منطقة الكرنيتينا "المنسق المدني" للمناطق المحتلة في لبنان ربحافيا فاردي مع وفد من الموساد في زيارة تعارفية. وعندما استفهم منه بشير عن طبيعة عمله، أجابه بأن مسؤولياته تشمل تلبية الحاجات الإنسانية للفلسطينيين. فما كان من بشير إلا أن انتصب واقفاً مستكراً إرساله لمساعدة الفلسطينيين في لبنان، ذلك أن اللبنانيين - حسب قوله - يريدون جميع الفلسطينيين خارج بلادهم.

- إن مهمتي في الوقت الحاضر هي تأمين الماء والكهرباء والهاتف لهم في منطقة صيدا والمخيمات. ذلك أن المنظمات الدولية والإنسانية بصدد ضخ مبالغ كبيرة من المال لترميم مساكن المخيمات وبنيتها التحتية، رغم أنني أوافقك الرأي بخطورة وجود سكان هذه المخيمات عليكم، ولكن طريقة التعامل معهم في النهاية تعود إليكم.

- الحل بسيط، سننقلهم جميعاً إلى قرب الحدود السورية لنتمكّن من طردهم بعد ذلك عند تشكيل حكومتنا الجديدة، وبالتالي نهدم مخيماتهم العديدة ونحولها إلى حدائق عامة.

- على فكرة، هناك في صيدا مقال متمول اسمه رفيق الحريري يتولى تنفيذ عدة مشاريع إعمارية في المدينة وضواحيها، فلماذا لا تلزمونه تنفيذ ما تريدون.

- أستبعد أن يتعاون معنا هذا الرجل، فهو مهتم بإعمار مدينة صيدا وضواحيها، وقد اتصل بنا أحد موظفيه أمس طالباً منا إخلاء مشروعه الذي يقيمه في كفرالوس خارج صيدا بأموال سعودية، فعرضنا عليه شراء المشروع منه ولكنه رفض قائلاً إنه يريد تحويل صيدا إلى مركز مالي واقتصادي من الدرجة الأولى، وهو بصدد شراء جميع الأراضي بين مدينتي صيدا وجزين.

- ومن يكون هذا الحريري؟

- إنه رجل خطر يلعب بالأموال السعودية. أجابه بشير.

في الليلة ذاتها قابل أبو بكر رفيع، القائم بالأعمال السعودي في لبنان، بشير الجميل بطريقة سرية وسلّمه رسالة من وزير الخارجية السعودية يدعوه فيها إلى مدينة الطائف في الليلة نفسها للبحث معه في الحلول المقترحة للخروج من الأزمة، وذلك على هامش مؤتمر وزراء الخارجية العرب.

فور خروج المبعوث السعودي، أسرع بشير لمقابلة فيليب حبيب ليستشيريه بطريقة التصرف مع هذه الدعوة. فما كان من حبيب إلا أن شجّعه بقوة لأن هذا يعني أن ورقته أصبحت قوية ولها وزنها سياسياً، كما أن الشارع المسلم سيغيّر نظرتة إليه عندما يرى أن الدولة السعودية قد دعتة إليها، ثم سلّمه نسخة عن ورقة اقتراحات جديدة من 9 نقاط للخروج من بيروت، أرسلها الأميركيون إلى صائب سلام ليقدمها إلى ياسر عرفات.

في اليوم نفسه اتصل أسامة الباز، المستشار السياسي للرئيس حسني مبارك، ببشير الجميل طالباً منه إيفاد مندوب عنه إلى الإسكندرية لمقابلة الرئيس مبارك. فأرسل جوزف أبو خليل عضو المكتب السياسي الكنائسي في هذه المهمة، ليكتشف أن سبب الدعوة هو جمعه مع سعيد كمال ممثل منظمة التحرير في مصر، وذلك لبحث أفضل طريقة لحفظ الحد الأدنى من الوجود السياسي للمنظمة في بيروت.

مدّ الجسور هذا بين مختلف الدول العربية والقوات اللبنانية سبقتة زيارة قبل أسبوع قام بها جوزف أبو خليل وكريم بقرادوني وجورج سعادة، إلى دمشق لمقابلة عبد الحليم خدام وزير الخارجية السورية. كان هم السوريين الأساسي معرفة ما إذا كان بشير الجميل بصدد توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل أم لا. ولكن إجابات الوفد لم تشف غليل

السوريين، ذلك أن الجواب كان دائماً "إن ثمن الانسحاب الإسرائيلي من لبنان لا زال غير واضح".

أما في الطائف وبينما كان الأمير سعود الفيصل يشرح لبشير الجميل وزاهي البستاني وإيلي حبيقة أسباب اهتمام المجتمع العربي بالوصول إلى مخرج يحفظ كرامة المقاومة وسيادة لبنان، كانت عيون وزير خارجية الكويت عبد العزيز حسين والأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي تختلس النظر إلى المسدس الضخم المتدلي من وسط إيلي حبيقة، الذي ما أن أحس بالنظرات تتابعه حتى عدل من جلسته ليخفي سلاحه.

شرح بشير لممثلي المجتمعين في الطائف الوضع في بيروت، مشدداً أن أحداً لا يعرف النتائج التي قد تنجم إذا ما قرر شارون اقتحام العاصمة اللبنانية، مضيفاً أنه رغم معرفة عرفات بخطورة لعبة المماطلة في محاولة لكسب المزيد من الوقت، فإنه لا زال مستمراً بها. أما بالنسبة لقوات الردع العربية المكونة بمجملها من القوات السورية، فإن الجيش اللبناني جاهز للحلول محلها، علماً أن القوات اللبنانية ستكون البادئة بحل تنظيمها العسكري في حال حدوث ذلك. ففي المحصلة النهائية فإن اللبنانيين لا يريدون وجوداً فلسطينياً أو سورياً أو إسرائيلياً على ترابهم.

عادت الطائرة السعودية الخاصة بالوفد إلى مطار لارنكا في قبرص، ليستقلوا مروحية أميركية نقلتهم إلى مدينة جونيه حيث كان الإسرائيليون بانتظارهم متشوقين لمعرفة نتائج الزيارة.

73

رغم استمرار الهدنة غير المعلنة، واستتكاف الطائرات والبوارج الحربية عن قصف بيروت الغربية، فإن سكان بيروت الصامدين باتوا يشعرون بضغط الكماشة الإسرائيلية عليهم بقوة بعد أن أغلقت القوات

الإسرائيلية والكتائبية منافذ الدخول إلى بيروت. حتى رجال الشرطة اللبنانية الذين كانوا يحاولون العودة إلى نفاط عملهم في بيروت الغربية عبر مركز المتحف كانوا يتعرضون للتفتيش ومصادرة أي طعام أو مياه يحملونها قبل السماح لهم بالمرور. ذلك أن القوات الإسرائيلية كانت قد دخلت إلى محطة نقل وتوزيع المياه إلى بيروت الغربية وقطعت المياه بشكل تام عن العاصمة، لا بل تمركزت وحدة إسرائيلية في المحطة لمنع أي محاولة لإعادة المياه إلى مجاريها. وعندما اتصل فيليب حبيب بشارون مستكراً هذا التصرف، أجابه قائلاً: "وهل تعتقد أنني سمكري لتدعوني لإصلاح مواسير المياه المعطلة في مدينة بيروت".

بعد ذلك بقليل وصل أرنيل شارون إلى فندق ألكسندر في الأشرفية في بيروت الشرقية مع مجموعة من معاونيه في سيارات مدنية تحمل لوحات تسجيل لبنانية زوّده بها جهاز "أمان" الإسرائيلي، وجلس إلى مائدة عامرة في قاعة طعام الفندق وهو يتصّبّب عرقاً وقد تبلّل قميصه الأزرق.

اختار معاونو شارون هذا الفندق لمعرفةهم بأن مراسلي الصحافة العالمية الذين يغطّون أخبار المنطقة الشرقية من بيروت قد اتخذوا منه مقراً لإقامتهم. ويظهر أن المخابرات الإسرائيلية قد أعلمتهم مسبقاً بحضور شارون إلى الفندق، حيث تجمهر حول طاولته مجموعة من الصحفيين يطلبون رأيه بالأوضاع المستجدة. وخلال تناوله الطعام أطلق مجموعة من المواقف المهذبة للفلسطينيين والمحدّرة لسكان بيروت الغربية والمنبهة لقيادة القوات اللبنانية، مثل: "إن سبب وجودنا هنا هو لنزع جذور الإرهاب المتمثل بمنظمة التحرير الفلسطينية" و"لا نريد الاحتفاظ بسنتيمتر واحد من الأراضي اللبنانية" و"ليتلخص اللبنانيون من سلطة الغرباء، عليهم أن يطردوا الفلسطينيين من بلادهم".

رغم أن شارون كان يبتسم وهو يصرّح للصحافة العالمية، لكنه كان في الواقع يكظم غيظه من ضغط فيليب حبيب عليه لإيصال الماء

والكهرباء إلى بيروت، ويخفي قلقه من المظاهرة التي خرجت مساء أمس في شوارع تل أبيب ضد حصار بيروت وضمت أكثر من مائة ألف إسرائيلي، أما أكثر ما كان يزعجه فهي الرسالة التي كانت في جيبه وتحمل توقيع 122 احتياطياً في جيش الدفاع الإسرائيلي يطالبونه فيها بإنهاء الحرب وعودة الجنود إلى الوطن.

خرج شارون ومرافقه من فندق ألكسندر باتجاه بلدة بعبداء بناءً على موعد سابق مع بشير الجميل في منزل جوني عبده رئيس المخابرات اللبنانية، كان التوتر على أشده بين الطرفين بسبب الاشتباكات العديدة التي وقعت بين عناصر القوات اللبنانية وعناصر الحزب التقدمي الاشتراكي في بلدات الشوف، حيث اتهم بشير الإسرائيليون بأنهم يعاملون العناصر الدرزية بطريقة مميزة عن عناصر القوات، فكان ردّ شارون بأن قواته لم تدخل لبنان لتقاتل اللبنانيين بل السوريين والفلسطينيين، وهو إذ يقطع الماء والكهرباء والهاتف عن غرب بيروت فهو يهدف إلى شلّ قوة الفلسطينيين والسوريين ولا يهدف إلى إيذاء اللبنانيين هناك، بل هو يأمل أن يتمكن من تحريضهم ضد الفلسطينيين والسوريين.

- ولكنك مع الأسف لا تعرف كيف يفكر اللبنانيون، إن كراهيتهم لكم ستضعاف بسبب هذه الخطوة بينما سيزداد تلاحمهم مع الفلسطينيين، علماً أنكم لن تتمكنوا من المحافظة على هذا الوضع لمدة طويلة بسبب الضغوط الدولية التي ستعرضون لها.

- أعرف ذلك، ولكن لا بأس إذا ضغطنا عليهم لمدة أسبوع، فربما سيساعد هذا في تسريع وصول الفلسطينيين إلى قناعة بأن لا أمل لهم سوى بالخروج من بيروت. ولكن هل الجيش اللبناني جاهز للحلول مكان الفلسطينيين عند خروجهم بدون سلاحهم الثقيل؟ يجب أن تعرفوا أن هناك ترسانة هائلة من الأسلحة التي سيتدبرها الفلسطينيون والتي لا نريدها أن تقع بين أياديّ قد تستعملها ضدنا لاحقاً.

- دعني أخبرك شيئاً هاماً - تدخل بشير - إن جميع اللبنانيين مسلمين ودروز ومسيحيين إضافة إلى السعوديين والأميركيين يريدون كلهم خروج الفلسطينيين والسوريين من لبنان. ولكن عرفات لم يقتنع بعد بدرجة خطورة الوضع وأهمية رحيله عن بيروت، لذلك فهو ما زال يراوغ محاولاً كسب الوقت، مراناً على أن المجتمع الدولي لن يقبل أن تستمر الحالة هكذا لمدة طويلة، وسيحاول الصمود والضغط عليكم أنتم للخروج من بيروت قبل أن ينهار هو وجماعته.

- أراهنك أننا لن نترك لبنان قبل خروج عرفات ومخربيه جميعاً.

74

- ليترك أهديتها ببغاء ليساعدني في كتابة رسالتي إلى الرئيس. علقت جولي شومان مبتسمةً.

- ولأي رئيس نكتبين؟ سأل راشد.

- للرئيس ريغان، هناك الكثير من الأحاسيس التي تحبش في صدري وأريد أن أعبر عنها عبر رسالة إليه بمناسبة 4 تموز/يوليو، علّه يعود إلى رشده ويتصرف كرئيس دولة كبرى تُعامل جميع الدول بالعدل والإنصاف.

- أعتقد أن العدل والإنصاف هو أن نكف عن الحديث بالسياسة الآن والانصراف إلى تناول الكاتو الشهي بمناسبة عيد ميلاد رنا.

قبل ذلك بساعة كان راشد يقف في مخزن بيع الحيوانات الأليفة يستعرض الحيوانات اللطيفة التي يظن أن رنا قد تحبها، ذلك أن رنا كانت قد اتصلت به قبل يومين لدعوته لحضور حفلة عيد ميلادها. ورغم أنها شددت عليه ضرورة عدم إحضار أي هدية معه نظراً للظروف الراهنة، فإن راشد لم يرضَ على نفسه إلا أن يأخذ لها ولو هدية رمزية. استعرض في ذهنه الهدايا التي قد يقدمها شاب في هذه المناسبة: الزهور - غير

موجودة، الشوكولاته - أصبحت أثرية، الهدايا الذهبية - محرجة، فاستنتج أن حيواناً أليفاً قد يشكل ألطف هدية لهذه المناسبة في هكذا أجواء. عند استعراض أنسب الحيوانات ليكون الهدية، استبعد الجرو كي لا يزعج الجيران، وأهمل القطّة الصغيرة لأن رنا لا تحب القطط، فلم يبق أمامه سوى الأسماك الحمراء والصفير، وبما أن العصافير حيوانات اجتماعية أكثر من الأسماك لأنها تغني، فقرر أن يهدي رنا عصفوراً مغرداً.

- ما اسم هذا العصفور؟ سأل راشد.

- إنه ليس عصفوراً، إنه كنار.

- وهل الكنارات ليست بعصافير؟

- بالطبع لا. العصافير هي تلك التي تعيش على الأشجار ولا

تصطح بالأنغام الجميلة. أما الكنار فهو طائر أرستقراطي مدلل يعيش في المنازل الفخمة.

- وكم سعر الكنار هذا؟

- هذا الكنار بخمسين ليرة. ولكني أستطيع أن أبيعك طائريّ

الحب هذين مع القفص وكيلو من حبوب الطعام بثلاثين ليرة فقط.

- ولكن طيور الحب لا تغني... أليس كذلك؟

- إنها تصدر أصواتاً جميلة ولكنها لا تغني تماماً مثل الكنارات.

- إذا سأخذ الكنار.

رغم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة عصراً، فقد تحلق المحتفلون

بعيد ميلاد رنا حول قالب الكاتو والحلويات والعصائر يغنون لها

ويساعدونها في إطفاء الشموع ثم يكتسحون الأطياب المنتشرة على

الطاولة. كانت هدية ميرا وبيسان لرنا بطاقة جميلة مرسومة بأيديهما

ومزينة بالخرز الملون والریش تتمنيان لها فيها السعادة والسلام. أما

والديها فقدما لها بمناسبة عيد ميلادها الثامن عشر سلسلة ذهبية تنتهي

بميدالية حُفر عليها حرف R. أما الهدية التي أدخلت أكبر قدر من

الغبطة إلى قلب رنا وأصبحت محطّ أنظار الجميع، فكانت التي قدّمها راشد. فالكنار الأصفر كان يقفز برشاقة في القفص وهو يهزج بمواويله ويصيح بكونشراته. تحلّقت ميرا وبيسان حول القفص تطعمان الكنار وتلاطفانه وتلاعبانه، بينما جلس البروفسور إلى جانب زوجته ينقّح لها رسالتها إلى الرئيس ريغان، في حين استغلّ راشد ورنا الفرصة وجلسا يتناولان كاتو المناسبة معاً في أحد أركان الشرفة.

- هل أعجبك الكاتو؟ سألته رنا.

- إنه لذيذ جداً، لم أتناول الكاتو منذ أكثر من شهر. أجابها راشد.

- لقد صنّعته بيدي، لقد قرأت طريقة التحضير والمكونات في

كتاب الطبخ وطبقتها بحذافيرها.

- الآن عرفت لماذا هو شهّي.

- أنت تجاملني فقط... هل رأيت هدية والديّ لي؟

- إنها جميلة جداً وددت لو تمكّنت من إهداء مثلها لك، ولكني

تهيّبت ذلك كي لا أخرجك أمام أهلك، خاصة وأن وجود حرف R عليها والذي هو بداية اسمينا قد يُفسر وكأنه حرف اسمي أنا.

- ألا تريدني أن أحمل حرف اسمك حول عنقي؟

- بالعكس إنني أتمنى ذلك وأحب ذلك، ولكني لا أريد أن أسبّب لك

أي مشاكل مع أهلك.

- على كل حال أنا أعتبر أن هذا الحرف هو بداية اسمك وأنا

سعيدة بذلك.

- أنا أسعد منك لأنني تبينت حقيقة شعورك نحوي وأنه مماثل

لشعوري نحوك.

وهنا تنأهى إلى سمعها صوت جولي شومان تتاديهما.

- دعوني أسمعكم جميعاً نص الرسالة التي كتبتها للرئيس رونالد

ريغان بمناسبة عيد الاستقلال في الولايات المتحدة.

1982/7/4

السيد رونالد ريغان

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

البيت الأبيض

واشنطن

سيدي الرئيس

أرجو أن تكون قد استمتعت بأنشطة عيد الاستقلال. أما نحن هنا في بيروت فقد عايشنا بعض الأنشطة المماثلة التي كادت تؤدي بحياتنا، فبدل الألعاب النارية المعهودة، أمطرتنا الطائرات الأميركية الصنع بقنابل وصواريخ أميركية الصنع قتلت أكثر من 10.000 شخص وجرحت أكثر من 25.000 آخر. ولقد تمنيت لو استطعت رفع علمنا الأميركي على شرفة منزلي كما درجت العادة، ولكن نفسي تتقزز من إدارتنا السياسية الموالية للعدوان، وضميري يكاد ينكر عليّ مواطني الأميركية، بينما لساني يعجز عن التعبير عن مدى حقدي على تنكّر رئيسي لمبادئ الحرية والعدالة والديموقراطية والسلام التي تبشّر بها أميركا حول العالم. لذلك قررت اليوم الصيام نيابة عن جميع الأميركيين الشرفاء تضامناً مع الشعب اللبناني في بيروت الغربية الصامد تحت الحصار والنيران الأميركية بدون طعام ومؤن ومياه وكهرباء وهاتف، علّ صوتي يصل إلى ما تبقى من ضمير أميركي فيهدي حكامه لإنصاف الشعب اللبناني المظلوم.

جولي بارسونز شومان

مواطنة أميركية

75

كان جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلي بأقسامه الستة يعمل على مدار الساعة من مقره الخاص داخل حرم وزارة الدفاع على ملف واحد هو: لبنان.

كانت أنهار من المعلومات تصل إليه كل الوقت عبر الهوائيات المنتشرة على سطحه، ومن خلال البريد العسكري الذي يأتيه من جميع الوحدات ومن وحدة التنصّت على المخابرات الهاتفية واللاسلكية اللبنانية والفلسطينية والسورية. ذلك أن ثروة من المعلومات الحساسة تضم أسماء وعناوين وأرقام هاتف وأكواد لاسلكية وشيفرات عسكرية تمّ جمعها من مقرات منظمة التحرير والمنظمات الفلسطينية الأخرى التي تمّ احتلالها في جنوب لبنان، ثم جرى استخدامها مخبرائياً لجمع أحدث المعلومات عن تحركات ومواقف القوات السورية والفلسطينية وقياداتها بشكل خاص.

من جهة أخرى، كان بعض هذه المعلومات يصبّ عند قسم التنصّت التابع للقوات اللبنانية بإمرة فوكس والمتمركز في مقسم هاتف بدارو، حيث كان يقود فريقاً من شبان وصبايا الإشارة في القوات اللبنانية، يتنصّتون على هواتف الشخصيات السياسية والأحزاب والتنظيمات اللبنانية، إضافة إلى مهمتهم الأساسية التنصّت على المنظمات الفلسطينية وزعمائها وخاصة "أبو عمار"، والذي وعد فوكس بتقديم مائة ألف دولار للشخص الذي يستطيع تقصي مكان وجوده وتمكين الإسرائيليين من إصابته في نفس العنوان.

أما "أبو عمار" شخصياً، فكان يمر بأزمة نفسية من جراء محاولات اغتياله المتعدّدة. لم يكن خائفاً على نفسه بالذات وهو المررد دائماً "هيت روائح الجنة"، بل كان مكتئباً لأنه أصبح نذير شؤم في أي مكان يقصده. فعندما قُصفت "عمليات 3" كان بالقرب منها، وعندما قُصف مبنى "عمليات 5" كان من المفروض حضوره اجتماعاً في نفس اللحظة، كذلك عندما قُصف مبني برج أبي حيدر وقصقص، ونفس الشيء حصل عندما انفجرت السيارتين المفخختين قرب رئاسة الحكومة ومركز الأبحاث. لذلك ما أن كان أي شخص يلّمحه في أي شارع، حتى كان سكانه يتداعون للهرب من الشارع خوفاً من قصفه. وبعد ظهر

أمس بالذات عندما همّ عرفات بدخول مبنى البيكاديللي في شارع الحمراء، أسرع نحو سيدة تحمل طفلها باكية: دعني أقبل قدميك، ولكن لا تدخل البناء رحمة بأولادنا. دفعها حراس "أبو عمار" بعيداً، ولكن عرفات عاد إلى السيارة ورجع من حيث أتى.

لازم هذا الشعور السيئ "أبو عمار" طوال فترة الحصار، فلم يعد يثق بمرافقيه وحراسه وسائقيه، حيث ألغى عدة اجتماعات بعد دقائق معدودة من ابتدائها ليغادر مباشرة طالباً تغيير مكان الاجتماع. أضف إلى ذلك أنه كان يعقد العديد من الاجتماعات في سيارته الرانج روفر الخضراء، لا بل فقد نام فيها عدة مرات خوفاً من استهدافه.

هذا الهاجس الذي كان يلزمه، إضافة إلى حزنه على الشهداء والجرحى والخسائر المادية التي حصلت في بيروت، يضاف إليها الضغوط العسكرية والسياسية والاقتصادية جعلته يلين في مواقفه ويعدل من مطالبه لشروط مغادرته لبنان، كما أن مجلس الوزراء الإسرائيلي ساعده في الوصول إلى موقفه هذا من حيث لا يدري - ذلك أنه اعترض على موقف شارون المتشدّد والذي يهدف إلى اقتحام بيروت الغربية وانتزاع عرفات وجماعته منها، وذلك خوفاً من حصول خسائر كبيرة في الأرواح بين المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين والجنود الإسرائيليين، نظراً لتوقع حصول معارك شوارع قد لا تسمح طبيعتها للجيش الإسرائيلي بالتفوق فيها بسهولة، إضافة إلى تخوفه من ردّ فعل واشنطن على هكذا تصرف - فكان موقف مجلس الوزراء الإسرائيلي أن يفسح المجال لدبلوماسية فيليب حبيب للوصول إلى حل، لكن عدائية شارون المستشرية جعلته يوجّه رسالة استفزازية إلى "أبو عمار" عبر أحد الصحفيين الأميركيين ينصحه فيها بالاستسلام ورفع علم أبيض على أعلى بناء في بيروت.

- بلغ شارون بأننا ننتظر محاولة جيشه دخول بيروت لندوسه بأرجلنا، ولقد أعطيت أوامري لحرسي الخاص بإطلاق النار عليّ في حال قررت الاستسلام، ولن نرفع سوى علم فلسطين العربية.

- وهل أنتم قادرون على الصمود أكثر من هذا.
 - إن نخيرتنا الاحتياطية لا زالت مدفونة في الأرض، أما بالنسبة للروح القتالية فما عليك إلا أن تنظر في عيون الشبان من حولك والذين سيحولون النصوص التي وردت في التوراة والتي تقول: "إن أي أذى يصيب لبنان سيرتد عليك" إلى حقيقة واقعة في حال محاولة شارون وجيشه اقتحام بيروت.

لكن ثقة عرفات بنفسه اهتزت عندما نصحه الزعيم الدرزي وحليفه في الحركة الوطنية وليد جنبلاط بالموافقة على شروط فيليب حبيب، فاللبنانيون كانوا هم السند الأساسي للفلسطينيين، وبدونهم ينهار البنيان. وزاد في الطين بلة الزيارة التي قام بها رئيس الوزراء شفيق الوزان بصحبة الزعيم البيروتي صائب سلام لعرفات، حيث قدموا له نداءً من المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى يناشده مغادرة بيروت حقناً لدماء أبنائها. كان ردّ عرفات عليهما: إذا كانت إرادتكم أن أغادر بيروت، فأنا جاهز متى طلبتم مني ذلك رسمياً.

76

يملك "أبو سعيد العيتاني" واحدة من آخر الأراضي الزراعية في منطقة رأس بيروت الراقية. وعلى امتداد الدنومات العشر يزرع "أبو سعيد" موسماً بعد آخر من البطاطا والملفوف والملوخية والتي يتم ربيها من البئر الارتوازي في وسط الحقل، وبسبب البئر ومائه حضر راشد لمقابلة "أبو سعيد". ففي اليوم السابق وخلال وجوده في مقر "جمعية المواطنين الصالح" التي ينتمي راشد إليها، طُلب منه البحث عن بئر ارتوازي في بيروت يمكن تزويد مستشفى الجامعة الأميركية بالمياه منه، وذلك بعد استفحال أزمة المياه في بيروت والتي قطعها

الإسرائيليون. أبدى "أبو سعيد" استعدادَه لتزويد المستشفى بالماء ولكن مشكلته كانت بعدم توفر الوقود الكافي لتشغيل موتور سحب الماء من البئر الارتوازي. ولهذه الغاية اتجه راشد لمقابلة غسان ربيز مسؤول الارتباط بالمستشفى لبحث الموضوع معه.

- في الواقع لدينا مشكلة وقود في المستشفى نتيجة الانقطاع الدائم للكهرباء والحصار القوي المفروض علينا. ورغم أن استهلاكنا العادي من الوقود قد انخفض من 20.000 لتر يومياً إلى 7.000 نتيجة إغلاقنا لأقسام التوليد والعيادات الخاصة ووحدة جراحة القلب، فإن استهلاكنا لا زال مرتفعاً.

- وكيف تدبرون الأحوال؟

- إذا استمر الحصار أسبوعاً آخرًا سنضطر إلى إعادة المرضى إلى ذويهم وإغلاق المستشفى، ولقد أبلغت الإدارة فيليب حبيب بذلك عبر السفارة الأميركية. أما في الوقت الحاضر فنحن نستمر بفضل جهود المتطوعين الذين استطاعوا جمع مادة المازوت من خزانات منازلهم ومنازل جيرانهم وجيران المستشفى لعدم حاجتهم إليها بسبب انقطاع الكهرباء عن سخانات الماء العاملة على المازوت في منازلهم.

- وهل بالإمكان توفير غالون من المازوت ليدير "أبو سعيد" موتور بئره الإرتوازي لتأمين الماء للمستشفى؟

- أعتقد أن لا مفر من ذلك، كذلك سأوفر لك سيارة صهريج لنقل الماء.

- هل أستطيع أن أطلب منك خدمة خاصة؟

- إذا استطعت في هذه الظروف.

- أرجو أن تتمكن من إرسال هذه الرسالة بالبريد الدبلوماسي إلى

الولايات المتحدة، إنها رسالة خاصة إلى الرئيس ريغان.

- أمل أن تؤثر به هذه الرسالة، ليؤثر هو بالتالي على الإسرائيليين. على سيرة التأثير، إذا كان لديك بعض الوقت أود أن أريك لماذا نحتاج إلى كميات كبيرة من الماء يومياً.

إننا ندخل الآن جناح إصابات الحروق البالغة، إن علاج ضحايا الحروق هو الأصعب. إن مجرد نزع ثياب المصابين عنهم هو مهمة تدمي القلوب، فحتى المورفين ليس كاف لتسكين آلامهم. خذ مثلاً ضحايا القنابل الفوسفورية، فهم يأتون إلى المستشفى والنيران لا تزال متأججة في أجسادهم، حيث يكون جلدهم أسود اللون ومنتفخاً ورائحتهم تفوح كاللحم المشوي بينما صراخهم وعويلهم يذكرّك بالحيوانات البرية الجريحة. لقد استقبلنا هنا أمهات مصابات يحتضنّ أطفالاً وقد إلتحمت أجسادهم سوية بفعل الحروق الفوسفورية. وفي إحدى الجولات جيء لنا بطفل محروق داخل صندوق كرتوني للسجائر، كان يتنفس بصعوبة كبيرة ولم تستطع الممرضات حتى حمله بسبب الآلام التي كانت تصيبه، كان صراخه وبكاؤه هما فقط اللذان يذكرّاننا بأنه إنسان وليس قطعة من اللحم المحروق. وعندما مات هذا الطفل بعد يومين شكرنا الله الذي خفف آلامه ولكننا بقينا أسبوعاً في بكاء وحزن عليه. وكما ترى فإن الجناح قد ضاق بالمرضى واضطررنا إلى وضعهم في الممرات. وهنا يأتي سبب إحضاري لك إلى هذا القسم. إن علاج مصابي الحروق يحتم وضعهم مرة في النهار على الأقل في مغطس من الماء، ولو نظرت حولك لتبيّنت كمية الماء التي نحتاجها يومياً في هذا القسم فقط.

لم يستطع راشد التعليق على كلام مسؤول المستشفى من شدة تأثره، بل حافظ على وجوهه وكبت حزنه في قلبه وقد أصابه ما يشبه الدوار والغثيان.

- إنني أشعر وكأنني على وشك أن أنقيأ.

- لا، لا تخف إنها ردة فعل طبيعية تجاه الروائح الصادرة من قسم الطوارئ. فقبل ثلاثة أيام جيء لنا بمقاتل مصاب في محيط المطار، أدخله

رفاقه وسط الصراخ والتهديد مصاباً بشظية. بعد إدخاله إلى غرفة الأشعة، سمعنا فجأة انفجاراً قوياً اهتزَّ له قسم الطوارئ وفاحت رائحة البارود من غرفة التصوير وانتشر الدخان في أرجاء المستشفى. خرج مسؤول الأشعة يسعل مثلماً رأسه وجسمه بحثاً عن أي إصابات. شرب كوباً من الماء، وبعد أن تمالك نفسه أخبرنا كيف وضع المصاب على المنصة الخاصة مركّزاً فوقه آلة التصوير ووقف خلف الحاجز الخاص ليضغط على زر التشغيل، وإذا به يرى وميضاً أحمرّاً ويسمع انفجاراً يرميه أرضاً، ليتبين بعد ذلك أن قنبلة يدوية كانت في جيب المقاتل انفجرت ومزقته إرباً وانتشرت قطع من جسمه على الجدران وعلى آلة التصوير المحطمة. أما الرائحة التي تشمّها الآن فما هي سوى رائحة الدماء وبقايا اللحم التي ما زالت عالقة على الجدران بسبب النقص في المطهرات لدينا.

77

- لعنة الله على السلاح والمسلحين. انفجرت مدام ناديا في وجه "أم جمال".

- ليس كل المسلحين سيئين يا مدام. أجابتها "أم جمال" زوجة ناطور البناء محاولة تهدئتها: إن أصحاب القضية شرفاء بشكل عام، ولكن هؤلاء الصعاليك المنتفعين من الثورة والذين يشبهون البراغيث التي تعيش على الجسم هم المشكلة.

- هل تتصوّري ماذا حدث معي اليوم؟ كنت أقف في طابور النساء أمام الفرن بانتظار أن يأتي دوري لأشتري بعض الخبز. وفجأة توقفت أمامه عربة جيب عسكرية لإحدى التنظيمات وقفز منها أربعة مسلحين مراهقين، أطلق أحدهم الرصاص في الهواء، بينما صرخ فيهم كبيرهم ليأتوا بالخبز. ورغم استنكارنا لما كان يحصل، فقد صادروا

الخبز كله وانطلقوا، رغم أنه كان قد مضى على انتظاري لدوري في الطابور أكثر من ساعة تحت الشمس المحرقة.

- لا بأس عليك، يا ليت كل المصائب والهموم هي بهذا الحجم، المهم الصحة جيدة والحمد لله. اسمعي ماذا حصل مع ابن أخ زوجي محمد، الذي التقط كرة معدنية عن الأرض أثناء لعبه، فانفجرت به مرسة شظايا مسننة في جميع الاتجاهات اخترقت قفصه الصدري من الأسفل ممزقة معدته وأمعاءه، كما أن كبدته تمزق مما استدعى إجراء عملية جراحية عاجلة له في معدته وقولونه. أما يده اليمنى التي أمسك بها الكرة والتي اتضح أنها قنبلة عنقودية فقد بُترت واحترق جزء من وجهه وعينه اليمنى.

- يا لطيف، صحيح أنها مصيبة كبيرة، وكيف هو الآن.

- رغم صعوبة وضعه الصحي وأوجاعه فأمه تقول الحمد لله أنه لم يمت، فهو وحيدها على ثلاث بنات.

- صحيح، إن الذي يرى مصيبة غيره تهون مصيبته.

- إذا إن أزمت الخبز والخضار والفاكهة والمحروقات والماء والكهرباء كلها تهون أمام المصائب الحقيقية.

- إن كلامك صحيح، يجب أن أكون هادئة كي لا أقع في المشاكل، إن أفضل وسيلة لتهدأ أعصابي هي عبر التركيز على رسومي.

- فكرة ممتازة.

- لا، بل إنها فكرة مجنونة، أريد أن أرسم على ذلك الحائط الكبير أمامنا، أريد أن أرسم قصة محمد ابن أخ زوجك، وقصتي عند الفرن، وقصة كل إنسان تحت الحصار الإسرائيلي، وهكذا سأتوقف عن التبصير بالفنجان وورق اللعب وحلّ الكلمات المتقاطعة، وسأنسى ألم أضرارسي وساعات انتظار اتصال أولادي بي بالهاتف وربما لن أعود بحاجة إلى الفاليوم والزاناكس لتهدئتي.

- إذا كان الفن هو الدواء لأعصابك فعليك الإدمان عليه.

78

في البداية لم يتقبل راشد فكرة رنا للرسم على الصاروخ وكتابة عبارات انتقامية عليه ضد إسرائيل. فبالنسبة إليه كانت الفكرة غير حضارية وتدعو إلى التشفي، بينما يجب أن تكون الحرب برأيه مقارعة الند للند. ولكنه وبعد زيارته لمستشفى الجامعة الأميركية ورؤيته لضحايا الآلة العسكرية الإسرائيلية الشرسة، توصل إلى قناعة بأن أي فعل يتم ضد إسرائيل هو حق شرعي، فقرر جلب الألوان لها بنفسه.

بعد أن انتهى البروفسور وراشد من إعادة وصل آلية التفجير في الصاروخ وتأكدوا من عمل نظام التوقيت فيه، انصرفت رنا إلى رسم كنار عليه، بينما جلس البروفسور وراشد جنباً إلى جنب يضعان النقاط الأساسية لإرشاد طاقم إطلاق الصاروخ إلى الطريقة الأسلم لاستخدامه ضمناً لإصابة الهدف.

بعد رؤية الهدف بالعين المجردة يتم تركيز الصاروخ على الكتف وإدارة نظام التشغيل الكهربائي. بعد 5 ثوانٍ يوجه الطاقم رأس الصاروخ نحو الهدف لينتقط المتحسس إشارة الأشعة تحت الحمراء من الطائرة العدو، والتي يؤكد لها انطلاق صوت وضوء محددين، عندها يضغط الطاقم الزناد إلى منتصف مسافة الإطلاق مما يشغل آلية الجيرو التي تحدد المسافة بينه وبين الهدف وذلك للتأكد بأن الهدف في نطاق المدى الفعال للصاروخ. وعند التأكد من ذلك عبر صدور صوت ونور آخرين، يضغط الطاقم الزناد إلى آخر حد له لينطلق عندها الصاروخ بسرعة 1500 ك/س. يجب أخذ العلم بأن الصاروخ لا ينفجر سوى عبر ارتطام رأسه المباشر بالهدف، لذلك يجب الحرص بشدة على عدم إدارة نظام التشغيل الكهربائي قبل التأكد النظري من إمكانية إصابة الهدف، ذلك أنه إذا فرغت بطارية النظام الكهربائي يصبح من المستحيل إعادة الإطلاق ثانية مما يفشل العملية.

- لا أدري إذا كانت المقاومة ستسمح باستخدام الصاروخ الآن مع تقدم المفاوضات حول انسحابها كما تقول الجرائد؟
- وهل تصدق كل ما يقوله الإسرائيليون يا راشد؟ إن من عادتهم تحديد لائحة طويلة من المطالب، وكلما حصلوا على أحدها، طالبوا بالذي يليه إلى أن يتم تجريد خصمهم من جميع الأوراق التي يمسك بها إضافة إلى كرامته.
- إذا إنك تعتقد أن هذه الهدنة مؤقتة.
- لا شك أنها هدنة مؤقتة فرضتها الإدارة الأميركية على حرب إسرائيل ضد اللبنانيين، أي ضد بيروت الغربية. ولكن ضاحية بيروت الجنوبية ومحيط المطار لا يزالان مشتعلين بالاشتباكات اليومية، وتبرّر إسرائيل ذلك بأنها تقاوم الفلستينيين والسوريين هناك وليس اللبنانيين.
- على سيرة اللبنانيين، هل سمعت آخر النكات حول "أبو عمار"؟
- هات أسمعنا.
- أثناء حضوره اجتماعاً هاماً، يسمع "أبو عمار" ضوضاء وضجة كبيرتين خارج مكتبه فيسأل مرافقيه عما يحصل خارجاً؟ فيأتيه الجواب بأن هناك أكثر من نصف مليون بيروتي قد جاءوا يودعون. فيسأل "أبو عمار"، لماذا يريدون توديعي؟... إلى أين هم ذاهبون؟
- انفجر البروفسور ضاحكاً ضارباً كفاً بكف مما جعل رنا تترك الرسم وتأتي لمعرفة ماذا يجري.
- على ماذا تضحكان؟
- سيروي لك راشد النكتة ثانية، إنها ممتازة.
- راشد هل ستروي لي النكتة؟ على كل حال أنا بحاجة إليك لتساعدني في رسم علمي لبنان وفلسطين على الصاروخ.
- سأعمل وحدي على ضبط ورقة التعليمات يا راشد، يمكنك أن تساعد رنا لإنهاء رسمها.

79

بينما كان "أبو أياد" يتصفح جريدة السفير، توقف أمام صورة في الصفحة 11 تظهر حظيرة دبابات وآليات في غابة صنوبر صغيرة قرب القصر الجمهوري في بعددا. نهض "أبو أياد" عن كرسيه واتجه نحو النافذة متفحصاً الصورة عبر ضوء النافذة الطبيعي. أطرق بنظره نحو الأرض بينما كانت عضلة متمردة في خده الأيسر تختلج لإرادياً. وضع يده على خده ونادى أمين سره "أبو محمد العمري" قائلاً: "اطلب لي الأخ طلال في جريدة السفير".

- كيفك أخ "أبو أحمد"؟

- الحمد لله كويس، خير إن شاء الله.

- خير، خير، شايف صورة الآليات العسكرية الإسرائيلية

المنشورة بالجريدة اليوم بالصفحة 11، عاوز أصلها بحجم كبير.

- هذه الصورة من "وكالة رويترز"، تكرم، بعد قليل ستكون عندك.

- ضروري جداً أخي "أبو أحمد"، شكراً.

ما أن وضع "أبو أياد" السماعه حتى طلب من "أبو محمد العمري"

جمع قادة القواطع في مكتبه حالاً.

على الجانب الآخر، وفي موقع القيادة العسكرية الإسرائيلية في

منطقة بعددا، كان العسكريون في حالة نفسية ضاغطة نتيجة حالة

اللاحرب واللاسلم التي كانت قائمة، رغم أنهم كانوا يعيشون حياة

رفاهية مقارنة مع زملائهم. إذ إنهم كانوا يرسلون ثيابهم إلى مصبغة

قريبة، ليتم غسلها وكيها وإعادتها إليهم داخل أكياس من السيلوفان. كما

أنهم كانوا يتناولون الذهاب إلى مطعم قريب لتناول المشاوي والمآزة

اللبنانية مع العرق المثلج الذي أصبح مشروبهم المفضل، وقد شجعهم

على ذلك قبول أصحاب المصالح اللبنانيين بالشيكال الإسرائيلي بدل

الليرة اللبنانية لسداد فواتيرهم، ليحولوه بدورهم إلى الدولار عبر مصرف "ثومي" الإسرائيلي النقال. هذا الاسترخاء اللذيذ حولته الهدنة غير المعلنة إلى ملل رهيب أجّته الصحافة الإسرائيلية، التي كانت تنقل إليهم صور الاحتجاجات الشعبية وأخبار ردّات فعل العسكريين الراضين لتخطي إسرائيل حاجز الأربعين كيلومتراً، والذي يُفترض أن تشكّل حدوده صمام الأمان ضد الصواريخ الفلسطينية. وهنا انتشرت بين الجنود الإسرائيليين أغنية حزينة تقول كلماتها: "اهبطي إلينا أيتها الطائرة... احملينا إلى أرض لبنان... لكي نحارب لأجل شارون... ثم أرجعينا ونحن بالأكفان".

لهذا السبب توجه أرئيل شارون ورفائيل إيتان إلى موقع القيادة في بعبداء لشدّ أزر العسكريين، حيث تفقداً مشاغل الصيانة ومستودعات التموين والذخائر ومهاجع الجنود ساتلين عن أحوالهم، ومحاولين إظهار تعاطفهم معهم عبر مشاركتهم طعام الغداء والدردشة معهم بدون تكلف.

أما في غرب بيروت فإن اجتماع "أبو أياد" مع قادة القواطع تُرجمَ على الأرض عسراً بقصف مدفعي وصاروخي مركز لموقع القيادة الإسرائيلية في بعبداء ومخازن ذخيرته التي تم تحديد مواقعها عبر الصورة المنشورة في جريدة السفير، مما أدى إلى تفجّر ها ووقوع 75 إصابة إسرائيلية بين قتيل وجريح، حتى أن شارون كاد يصاب شخصياً لولا أن عربته المدرعة تلقت جميع الشظايا.

ما كادت معنويات المقاتلين الفلسطينيين ترتفع قليلاً، حتى وصل إلى قادة القواطع أمر بعدم تكرار هكذا تصرف ثانية دون العودة إلى القائد العام وذلك للحدّ من التفريط بالذخائر والاحتفاظ بها لغايات دفاعية، بينما كانت المدفعية الإسرائيلية تدكّ مناطق برج البراجنة والليلكي وصبرا وشاتيلا وطريق المطار والروشة بالقذائف والصواريخ انتقاماً.

80

إنه اليوم الكبير. والاستعدادات جارية على قدم وساق. كلُّ استعداد لهذه الليلة المنتظرة على طريقتيه. البعض حجز له مكاناً لدى أقارب أو أصدقاء يملكون مولداً للكهرباء، والبعض الآخر حجز مكاناً في مطعم أو مقهى سبق وأعلن عن وضع جهاز تلفزيون في صالته، أما أغلبية سكان بيروت الغربية فلم تكن بيدهم من حيلة سوى التمني والدعاء أن لا ينقطع التيار الكهربائي العام عن بيوتهم ليتمكنوا من متابعة مباراة نصف نهائي بطولة العالم لكرة القدم.

من جهته، كان "أبو عفيف" قد أحضر إلى مقهاه جهاز تلفزيون صغير منذ بداية البطولة ونصب له منصة خشبية عالية ليتمكن أكبر عدد من الزبائن من متابعة المباريات. وليتأكد من استمرارية عرض المباريات رغم أي مفاجآت من التيار الكهربائي، فقد قام بوصل جهاز التلفزيون إلى بطارية سيارته التي تتكفل باستمرار العرض التلفزيوني رغم أي انقطاع للتيار الكهربائي.

إنها المباراة الحاسمة لمعرفة من سيتبارى في الدور النهائي ضد إيطاليا. هل ستكون فرنسا أم ألمانيا؟ الشعب الصامد في بيروت المحاصرة كان بمجمله مع فرنسا. وهذا الموقف لم يكن لإعجابه بفن وحرفية الفرنسيين، بل احتراماً لمواقفهم السياسية المؤيدة لفك الحصار الإسرائيلي عن بيروت الصامدة، ولهذا استنفر أهل بيروت جميعاً ليدعموا من دعمهم.

شبان الحي جلسوا إلى أقرب طاولة من جهاز التلفزيون في مقهى "أبو عفيف". جمال و"رويتزر" و"أبو جمال" وراشد وعباس وموسى إضافة إلى مدام ناديا السيدة الوحيدة على الطاولة المستطيلة الشكل. كان هناك كرسيان فارغان حول الطاولة، أحدهما لـ "أبو

عفيف" الذي كان يحضر طلبات الشاي والقهوة والنارجيلة للزبائن، أما الثاني فكان لعلي حرب الذي ذهب ليصلي صلاة العشاء في المسجد. فمِنذ أسبوعين وعلي يداوم على الصلاة في مواعيدها في المسجد، بعد أن تغيّر حاله فترك شعر ذقنه ينمو وجعل قميصه يتدلّى فوق حزامه، أما التحول الأكبر فيه فكان نقده المستمر لطريقة إدارة المقاومة والحركة الوطنية للحرب وعدم تبنيهما للجهاد سبيلاً إلى النصر، فبرأيه أن الثورة بدون جهاد ديني لن تؤدّي يوماً إلى النصر.

قدّم الفريقان مباراة تاريخية، سجل فيها أولاً ليتبارسكي لألمانيا قبل أن يعادله بلاتيني بضربة جزاء. وفي الوقت الإضافي تفوقت فرنسا 3-1، ولكن الألمان اقتحموا المعقل الفرنسية ليعادلوهم ثم ليتفوقوا عليهم بضربة جزاء في الثواني الأخيرة. ورغم أن الفرنسيين لعبوا بعاطفتهم مساندين بعضهم البعض، فإن الألمان لعبوا بحرفية استطاعوا عبرها خرق نقاط الضعف لدى الفرنسيين ليتغلبوا عليهم. وهكذا شعر متابعو المباراة بأنهم متشابهون مع الفريق الفرنسي كونهم يدافعون عن مدينتهم بأجسادهم بينما عدوهم يملك الوسائل القادرة على قهرهم والتغلب عليهم، ومع خسارة الفرنسيين شعروا وكأن العالم كله قد تأمر عليهم ليخسروا من جديد في الثواني الأخيرة من صمودهم تحت أنظار الملايين حول العالم الذين يتفرجون على ما يجري في مدينتهم كما يتابعون بطولة كرة القدم.

أما في الخطوط الأمامية فإن المقاتلين كانوا مستعدين حتى اللحظة الأخيرة لإشعال الجبهة بالنار احتفاءً بانتصار الفرنسيين، ولكن الوقائع خذلتهم فوجهوا سبيلاً من الشتائم لحكم المباراة وناموا وهم يلغنون الفرنسي بوسيس لأنه أخطأ الهدف.

81

التزم مقاتلو حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي بشكل عام الأوامر القاضية بعدم الاشتباك مع الإسرائيليين في بيروت، رغم أن مجموعات محدّدة من الجهتين خرجت عن هذه التعليمات. حيث انسحب العديد من المقاتلين السنّة من صفوف الحزب التقدمي إلى صفوف المرابطون بسبب خيار الحزب أن المحافظة على الجبل أهم من الدفاع عن بيروت، كذلك شكّل الرافضون رفع الرايات البيضاء والذين انسحبوا من حركة أمل تنظيمًا جديدًا تحت قيادة حسين الموسوي أسموه حركة أمل الإسلامية، والتي وبدعم من الجمهورية الإسلامية الإيرانية، انطلقت في التصدي للإسرائيليين على تخوم ضاحية بيروت الجنوبية في خلدة والأوزاعي، وكذلك في مناطق الليليكي وحي السلم وغاليري سمعان.

وصلت تفاصيل هذه التطورات غير المُنتظرة على الأرض إلى الإسرائيليين عبر جهاز الأمن المركزي القواتي مما أزعج القيادة الإسرائيلية، التي اعتقدت لفترة أن بشير الجميل استطاع كبح جماح الحركة الوطنية اللبنانية ضد الإسرائيليين وعزلها عن المقاومة الفلسطينية عبر تشكيل "هيئة الإنقاذ الوطني"، خاصة وأن إيران هي التي تدعم حركة أمل الإسلامية، والتي كانت في هذه الأثناء تخوض حربها ضد العراق الذي كان بدوره يزوّد القوات اللبنانية بالكثير من سلاحها من ترسانة جيشه.

هذه المؤشرات الخطرة إضافة إلى الأنباء الواردة من سوريا والتي تفيد أن المئات من أفراد الحرس الثوري الإيراني يستعدّون لدخول لبنان لمساندة الفلسطينيين في قتالهم ضد الإسرائيليين، شكّلت مناخاً وضع الإيرانيين في صفوف أعداء الإسرائيليين والقوات اللبنانية

تماماً مثل الفلسطينيين والسوريين وقوات الحركة الوطنية اللبنانية. تجلّى هذا الجو المشبّع بالكراهية لكل ما له علاقة بإيران هذا اليوم على حاجز البربرية الذي يشكّل الحدّ الشمالي لحدود سيطرة القوات اللبنانية. فعند وصول سيارة مرسيديس دبلوماسية بداخلها أربعة أشخاص إلى الحاجز بمواكبة سيارة تابعة للشرطة اللبنانية، اطلع أمر الحاجز على جوازات سفر الركاب، فتبين له أنهم دبلوماسيون إيرانيون. اتصل مباشرة بضابط الدوام في جهاز الأمن المركزي التابع للقوات اللبنانية في الكرنتينا، فجاءت التعليمات بضرورة احتجازهم وإرسالهم مخفورين إلى شعبة التحقيق في جهاز الأمن بعد صرف سيارة الشرطة المواكبة. عندما وصل المحتجزون إلى "المجلس الحربي" في الكرنتينا كانت الأوامر قد سبقتهم بتصفيتهم. وبينما كان الحراس يتشاورون بطريقة تصفيتهم، فهم القائم بالأعمال محسن الموسوي مغزى الحديث وهو الذي يتقن العربية، فحاول التصدي لهم، فكان نصيبه أن قُتل مباشرة ثم تمت تصفية الثلاثة الباقين.

لتورية العملية، تمّ إرسال سيارة الدبلوماسيين إلى مدينة طرابلس، وتمّ ركنها في منطقة باب الرمل التي يسيطر عليها حزب البعث العراقي، وذلك للإيحاء بأن للحادث علاقة بالحرب القائمة بين العراق وإيران. وإمعاناً في التمويه تمّ رمي جثة القائم بالأعمال في ضواحي مدينة طرابلس، أما الجثث الثلاث الباقية فدفنت داخل حرم المجلس الحربي الكتائبي في الكرنتينا.

82

افتتح أريئيل شارون الاجتماع الأسبوعي في وزارة الدفاع بالقول:
 - يطالب العرب بقوة متعددة الجنسيات، لحماية المدنيين الفلسطينيين الذين سيقون في لبنان بعد خروج الإرهابيين. وذلك لحمايتهم من انتقام المسيحيين كما يدعون... ولكن الحقيقة هي أن

عرفات يخشى أن تقوم السلطات اللبنانية بجرف أرض المخيمات واكتشاف ترسانة الأسلحة والذخائر التي سينتقلونها للاستعمال بعد رحيلهم. لذلك يجب اقتحام بيروت لتجريد مخيمات الإرهاب من أسلحتها وتطهير ضاحية بيروت الجنوبية لكي لا يُعاد بناؤها من جديد، علماً أنه يجب عزل مدينة بيروت ومخيماتها عن ضاحيتها الجنوبية.

لم ترق هذه الفكرة للمجتمعين، حيث اعترض عليها البريغادير جنرال فورمان وساغي وموشي ليفي، فانتهى الاجتماع إلى قرار بالانتظار حتى تتجلى مفاوضات فيليب حبيب المستمرة مع الفلسطينيين، لكن شارون لم يقتنع بهذه النتيجة، فطلب من الجنرال أمير دروري وضع خطة لدخول بيروت خلال 48 ساعة. اعترض كبار الضباط على هذه الخطة أيضاً، لأن احتلال بيروت يحتاج إلى عشرة أيام على أقل تقدير، وإلا فإن الخسائر البشرية ستكون باهظة. أبرز هؤلاء المعارضين كان الكولونيل إيلي جيفع الذي طالب بعدم الانغماس في الشأن الداخلي اللبناني وعدم محاولة دخول بيروت إرضاءً للفريق المسيحي، مضيفاً أن النمط الذي تسير بموجبه الحرب ليس في صالح إسرائيل، لذلك أعلن أنه يقدم استقالته من جيش الدفاع الإسرائيلي.

في الجهة المقابلة كان عرفات مستمراً في خطته محاولاً كسب أكبر قدر من الوقت، فعندما لم يعد السؤال المطروح هل ستخرج منظمة التحرير من لبنان؟ بدأ "أبو عمار" يحبك الحيل لكسب المزيد من الوقت سائلاً: إلى أين سيذهب المقاتلون؟ الجزائر لا تريد استقبالهم، إلى ليبيا ليصبحوا رهائن لدى النظام؟ المغرب لا يريدهم خوفاً من مناصرتهم للبوليساريو، بينما سوريا رفضت استقبال أحد منهم سوى كبار الضباط. ثم المشكلة الأخرى، كيف سينتقلون؟ براً؟ بحراً؟ جواً؟ وأخيراً خرج بفكرة ضرورة تراجع الجيش الإسرائيلي عن خطوط التماس.

ولكن شارون صمّم أن لا يتراجع لعرفات، رغم ضغوط قيادة الأركان والوزراء، ذلك أنه كان مدعوماً من رئيس مجلس الوزراء

شخصياً، والذي ردّ على ريغان المنزعج من تصرفات شارون قائلاً: إنني أشعر وكأن جيشي يحاصر برلين، وكأن شارون على وشك اعتقال هتلر.

صفاقة بيغن هذه لم تتوقف عند هذا الحد، بل شرع بالضغط على الأميركيين معللاً بأنه أوقف الهجوم على بيروت بسبب وعودهم إنهاء الأزمة سلمياً بطرد الإرهابيين من بيروت مهدداً بالقول: إنني لست مستعداً للانتظار أسابيع وشهوراً لينتهي حبيب من تحضيراته، أريد أن أرى الإرهابيين يرحلون والآ...

83

- لقد طلبتُك يا أخ "أبو أرز" لنبحث موضوع الصاروخ يهدوء وسرية ووجهاً لوجه، خشية أن تكون شبكة هواتفنا تحت المراقبة. أرجو أن تسامحني على التذخين فأنا لست صائماً... ألسنا في حالة جهاد؟ أشعل البروفسور سيجارة بدوره ونفت دخانها وكأنه يحاول إخراج كل هموم الدنيا المتراكمة في صدره مع دخانها.

- شيء من هذا القبيل، في الواقع لقد أنهيت عملي وجهّزت الصاروخ حسب النظرية التي ارتأيت أنها الأنسب في التعامل مع الطيران الحربي الإسرائيلي، وأنا جاهز لتسليمكم الصاروخ في أي مكان تريدون.

- عظيم جداً، لا نريد أن نتعبك في هذا الموضوع، فواجبنا أن نجلبه نحن من عندك لنرسله إلى البقاع.

- ماذا؟ ترسلونه إلى البقاع! ألن تطلقونه من بيروت؟

- بالطبع لا، لا يمكننا المخاطرة بإطلاقه من بيروت، ذلك أن طائرات التجسس الإسرائيلية تداوم على تصوير جميع التحركات التي

تجري في بيروت على مدار الساعة، وهكذا قد نعرض مكان إطلاق الصاروخ إلى القصف، بينما يمكننا إطلاق الصاروخ من البقاع من أي منطقة نائية دون تعريض أحد للخطر.

- كنت أفضل لو تم إطلاقه من بيروت من سطح بناء مرتفع لنُري الإسرائيليين كيف ندافع عن كرامتنا، ولكن طالما الوضع هكذا فليكن إطلاقه من البقاع.

- إذا متى تريدنا أن نجلب الصاروخ من عندك؟

- لا داعي لذلك، فأنا لا أريد تسليمه لكم مباشرة خوفاً من انفضاح أمري، وأنت تعرف كم هناك من جواسيس بيننا.

- نعم أعرف ذلك، ولكن ما هي خطتك؟

- سأقوم بتسليم الصاروخ مباشرة إلى جماعتكم في البقاع، لأنني أضمن بهذه الطريقة عدم تسرب أي معلومات عني للإسرائيليين.

- ولكنها عملية متعبة وخطرة عليك، إضافة إلى أنني أنهيت جميع الترتيبات الخاصة بالاستلام والتسليم لحظات قبل وصولك.

- لا بأس، أنا مستعد للتنفيذ، ولكن عليك إلغاء القسم الخاص

بالاستلام والمحافظة على الجزء الخاص بالتسليم الذي سأقوم به أنا.

- كما تريد - أجاب "أبو حسين" على مضض - لقد نسقتُ

ترتيبات العملية في البقاع مع الأخ "أبو العبد" مسؤول المنطقة وهي كالتالي: سيقوم بالعملية الملازم ماهر والدب من عديد الـ 17 حسب الخطة التي سيضعها الأخ "أبو العبد".

- هذا يعني أن لا علاقة لي بهما.

- لا، بل لك علاقة مع الأخ ماهر فقط الذي ستسلمه الصاروخ في

بلدة قب الياس في البقاع. إن ماهر يملك مشغلاً لتصليح أجهزة التلفزيون في سوق قب الياس وهو يسكن مباشرة فوق المشغل.

- أنا أعرف بلدة قب الياس جيداً وهذه نقطة لصالحى حيث أنني لست بحاجة إلى سؤال العديد من الناس لأصل إلى العنوان.

- هناك تفصيل صغير يجب أن تحفظه جيداً. بما أنك لا تعرف ماهر وهو لا يعرفك، لذلك اتفقنا على كلمة سر يتم بموجبها تسليمه الصاروخ. عليك أن تسأل ماهر عندما تقابله التالي "هل عندك تلفزيون أسود/أبيض 16 إنش؟" فإذا أجابك "سأطلبه لك من اليابان" يكون هو ماهر شخصياً وتسلمه الصاروخ.

أخرج البروفسور ورقة دوّن عليها كلمتي السر.

- لقد سجّلتهما كي لا أنسى.

- والآن متى تخطّط لتسليم الصاروخ؟

- أعتقد أن يوم عيد الفطر سيكون الأنسب، حيث أن المعابر ستكون مكتظة بالعابرين، مما يجعل نقاط التفتيش تخفّف من التدقيق في السيارات العابرة.

- فكرة ممتازة، وبما أن اليوم هو ليلة القدر فأعتقد أنك ستقوم بالعملية بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

- أرجو أن تكون عملية مباركة وناجحة.

- كلنا أمل بذلك... بالمناسبة، هل قرأت مقابلة صلاح التعمري مع المرسلين الأجانب، والذي أجاب عند سؤاله لماذا كان يعلم أطفال الأر بي جي على استعمال الأسلحة فقال: عندما تعيش على ضفة النهر، فإنك تعلم أطفالك السباحة.

- جميل جداً، وأنا بدوري أقول: عندما تعيش في الغابة، فإنك

تعلم أولادك اصطياد العصافير.

84

لم تحتمل "أم راشد" فكرة قضاء عيد الفطر دون أن تجتمع العائلة كاملة حول مائدة العيد. فتصنعت المرض، لتضغط على زوجها ليذهب إلى بيروت صبيحة يوم العيد ويحضر راشد، الذي تحجج بضرورة بقائه في بيروت لمراجعة مواد الدراسة للسنة القادمة مع البروفسور، ولعدم توفر مادة البنزين للسيارات ليصل إليها. ولكن عبثاً حاول راشد التملص من الذهاب إلى بلدة بحدون، وعبثاً حاول والده التهرب من الذهاب إلى بيروت، فإن "أم راشد" أصرت، فكان لها ما أرادت، وإلا فإنها ستمرض ثانية، وستقضي كل أيام العيد في الفراش، وسيصبح جو البيت بائساً وعابقاً برائحة دواء الصداع الصيني البغيض.

من جهة تهلّل وجه البروفسور سروراً عندما علم أن والد راشد سيأخذه في سيارته إلى الجبل صبيحة يوم العيد.

- اسمع يا راشد، ستحمل الصاروخ في سيارة والدك وتوصله إلى الشبان في البقاع.

- أنا؟

- نعم أنت، فلن يشكّ أحد برجل وابنه في زحمة العيد.

- ولكن أين سأخفي الصاروخ وكيف سأنقله؟

- ما عليك سوى أن تكذب كذبة بيضاء على والدك وأنا سأتولّى الباقي.

- وماذا تقصد؟

- أقصد أنك ستقول له عندما يأتي إلى بيروت، أن عليك الذهاب بالسيارة إلى الجامعة لتحضر بعض الأوراق الضرورية لصديقك ليتسجل للعام الجامعي القادم، وأنت ستوصلها له في بلدة صوفر القريبة من بحدون. بينما في الواقع سنأتي إلى منزلي حيث أخفي لك الصاروخ في

السيارة وتعود إلى البيت، لتتطلق مع والدك إلى بحدون، حيث سينزل هو، وتنتقل أنت لتوصل الأوراق إلى صديقك في بلدة صوفر القريبة، بينما ستذهب أنت في الواقع إلى البقاع لتوصيل الصاروخ وملء خزان السيارة بالبنزين كي لا يشعر والدك أنك ذهبت أبعد من صوفر.

85

استنكاراً لاستمرار مخطط تجويع وتعطيش سكان بيروت وقطع الكهرباء والمحروقات عنهم، دعت الهيئات الشعبية والإنسانية للتظاهر إلى مكتب رئيس الوزراء للضغط عليه ليستقيل، عسى أن تحرك هذه الخطوة السلبية الأمور، بعد أن قاطع الرئيس الوزان اللقاءات مع فيليب حبيب بدون جدوى.

تجمعت الحشود قرب دار الإفتاء وسارت نحو مكتب رئيس الوزراء عبر منطقة الصنائع هاتفةً ضد الحصار وإسرائيل والولايات المتحدة ومطالبة الرئيس الوزان بالاستقالة، ومهذدة بحمل السلاح والاتجاه إلى الخطوط الأمامية لقتال الإسرائيليين. بينما الطائرات الحربية الإسرائيلية تحوم في الجو وأصوات انفجار القذائف والصواريخ تُسمع من بعيد.

خليط من رجال الدين وسيدات البيوت ورجال الأعمال والباحثين المتجولين والأولاد جمعتهم مصيبة واحدة، الخوف من الغد وما سيأتي معه؟ وهل سيكون أسوأ من اليوم؟ وهل هناك أسوأ من اليوم؟

- ليت فيليب حبيب يزور مستشفى الجامعة الأميركية ليرى ماذا فعلت أسلحتهم وذخائرهم التي يزودون بها إسرائيل بالمدنيين اللبنانيين، ويشاهد ضحايا القنابل الفوسفورية والعنقودية والانشطارية التي تفخر أميركا بوضع اسمها عليها. قال راشد.

إلى جانبه سارت مدام ناديا تطالب بحمل السلاح لتتخلص من الأزمة التي تعيشها داخل بيروت وعلى حدودها: تصوّر يا راشد أن الخبز الذي يصادره المسلحون من الأفران يبيعونه للباعة المتجولين، والذين يبيعونه بدورهم لنا بأسعار مرتفعة من على ظهر سياراتهم.

- أزمة الرغبة هذه ستستمر طويلاً، ذلك أن باخرة الطحين التي كانت على وشك الرسو في مرفأ بيروت أمس، هربت بعد أن قصفها الإسرائيليون. علّق راشد.

- إذاً سيستمر مسلسل الإهانات طالما مادة الطحين مفقودة من الأسواق، وسيستمر السلاح بفرض منطق القوة على الشعب الأعزل. في الواقع إنني لم أعد أستطيع التمييز بين أيهما الأسوأ، المسلحون أم الإسرائيليون، فكلاهما يستخدم سلاحه ضد الشعب المسالم لفرض منطقته.

انفجرت مدام ناديا في محاولة لإخراج ما يجيش في صدرها من غضب على الأوضاع المتأزمة والتي أوصلتها إلى حافة الإحباط والكآبة. فأكثر من نصف أفران بيروت أقفلت، وارتفع ثمن 20 ليترًا من البنزين في السوق السوداء من 30 ليرة في الأسبوع الماضي إلى 100 ليرة اليوم، والناس تشتري أي شيء تجده في الدكاكين خوفاً من الانقطاع التام للمواد التموينية بسبب الحصار المفروض على بيروت.

- كأن الهمّ المعيشي والحصار الخانق لا يكفيان فالمسلحون أقفلونا بالأمس بإطلاق النار ليلاً احتفالاً بليلة القدر، ألم يكن أجدر بهم أن يوفروا ذخيرتهم لاستخدامها ضد الإسرائيليين؟

تدخل علي قائلاً: إن هذه حركات عبثية ليست من أخلاق الجهاد الحقيقي الذي يُلزم المقاتل بالتضحية بالنفس في سبيل الآخرين.

- هل سمعت ما قاله "أبو عمار" أمس؟ أردف جمال: إذا حاول الإسرائيليون اقتحام بيروت فسنفجر 300 مستودعاً للذخائر لتتحول المدينة إلى ركام.

- وهذا ليس بجهد أيضاً، إنه انتحار، والانتحار مردول في الإسلام. بالمناسبة هل سمعت ما قاله السفير الإيراني في بيروت حول الدبلوماسيين الإيرانيين الأربعة المخطوفون؟ "إذا خسرنا هؤلاء الأعداء الأربع... فسنريح الثلاثة ملايين لبناني من شرّ بشير الجميل". هكذا تكون مقارعة الأعداء وإلا فلا.

- كفى، كفى. صرخت مدام ناديا: كفاكما استشهداً بالغرباء واستقواءً بهم. ألا تسمعان عويل الأطفال وصراخ النساء وأنين الشيوخ، ونحن على أبواب العيد؟

التقط راشد طرف النقاش محاولاً التخفيف من حدّته: يا إخوان، كان جدّي رحمة الله عليه يقول، إن لبنان يجب أن يكون كالماء، لا لون له ولا رائحة، رغم أن الجميع بحاجة إليه، وإذا اختلّ أيّ من هذين العنصرين فيه فلا يعود لبنان واحة ينهل منها جميع مواطنيه وجيرانه. وأعتقد أن كلامه هذا ما زال يصحّ اليوم.

86

عيد فطر كئيب كان يظلل بيروت، فالألعاب النارية الاحتفالية تحولّت إلى تفجيرات قاتلة، وموائد العيد العامرة صارت امتداداً لأيام الصيام بفعل الحصار التمويني، أما ثياب العيد فإن موضحة العام أصبحت الكاكي والمرقّط، بينما ألعاب العيد المفضّلة لدى الأولاد أضحت شظايا القذائف والرصاص الفارغ.

قبور الأحبة التي غطّتها الرمال وغاب عنها الريحان والزهور، هجرها الزوّار أيضاً إلا قلة استطاعوا تدبير أمرهم، أو ساقتهم ظروفهم إلى المدافن، كما حصل مع "أبو راشد"، الذي أوصله ابنه لزيارة قبري والديه وغسلهما وقراءة الفاتحة وما تيسر من القرآن الكريم عن روحهما. فيما

انطلق راشد إلى منزل البروفسور، الذي اهتمّ بتركيز الصاروخ تحت المقعد الخلفي للسيارة وأعطاه أوراق التعليمات كما زوّده بكلمتي السرّ. مع عودة راشد من مهمته، انطلق مع والده نحو بوابة المتحف وهو وراء المقود و"أبو راشد" إلى جانبه متجهين نحو الجبل عبر الكثبان الرملية على جانبي الطريق والمتاريس المنتشرة هنا وهناك، ليستقبلهما صف طويل من السيارات عند حاجز العدلية، ولحسن حظهما فإن التفتيش لم يكن دقيقاً. لذلك ما ان انقضت نصف ساعة حتى كانت سيارتهما وجهاً لوجه مع الحاجز الإسرائيلي. أخذ الجندي الإسرائيلي هويتيهما إلى أمر الحاجز بينما كان جندي آخر يفتش صندوق السيارة. أدار راشد راديو السيارة فانطلقت أغنية من صوت فلسطين:

من صبراً... للمنارة

من الحمراً... للشياح

تهنّف لنا الحجارة

املوا الطرق سلاح

سلاح، سلاح، سلاح

نحمي ظهور الشوارع

نحمي شمس الصباح

نحميها بالمدافع

من بيت لبيت

نحمي كل البيوت

- أستاذ وهبه، الرجاء أن تركز سيارتك جانباً وتتفضلاً معي عند الضابط أمر الحاجز. قالها الجندي الإسرائيلي بنبرة أمرّة وبلغة عربية ركيكة.

نظر راشد في عيني والده بينما رفع والده يده مستغرباً هذا الطلب، خاصة وأن سيارتهما كانت الوحيدة التي تمّ إيقافها إلى جانب

الطريق خلال النصف ساعة الأخيرة. ألف سؤال وسؤال دار في خلد راشد. هل هناك جواسيس إسرائيليون بين أفراد المقاومة؟ هل كان والبروفسور تحت المراقبة؟ هل شكّ الجندي الإسرائيلي بسبب الأغنية الوطنية في الراديو؟ أم هل كُشف وجود الصاروخ معه؟

تحت أنظار الجندي المتأهب لمرافقتها، ركن راشد السيارة بينما العرق البارد يتصبب من جبهته وقد تخطّب وجهه باللون الأحمر محاولاً إخفاء عصبية الظاهرة. نزلا من السيارة وسارا باتجاه الخيمة المنصوبة التي أشار إليها الجندي الإسرائيلي. ما أن وصلا قريباً من مدخل الخيمة حتى خرج منها ضابط إسرائيلي يضع ثلاث نجوم على كل كتف حاملاً بطاقتي هويتهما وهو يمعن النظر فيهما. خفت حدّة توتر راشد عندما لاحظ أن الضابط الإسرائيلي يدقق في وجه أبيه أكثر منه، ولكنه خشي في الوقت نفسه على سلامة والده.

- أنت كمال وهبه؟ سأله الضابط بلهجة عربية سليمة.

- نعم، وهذا ابني راشد. أجاب "أبو راشد" مستغرباً.

- والدك راشد أيضاً، أليس كذلك؟

- نعم، يمكنك التأكّد من بطاقة هويتي التي بين يديك!

- هل لا زال أبوك على قيد الحياة؟

- رحمة الله عليه، لقد توفي منذ ست سنوات...

- رحمة الله على عمو راشد...

فغر "أبو راشد" فمه دهشة بينما كان راشد يحملق في هذا الضابط الإسرائيلي الغريب.

- لا تستغربا فأنا أعرفك وأعرف أباك من أيام مكتبته في بناية

فياض في شارع المرفأ في بيروت، حيث كان له مكتب للشحن والترانزيت.

- صحيح! ولكن كيف؟ سأله "أبو راشد" وهو يحكّ رأسه مستغرباً.

- أنا يوسف ابن "استير مزراحي" التي كانت تعمل سكرتيرة في مكتب والدك هناك، هل تتذكرها؟

- نعم، نعم، أتذكرها جيداً كنا نحبها كثيراً، كما أنني أعرفك أنت أيضاً، نعم، لقد تذكرتك الآن، كنت تأتي في بعض الأحيان إلى المكتب معها.

- صحيح، رحمة الله عليها كانت تأخذني إلى المكتب في العطل المدرسية.

- رحمة الله عليها، لقد هاجرتم إلى إسرائيل في العام 67 بعد حرب حزيران أليس كذلك؟

- صحيح، وكان عمري أربعة عشر سنة وأكملت تعليمي في حيفا حيث سكنا، ثم تخرّجت مهندساً معمارياً. ولكن بما أنني في الاحتياط فقد تمّ استدعائي للخدمة في عملية سلامة الجليل.

- ومتى ستنتهي هذه الحرب اللعينة؟ سأل "أبو راشد".

- لا أحد يعرف، فكأننا هنا جنود ننفذ الأوامر، ولكن إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة لا تتوانى عن الطلب. على كل سأعطيك ورقة تسهل تنقلاتك على الحواجز الإسرائيلية.

- أشكرك كابتن يوسف، والآن علينا أن نذهب، وإلاّ انشغل فكر "أم راشد" علينا.

أعاد إليهما الكابتن يوسف بطاقتي هويتيهما وأعطاهما ورقتي تسهيل مرور بعد أن كتب عليهما اسمهما بالعبرية وودّعهما مكرراً طلبه اللجوء إليه في حال الضرورة.

انطلقت السيارة مجدداً وقد ارتاحت أعصاب راشد وعاد لون وجهه الطبيعي إليه. عبرا مناطق فرن الشباك والحازمية والفياضية نحو الجمهور حيث كانت دبابتان سوريتان محروقتان إلى جانب الطريق. كذلك في منطقة عاريا كانت دبابة أخرى وإلى جانبها بين

الأشجار انتشر العديد من الدبابات الإسرائيلية. أمّا الأبنية على امتداد الطريق فكانت إما محطّمة أو مهذّمة أو محروقة، بينما الركاب والردم منتشر في كل مكان. عند مستديرة مدينة عاليه فاجأتهما عجة دبابات إسرائيلية تكاد تسدّ الطريق نحو مدينة بحمدون التي ما ان وصلها حتى انعطفا يميناً باتجاه منزلها الصيفي. حاول "أبو راشد" إقناع ابنه بالنزول معه للسلام على أمه، ولكنه تمنع واعداً إياه بعدم التأخر في العودة.

انطلق راشد مجدداً بين السيارات المحطّمة والمحروقة على جانبي الطريق باتجاه بلدة صوفر حيث واجهته حركة كثيفة للآليات الإسرائيلية. ما أن عبر بلدة صوفر حتى استوقفه حاجز إسرائيلي سأله عن هويته ومن أين هو قادم وإلى أين يذهب؟ أبرز له الورقة التي أعطاه إياها الكابتن يوسف فحيّاه الجندي الإسرائيلي وفتح له الطريق.

كانت الطريق شبه خالية من السيارات العابرة بالاتجاهين، ولكن آثار المعارك كانت حاضرة للتذكير بما قد حصل. كان هذا الحاجز الإسرائيلي هو آخر حاجز لهم في الجبل، أما بعده فكانت الطريق مفتوحة نحو البقاع. عبّر راشد حواجز الجيش السوري في مناطق المديرج وظهر البيدر والمريجات ليصل إلى منعطف بلدة مكسه ومنها إلى بلدة قب الياس.

قاد راشد السيارة حسب تعليمات البروفسور، متتبّعاً معالم بلدة قب الياس التي وصفها له قبل الانطلاق. ما أن وصل إلى السوق حتى أحسّ بالطمأنينة لمرأى الناس والأطفال في ثياب العيد. توقّف أمام صيدلية مفتوحة وسأل عن عنوان ماهر الذي لم يكن يبعد أكثر من 100 متر عنه. وأخيراً عندما تواجه مع الملازم ماهر اضطرّ لقراءة كلمة السرّ من الورقة التي خبأها في جيبه كي لا يخطئ، وسلّمه الأمانة.

87

في محاولة لاستيعاب نقمة الإدارة الأميركية ضد تصرفات الحكومة الإسرائيلية في لبنان، وفي رد على إيقاف واشنطن شحن 5000 قنبلة عنقودية إلى إسرائيل، وفي محاولة لإظهار صواب تصرفاتها ضد اللبنانيين المحاصرين في غرب بيروت، قامت وزارة الخارجية الإسرائيلية بتسليم الإدارة الأميركية وثائق وصوراً تظهر الأرقام المتسلسلة لبنادق M16 تمّ ضبطها مع المقاومة الفلسطينية كانت الولايات المتحدة قد باعها إلى المملكة العربية السعودية التي قدّمتها بدورها كهدية إلى منظمة التحرير الفلسطينية، كما أنها أرسلت صوراً عن جوازات سفر لأجانب تمّ اعتقالهم كانوا يقاتلون مع منظمة التحرير، وهم من جنسيات آسيوية وأفريقية وأوروبية، مما يضعهم في صفوف الإرهابيين الدوليين كما أشارت الخارجية الإسرائيلية.

هذا التشويش الذي واظبت الحكومة الإسرائيلية على بثّه لتحريض الإدارة الأميركية ضد منظمة التحرير شكلاً، والذي كان تأثيره ينعكس على المدنيين المحاصرين في العاصمة فعلاً، لم يمنع الإدارة الأميركية من إعادة تذكير الشيخ بشير الجميل ثانية بأنها تدعم ترشيحه لرئاسة الجمهورية اللبنانية.

عندما حدّد كامل الأسعد، رئيس مجلس النواب اللبناني يوم 23 تموز/يوليو موعداً لبدء عقد دورة جديدة لمجلس النواب، أصبح باستطاعته الدعوة لانتخاب رئيس جديد للجمهورية اللبنانية في أي يوم خلال شهر من تاريخه. أما في حال لم يتم التوصل إلى تأمين النصاب القانوني خلال هذه المهلة، فسيضطر مجلس النواب اللبناني للاجتماع حكماً خلال ثلاثين يوماً دونما دعوة، وذلك لتنفيذ عملية التصويت، شرط أن يكون عدد أعضائه المجتمعين لا يقل عن 62 نائباً. عندها،

وفي حال لم يتم انتخاب رئيس جديد خلال هذه المهلة، سيتحتّم على رئيس الجمهورية المنتهية مدته تعيين رئيس جديد للحكومة، على أن يكون مارونياً ليتولّى مهام رئاسة الجمهورية.

استناداً إلى دعوته السابقة هذه، وبعد إجراء مشاورات مع مختلف الكتل النيابية اللبنانية، أعلن رئيس مجلس النواب عن تحديد موعد الدورة الأولى في 3 آب/أغسطس. وبناءً على هذا أعلن بشير الجميل عبر إذاعة صوت لبنان ترشيحه رسمياً مؤكداً أن ترشيحه ليس مناورة، وأنه لا يترشّح ليتراجع لاحقاً. ردّات الفعل على هذا الترشيح من الطرف الآخر جاءت عنيفة جداً، إذ صرّح وليد جنبلاط بأن ترشّحه هو ترشيح الدبابات والمدافع الإسرائيلية، بينما قال رشيد كرامي أن العنف أصبح شرطاً للوصول إلى رئاسة الجمهورية، أما الإذاعة السورية فأعلنت أن بشير الجميل "خائن".

88

عصر أمس، انطلق الملازم ماهر ومساعدُه الدب بسيارة الأول من بلدة قب الياس قاصدين جبل الصويري عبر بلدات شتورة وبر الياس باتجاه منطقة المصنع حيث انعطفاً يميناً قبل الوصول إليه ميممين قرية الصويري. كانا متتكرين بزّي صيادين وكانا يضعان بنادق الصيد وأقفاص طيور المطوق التي تعمل على جذب الطيور العابرة، إلى جانب جهاز التسجيل الذي يضم كاسيت أصوات زقزقة العصافير، وبقربها علبة تحتوي مادة المقصاص التي تستعمل كدبق لتلتصق عليه العصافير، إضافة إلى ذخائر الصيد وبعض الطعام والماء، وقد وضعنا تحتها حقيبة الصاروخ التي بدت وكأنها حقيبة بندقية صيد إضافية. كان الهدف هو استكشاف المنطقة الجبلية التي رغم أنهما يعرفانها عن ظهر

قلب، فقد أصرّ عليهما مسؤولهما العسكري "أبو العبد" أن يعايناها قبل يوم من تنفيذ العملية. وحسب التعليمات، اختارنا نقطة ظليلة في الجهة الشمالية الشرقية من الجبل أخفيا فيها حقيبة الصاروخ تحت شجرة كثيفة.

واليوم عصرًا عاد الملازم ماهر والدب ثانية بزّي صيادين لتنفيذ العملية. أخرجنا الحقيبة من تحت الشجيرة وسحبنا القاذف والصاروخ منها. ابتسم الدب مشيراً إلى رسوم رنا الظاهرة على رأس الصاروخ من القاذف، بينما تفقّد الملازم ماهر الأرقام المحفورة على القاذف متبيناً موديله وتاريخ الصنع. تعود خبرة الملازم ماهر على صواريخ سام 7 المضادة للطائرات إلى أكثر من سنتين، حين تمّ فرزه للالتحاق بوحدة "سُحْب الجحيم" الصاروخية في جنوب لبنان، بعد أن أتمّ دورة على صواريخ "ستريلا". أدار ماهر ظهره لقرص الشمس الذي انحدر غرباً استعداداً للمغيب ثم تسلّق تلاً صغيراً إلى جانب الجبل متفحصاً السماء:

- ممتاز، هذا أفضل مكان للإطلاق، فهو محجوب عن الرادارات الإسرائيلية، ومرتفع كفاية لنكسب المزيد من المدى القاتل ولنبقى بأمن من الدفع الناري الخلفي، والأهم أن أشعة الشمس ليست مواجهة لعيوننا. لا تنسَ يا دب أن تضع القطن في أذنيك وتفتح فمك عند الإطلاق للتخفيف من الضغط على أذنيك.

حصل الدب على لقبه هذا لشكله الضخم، فبطول 192 سنتم ووزن 112 كيلوغراماً فإن لقبه يناسبه بجدارة، ولقد اختاره الملازم ماهر لهذه المهمة لأنه سريع البديهة، وكتوم، وخاصة لأنه قوي البنية. لذلك وخلال اليومين السابقين خصّص له ماهر دورة نظرية وعملية مكثفة على استعمال (السام 7).

بالنسبة للملازم ماهر فإن إسقاط طائرة إسرائيلية كان حلم حياته، رغم أنه حاول تحقيق ذلك عدة مرات في الماضي فلم يفلح. لهذا السبب

اختاره المقدم "أبو العبد" لهذه المهمة، وخاصة عندما علم أن هذا الصاروخ بالذات قد تمّ تطويره عما سبقه.

- عليك أن تقف هنا تماماً في مكاني وتوجّه الصاروخ بنفس هذا الاتجاه تماماً، وانتبه إلى زاوية الارتفاع يجب أن تكون في البداية على 45 درجة وإذا اضطررت يمكنك رفعها حسب حركة الهدف. ولا تهتمّ بالتدقيق في هوية الهدف، فجميع الطائرات في الجو هي إسرائيلية. أهم شيء في الموضوع هو أن تثبت القاذف على كتفك وتبقى مستعداً. ربما ستبقى في هذا الوضع لأكثر من ساعة، ولكن تذكر أن كل ثانية لها ثمنها، لذلك لا يمكننا هدر الوقت بالاستعداد، بل يجب الاستفادة من الوقت بحسن التصويب والتوجيه.

ثبت الدب القاذف على كتفه الأيمن وأمسك سبطانة الغاز بيده اليسرى بينما وضع يده اليمنى على الزناد. أما الملازم ماهر فصحّح من زاويتي الإطلاق الأفقية والعمودية عبر توجيه ذراعيّ وجسم الدب بيديه.

والآن أريدك أن تحافظ على وقفتك هذه، أرجو أن تتنفس بطريقة طبيعية كي تبقى محافظاً على هدوتك ولكي نتمكن من تحديد مصدر صوت الطائرات عندما تظهر.

في هذا الوقت جلب ماهر أقفاص العصافير ووضعها قرب الشجيرات، وعاد وأحضر ثلاث بطاريات إضافية للصاروخ في حال الحاجة إليها، ثم عاد وجلب الطعام وزجاجة ماء ليروي ظمأه، وإذ وضعها على شفتيه ورفع رأسه ليشرب منها، شاهد ذبلاً متقطعاً من البالونات الحرارية البيضاء مندفعة في السماء وراء ذلك المثلث الفضي الذي يعرفه جيداً، وفجأة هدر الصوت. وبردة فعل تلقائية، صرخ في الدب ليشتغل نظام الصاروخ الكهربائي. في تلك اللحظة لمح الدب الطائرة مباشرة فوق رأسه وعلى ارتفاع متوسط، فرفع زاوية القاذف فصدر صوت المنبه وأضاء ضوء أخضر عليه يشير أن أنه تمّ التقاط إشارة الطائرة، إثر ذلك ضغط الدب على الزناد إلى نصف المسافة

فتحرك الجيروسكوب محددًا إحداثيات الطائرة. وعندما تم ذلك صدر صوت المنبه ثانية وأضاء النور ثانية مؤكداً إتمام تحديد الإحداثيات والجهوزية للإطلاق. هنا صرخ الملازم ماهر "أطلق الآن". ضغط الدب على الزناد إلى آخر المسافة، فزجر الصاروخ منطلقاً من القاذف مُطلقاً سحابة صغيرة من النار والدخان من مؤخرة القاذف. وإذ باشر ارتفاعه الأفقي وهو يغزل على نفسه برزت من أطرافه أربعة زعانف صغيرة عدلت من زاوية انطلاقه فاستقام إلى حد ما، ولكنه ظل بعيداً عن مرمى الهدف رغم متابعتها الحثيثة لخط البالونات الحرارية البيضاء المنبعثة من طائرة الفانتوم. وما أن انقضت خمس ثوان حتى انحرف الصاروخ فجأة وضاعف من سرعته متوجّهاً بشكل مباشر إلى جسم الطائرة. وبووم... انفجر الصاروخ في جسم الطائرة مطلقاً كرة من النار تبعثها سحابة سوداء.

رفع الملازم ماهر يده عن أذنيه إلى السماء صارخاً "الله أكبر" بينما كانت مظلتي تهبطان من الطائرة التي هوى حطامها مشتعلًا.

- أسرع، دعنا نهرب من هنا قبل أن يطلع الطيران الإسرائيلي.

تركنا العصفير والطعام والماء مكانها وحملنا القاذف والبطاريات وآلة التسجيل وأسرعنا إلى السيارة متوجهين إلى بلدة قب الياس. وما أن وصلنا إلى طريق دمشق - بيروت الدولي، حتى سمعنا هدير الطائرات الإسرائيلية في الأجواء.

89

رمى جمال بجسده المنهك على الكرسي متهدأ وقد وضع رأسه بين يديه وأطرق نحو الأرض.

- السلام على المعرفة يا جمال، شو القصة؟ سألته مدام ناديا مستغربة.

- إنها مأساة، إن حياتنا كلها مأساة في عرض مستمر وبنجاح كبير. ردّ عليها جمال والغصّة في حلقه.

- ماذا جرى لك لتتشاءم بهذا الشكل؟

زَفَر زفرة عاصفة ماسحاً جبهته: لن يتوقف الإسرائيليون عن قصفنا حتى يقضوا علينا جميعاً.

- يظهر أنك ذهبت إلى مخيم برج البراجنة من جديد؟

- نعم، لقد ذهبت لزيارة دار عمي هناك من جديد، وفجأة ومن جديد بدأ القصف علينا، عندها لم نعد نعرف إلى أين نهرب، بينما القذائف تسقط من حولنا، والأرض تزلزل تحتنا، ورائحة الحرائق تزكم أنوفنا، صرنا نصطدم بعضنا ببعض لا نعرف إلى أين نتجه، بينما ابن عمي الصغير يبكي، وزوجة عمي تبحث عن بطاقات هوية العائلة، وخطيبيتي سوسن تضرب كفاً بكف. فوضى عارمة وخوف كبير سيطرا على كل أفراد العائلة وهي تجري نحو المسجد القريب كالعادة اتقاءً من القنابل والصواريخ المتساقطة وشظاياها. وعندما وصلنا، بقي ابن عمي ياسر يرتجف وينتفض طوال الوقت، وأصوات الانفجارات والمضادات تلعغ حولنا بينما سيارات الإسعاف تجوب الأزقة والحواري. لقد عاد الألم إلى ذراعي بسبب توتر أعصابي من هذا الوضع، ففي المعركة تعرف أين عدوك وتشبعه ضرباً وتكون مستعداً نفسياً لتلقّي ضرباته... ولكن من أين تأتي هذه الرائحة الزكية؟

نظرت إليه مدام ناديا مستعربة: إنها من عقد أزهار الكاردينيا هذا.

- إن رائحته جميلة جداً، لقد حول تفكيرني عن مأساتي في المخيم.

- لقد قطفت الأزهار من حوض أزهارني الذي أحافظ عليه على الشرفة وأرويه دائماً رغم انقطاع الماء. هكذا أنا أتحدى إسرائيل، يجب أن نبقى أقوياء ومحافظين على صمودنا كي لا تنتصر إسرائيل علينا.

- والله لقد تغيّرتِ يا مدام، لقد أصبحت أقوى وأصلب.
- يا ابني لقد اكتشفت بالطريقة الصعبة أنك في هكذا وضع إما تصمد وتتصدّى، وإما يسحقك شارون والاككتاب.
- بالفعل، أعتقد أنه لا يوجد خيار آخر.
- انظر إلى الرسم الذي أعمل عليه على الحائط هناك.
- من الذي صنع هذا الرسم؟
- لا أحد غيري، لقد دهنت الحائط باللون الأبيض، ورسمت إسكتش اللوحة التي ستعبّر عن مأساة الحرب والحصار وصمود بيروت وتصديها للعدو، ستكون "غيرنيكا بيروت"، بالإذن من بيكاسو...
- وما هي "غيرنيكا" هذه؟ وما هذا الذي رسمته؟
- إن الطائرة الحربية التي إلى أعلى اليمين تمثّل العدو، والقنابل المتساقطة تمثّل الاعتداء، والمبنى المحترق وبقع الدم على الأرض تمثّل الضحية، أما السيدة الجالسة على الأرض وقد أحتت رأسها على صدرها ووضعت يديها فوق رأسها بينما طائر أبيض يرفرف فوق رأسها فيمثلان القنوط والأمل، أما الحصان الأبيض المنتصب على قائميه الخفيتين فيمثل التحدي والتصدي، بينما الطائرة التي تحترق وتسقط إلى أقصى اليسار فتمثّل الانتصار.
- نعم، إنه بداية الانتصار، ألم تسمعي عن الطائرة الإسرائيلية التي أسقطت اليوم فوق البقاع؟
- لا شك، إنه عمل جبار، ولكن لماذا لم نسمع بهذا أخبار سارة من قبل؟
- وصل "رويتر" وتناول كرسيّاً جلس عليه قائلاً: الحمد لله، لقد تمّ منحنا الكهرباء ليلاً على غير عادة، إن حظنا كبير.
- إن حظي كبير، لأريكم اللوحة التي أعمل عليها أثناء النهار، ما رأيك فيها؟

- لا يمكنني أن أحكم عليها تماماً قبل وضع كل الألوان عليها، ولكن مجرد فكرتها تمثل إنجازاً مهماً لنا في هذا الشارع، خاصة وأنها احتلت مكان أكداس النفايات.

- يهمني أن أسمع رأيكم، لأن هذه اللوحة الجدارية ليست لي وحدي، بل لي ولكم، كنت أحب أن أسمع رأي "أبو عفيف"، وراشه وعلي...

- علي كالعادة ذهب إلى مصلى "اللجنة الثقافية الإسلامية" في المصيطبة، أما راشد فهو في بلدة بحدون مع عائلته، وأخينا "أبو عفيف" لم يفتح دكانه اليوم بسبب العيد.

- سأعطيك رأيي أنا إذن. تدخل جمال: ما رأيك لو رسمت زهرة غاردينيا بيضاء تثبت من بقعة الدماء؟ أليس هذا هو الواقع الذي نعيشه الآن؟

- أحسنت يا جمال، إننا ننتفض من بحر الدماء.

90

عملت بربارة نيومان كصحفية ومخرجة تلفزيونية لدى العديد من المؤسسات الإعلامية الأميركية منذ العام 1977. وتولت مهمات صحفية حساسة في أماكن حرجة في العالم مثل السودان وليبيا وتشاد وإسرائيل... لبنان. فقبل عامين حضرت إلى بيروت عن طريق إسرائيل في مهمة صحفية مزودة بأسماء وعناوين الأشخاص الذين تزمع مقابلتهم وعلى رأسهم ياسر عرفات وبشير الجميل. وكان تعارفها مع بشير الجميل فاتحة قصة حب استمرت بينهما طويلاً.

كانت الحكومة الإسرائيلية بحاجة إلى وسيلة موثوقة لمعرفة مدى التزام بشير بتحالفه معها، فلجأت إلى الموساد الذي كلف بربارة نيومان

الصحفية اليهودية الأميركية بهذه المهمة، فاستطاعت بدهائها وإغرائها الوصول إلى أعماق تفكيره وقلبه. وخلف ستار الحب الذي نسجناه كان بشير وبربارة يستغلان بعضهما لمصلحتهما الخاصة. كان بشير سعيداً بوصول صوته وقضيته إلى الرأي العام العالمي عبر تقارير بربارة الصحفية، كما كانت هي سعيدة أيضاً لتمكّنها من خدمة أبناء دينها.

- ما هذا الزر على ياقة سترتك.

- إنه شعار الكتائب اللبنانية.

ومدّ بشير الجميل يده وسحبه من ياقة سترته:

- أنظري إلى جهته الخلفية، لقد حُفر عليها بشير، أريدك أن تحتفظي به كذكرى مني لك.

- سأحافظ عليه مدى العمر. ولكن دعني أقدم لك هدية أعتزّ بها أنا أيضاً.

خلعت بربارة طوقاً فضياً من رقبتها علّقت فيه أيقونة محفورة:

- هذه الأيقونة تعود إلى أيام الثورة اليهودية ضد روما وقد حُفر عليها عبارة "لأجل حرية صهيون" وهي تجسّد توق شعبنا الدائم إلى الحرية.

- إنها ذكرى رائعة وثمانية منك، ولكن أرى أنه من الأفضل لك أن تحافظي عليها وتتخريها لابنتك!

- نعم إنها ثمينة جداً، وتعني لي الكثير، وأنت تعني لي الكثير أيضاً، لذلك أقدمها لك لتتذكر دائماً أنني أقف إلى جانبك في صراعك ضد أعدائك، وإذا وضعتها في عنقك فهي ستحميك من الأذى.

- أشكرك كثيراً، ولكن أرجو أن تحافظي عليها معك في الوقت الحاضر، وأن تقدّمها إليّ كهدية عند فوزي في انتخابات الرئاسة.

- وكيف سننصرف مع الإسرائيليين بعد نجاحك؟

- سأحافظ على كلمتي معهم ولكني سألعب معهم حسب شروطتي.

- انتبه يا بشير، أخاف أن يصيبك ما أصاب شاه إيران، فالأميركيون مع الأسف يتخلّون عن أصدقائهم بسرعة، وأنا أرى أن رهانك على الأميركيين يرتفع مقابل انخفاض حماسك نحو الإسرائيليين. إن الولايات المتحدة دولة كبرى ولها مصالح كثيرة حول العالم كله. أما إسرائيل فلا يهتمها سوى محيطها وخاصة لبنان، وهي ستدعمك حتى النهاية. ولكن إذا تخلّى عنك الأميركيون يوماً وكنت قد تخلّيت عن الإسرائيليين فستقع في مأزق خطير مع محيطك المسلم.

- إن الأميركيين يصرونّ عليّ بضرورة الابتعاد عن الإسرائيليين رويداً رويداً، حتى أكون قد تخلّيت عنهم تماماً مع انتخابي رئيساً للجمهورية، وذلك لضمان تشكيلي حكومة معتدلة يرضى عنها المجتمع اللبناني والعربي كله.

- إن ممثلك في أميركا لا يقدّمون لك النصائح المفيدة، فالأميركيون ليسوا أهلاً للثقة، أنظر ماذا فعلوا بمناصريهم في فينتام، إنهم يتخلّون عن حلفائهم كما يتخلّصون من ثيابهم القديمة، فإذا شعرت الإدارة الأميركية يوماً بأن جنودها سيتورطون بأي نوع من الأعمال الحربية التي ستؤثر على شعبيتها الداخلية ونفوذها فسيقولون لك "باي.. باي".

91

استقبل البروفسور راشد بالأحضان وهو يهنّئه وشوشةً على إسقاط الطائرة، وراشد يجيبه بأن الهناء مشترك. بعد تحية الجميع بما فيهم رنا العاتبة، شبك البروفسور ذراعه وقاده إلى الشرفة ليختلي به. كان وجه البروفسور ينضح سروراً لمجيء راشد ليشاركة سرّه والاحتفال بالنجاح.

- ستبقى معنا على مائدة الغداء اليوم.

- للصراحة إن مخططاتي مختلفة، لقد جلبت قصبه الصيد ولوازمها
 ووضعتها على دراجتي لأمضي نهاري على شاطئ البحر في صيد الأسماك.
 - كنت أودّ الاحتفال بهذه المناسبة معك، ولكن لا بأس، هل تعني
 أن تشاركنا الغداء غداً.
 - أعدك.

دخلت رنا عليهما بالمرطبات بينما كان جرس الهاتف يرنّ، فرفعه
 البروفسور ليتبين أن "أبو حسين" على الهاتف.
 - مبروك أخي "أبو أرز"، إنها ضربة معلم.
 - مبروك لنا جميعاً.

- لن أطيل الحديث، أنت تعرف السبب، ولكن أريدك أن تأتي إلى
 مكثبي الساعة العاشرة من مساء الغد، فالمعلم يريد أن يهنئك شخصياً
 ويبحث موضوعاً حساساً معك، إضافة إلى تقديم هدية رمزية لك.
 - سأكون عندك في العاشرة، إلى اللقاء.

خلال ذلك كانت رنا وراشد يتبادلان الحديث، وكانت رنا تطلب
 منه أخذها معه لصيد السمك.

- إذا سمح لك والداك بالمجيء معي فلا بأس.
 - أنا ليس لديّ من مانع، ما رأيك جولي؟
 - لا أجد مانعاً في ذلك، إذ أن الهدنة ما زالت سائدة، وأنا سعيدة
 جداً اليوم لأن الرئيس ريغان أوقف شحن 5000 قنبلة عنقودية إلى
 إسرائيل، على أمل أن يكون قد قرأ رسالتي وتأثر بها.
 - فإذا دعينا نذهب.

- سأغيّر ثيابي بينما ماما حبيبتني تحضر لنا بعض السندويشات
 لناخذها معنا.

قاد راشد ورنّا دراجتيهما عبر أكوام الرمال التي وضعت في
 منتصف كورنيش الروشة لمنع السيارات من عبوره بسرعة، وعبر

الحفر التي جُهِّرت في الأرض لوضع الألغام فيها في حال حصول إنزال إسرائيلي، وعبر الدشم التي وقف وراءها المقاتلون وأيديهم على سلاحهم، بينما ابتسامة هازئة ترتسم على شفاههم لتعليقِ أرسله أحدهم عند عبور الشابين من أمامهم.

وصلا إلى كورنيش المنارة، ففوجئنا بسيارات بيع قهوة الإكسبرس والشاي، وعربات بيع المرطبات المنتشرة على امتداده، والشبان والأولاد يسبحون ويلهون على الشاطئ، بينما بعض الشبان يزاولون رياضة المشي، وبعض المتسكعين والعشاق يتناولون القهوة، وهم يراقبون البوارج والزوارق الحربية الإسرائيلية وهي تتحرك جيئة وذهاباً في عرض البحر. تقدّما حتى شاطئ عين المريسة، حيث تكرر المشهد نفسه، إضافة إلى العديد من الصيادين، فأوقفا دراجتيهما إلى جانب الحاجز الحديدي وجهّزا أدوات الصيد وجلسا قرب بعضهما.

- في البداية نضع الطعم في الصنارة ثم نرميها في البحر بهذا الشكل. ورمى راشد صنارته في الماء وأعطى قصبه الصيد لرنا.

- ماذا يجب أن أفعل الآن؟

- تراقبين قطعة الفلين التي تطفو على سطح الماء، فإذا غرقت قليلاً وأحسست بالخيط قد توتّر، فإن هذا يعني بأن سمكة قد علقت في الصنارة.

- وكم من الوقت تستغرق السمكة لتعلق في الصنارة.

- ليس هناك من قاعدة، يعتمد هذا على كمية الأسماك الموجودة في المنطقة ونوعية الطعم المستخدم وكذلك على مهارة الصياد.

- وهل يمكن لسمكة كبيرة إذا علقت بالصنارة أن تسحبني إلى البحر.

- لا تخافي، إنه شبه مستحيل، فهذه الصنارة لا تصطاد سوى

السمك الصغير.

- ولكن السمك الكبير يأكل السمك الصغير.

- برافو هل تعرفين أمثالاً أخرى عن السمك؟
- لا تشتري سمكاً في بحر.
- سمك البوري وعصفور الدوري ما يعلقوا.
- مثل السمك ما بيعيش إلا في المي.
- السمكة ليست طيبة إلا إذا راسها في المقلّي وذبها بالميه.
- مقطّع السمكة وذيها.
- ماذا يعني هذا المثل؟
- يعني أنه عامل السبعة وذمتها.
- راشد، راشد، لقد علقت سمكة.
- ارفعي بلطف، كي لا تفلت.
- كم هي جميلة!
- كم هي صغيرة!
- حرام، هي صغيرة جداً، سأعيدها إلى البحر، ما رأيك؟
- أنا من رأيك.

قضت رنا وراشد نهاراً حافلاً على الشاطئ، حيث أكلا السنديوتش وشربا المرطبات، وتحدثتا طويلاً موطّدين علاقتهما بشكل أكبر، ولكن في نهاية النهار لم يكن في سلّتهما أي سمكة. ذلك أنهما كانا يشفقان على كل سمكة يصطادانها فيعيدانها إلى الماء. ولكنهما غادرا الشاطئ منزعجين من مجموعة مقاتلين طفيليين جعلوا يصطادون الأسماك بواسطة قنابل المدقّة، التي كانوا يرمونها في الماء، لتنفجر فتطفو الأسماك الصغيرة على سطح الماء فيجمعونها في سلالهم، بينما كان راشد يلعنهم مردداً "إذا حلّ الغليظ بأرض، فما على أهلها سوى الرحيل".

وصلا إلى شارع أستراليا في منطقة الروشة وانحرفا إلى الشارع الفرعي حيث مسكن آل شومان. ركنا دراجتيهما في مدخل

البناء وصعدا في المصعد مستغربين عدم انقطاع الكهرباء. ما أن انطلق المصعد فيهما صعوداً وبناءً على تخطيط وإصرار سابقين حَضَنَ راشد رنا وقبلها للمرة الأولى معترفاً لها بحبه، والتي اعترفت بدورها بحبها له أيضاً. ولكن المصعد المزعج كان قد وصل إلى الطابق الخامس. فسرق راشد قبلة سريعة أخرى وودَّعها على أن يلتقيا في الغد.

92

نتيجة لاجتماع هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي المباشر بعد إسقاط طائرة الفانتوم فوق سهل البقاع بهدف تحديد الأسباب الكامنة وراء سقوط الطائرة، أمر رئيس الأركان رفائيل إيتان بإعادة وصل خطوط الكهرباء والهاتف لمدينة بيروت، ليس تحسباً مع الشعب المحاصر أو شعوراً إنسانياً مع المقهورين هناك، بل لأن تقارير المخابرات أفادت أنها كانت تخسر الكثير من المعلومات التي كانت تصلها عادة عبر التنصت اليومي على خطوط هاتف المواطنين في بيروت. وما أن تمّ توصيل التيار الكهربائي إلى بيروت الغربية وإعادة الحرارة إلى خطوط الهاتف، حتى استنفر جهاز التنصت عناصره للعمل على مدار الساعة.

بالنسبة لحركة "فتح"، فإن لعبة الفأر والقط بينها وبين القوات اللبنانية والاستخبارات الإسرائيلية كانت مستمرة منذ مدة طويلة، وخاصة مع أجهزة التنصت فيها. لذلك، ولتورية وتمويه مراكزها، عمدت سرية الشؤون الإدارية بأمره الملازم عمّار إلى تمديد أسلاك خاصة لخطوط هواتفها، بحيث أصبحت المواقع الجديدة لنقاط استعمال الهواتف تبعد عدة شوارع عن موقع المقسم الأساسي الرسمي التابع لها والمذكور في سجلات وزارة الاتصالات اللبنانية،

مما حدّ من إصاباتهما. ولكن هذا التدبير لم يمنع من تقصّي الهواتف المدنية الأخرى التي كان يتمّ الاتصال بها من هواتف المقاومة والتتصّت عليها، كما حصل عندما اتصل "أبو حسين" بالبروفسور لتهنّئته بإسقاط الطائرة.

في مقسم هاتف بدارو الذي كان يعج بحركة وأصوات شبان وصبايا الإشارة في القوات اللبنانية الجالسين خلف أجهزة السنترال، التي تمّ تخصيص كل جهاز منها لمجموعة متسلسلة من أرقام الهاتف، أمسك كل منهم بسماعتين على كل أذن محاولاً التقاط خبر أو معلومة قد ترفع من مرتبته في عيني المعلم فوكس. كانت الأجهزة تضيء بمصابيح صغيرة حمراء وخضراء وصفراء، بينما أفراد الإشارة يقومون بشبك سماعتهم على الخطوط علّهم يوفّقون بصيد ثمين.

صرخ جان من بعيد: معلم، "أبو حسين" يطلب رقماً مدنياً! أسرع فوكس إلى جانب جان وتناول منه السماعة وأدار آلة التسجيل الموصولة إلى الجهاز.

- مبروك أخي "أبو أرز"، إنها ضربة معلم.

- مبروك لنا جميعاً.

- لن أطيل الحديث، أنت تعرف السبب، ولكن أريدك أن تأتي إلى مكتبي الساعة العاشرة من مساء الغد، فالمعلم يريد أن يهنئك شخصياً ويبحث موضوعاً حساساً معك، إضافة إلى تقديم هدية رمزية لك.

- ساكون عندك في العاشرة، إلى اللقاء.

جان، حدّد لي عنوان هذا الرقم وإياك أن تضيعه.

نزع فوكس الكاسيت من الجهاز وعيناه تقدحان سعادة شريرة وانطلق به نحو فيلا الارتباط الإسرائيلي في طبرجا لمقابلة ماريون مسؤول جهاز "أمان" في لبنان.

في اليوم التالي وما أن حلت الساعة التاسعة وعشر دقائق حتى اشتعلت بيروت جراء القصف البري والبحري الذي استهدف مناطق رأس بيروت، والحمراء، وبئر حسن، والمدينة الرياضية، والفاكهاني، والطريق الجديدة، وصبرا، وشاتيلا، ومخيم برج البراجنة، وحي السلم، والليلكي، والرمل العالي. استمرّ هذا القصف الوحشي حتى ما بعد الساعة الحادية عشرة موقعاً مئات القتلى والجرحى، ومدمراً عشرات الأبنية، ومشعلاً عشرات الحرائق. وقد ردت القوات المشتركة على البوارج ومرابض المدفعية الثقيلة والدبابات الإسرائيلية في شرق بيروت وضواحيها في الكرنيتينا والحازمية وجونيه وبعيدا والحدث والشويفات بالراجمات والمدفعية.

في هذا الوقت كان راشد على وشك الخروج عندما استوقفه "رويتزر" طالباً منه التريث قليلاً ليهدأ القصف قليلاً ولو اضطر للتأخر عن مواعده مع البروفسور.

في نفس الوقت كان سرب من طائرات F-15 و F-16 يتحرك على مدرج مطار رامون في صحراء النقب متوجّهاً في مهمة فوق بيروت، بناءً على تعليمات مباشرة من الجنرال دايفد إيفري قائد سلاح الجو الإسرائيلي. كان الهدف عمارة قرب مطعم العريشة في شارع إسكندر في منطقة الروشة في رأس بيروت، حيث يسكن أحد المسؤولين عن إسقاط طائرة الفانتوم في سهل البقاع قبل ثلاثة أيام حسب تقرير المخابرات الإسرائيلية.

كان راشد على دراجته في طريقه نحو منزل البروفسور عندما حلقت طائرة F-15 على ارتفاع منخفض فوق البحر وأطلقت صاروخين انطلقا كالشهب نحو البناء حيث انفجرا مطلقين بركاناً من النار في البناء قذف حممه ودخانته وركامه في الجو. وبثوان معدودات انهار معظم البناء المكوّن من ثماني أدوار، وتحول إلى تل

من الحجارة والرمال والأخشاب والإسمنت والألمنيوم والثياب والأثاث المنزلي، دافناً تحته أكثر من 200 مدنياً بين قتيل وجريح. وصل راشد بينما كانت سيارات الإسعاف والإطفاء والدفاع المدني والمقاتلين يصلون إلى الشارع. رمى دراجته إلى جانب الطريق وأسرع نحو ما كان يسمّى شارع إسكندر الذي سُدَّت منافذه بالركام. وقف مندهشاً، مرتعباً، خائفاً، فاغراً فاه والعرق يتصبّب منه بينما قاربت ساقاه على التهاوي. جلس لدقيقة على قطعة من الإسمنت يبكي وعشرات الصور تدور في رأسه. ولكنه قفز فجأة على ضجيج المسعفين وشرع يتسلّق الركاب، بينما الغبار والدخان يحرق العيون ويزكم الأنوف، وببيده بدأ يرفع الركاب. ستائر وأبواب وأحواض غسيل وزجاج جرح يديه، ولكنه استمر في البحث. وإذ تقع بين يديه أسطوانات محطمة لفريق البيتلز الغنائي، إنها أسطوانات رنا، أجهش بالبكاء فمسح عينيه بيده لتصبحا موحلتين. استمر في البحث وهو يكاد لا يرى، بينما الحشود حوله تتدافع في البحث عن الناجين. وقف أحد المسلحين وكأنه أرفعهم رتبة فوق الركاب وأطلق ثلاث رصاصات من مسدسه في الجو آمراً الجميع بالتوقف عن البحث والسكوت، عسى أن يتمكّنوا من سماع أصوات الناجين تحت الركاب. توقّف الجميع منصتين، وإذ بصوت رجل ينادي بصوت ضعيف من الجهة اليسرى للتل فأسرع المسعفون نحوه، بينما سمع راشد صوتاً ضعيفاً لعصفور، إنه الكنار، الكنار الذي أهداه إلى رنا يوم عيد ميلادها، أسرع إلى الجهة اليمنى ورفع بقايا خزانة خشبية محطّمة وقع قفص الكنار داخلها، وقد انطوت أسلاكه بينما الكنار يقفز بعصبية مُصدراً أصواتاً غريبة. وضع القفص جانباً ورفع الخزانة المهشّمة، ليجد بعض كتب البروفسور الممزّقة ودراجة رنا المحطّمة ... صرخ راشد بأعلى صوته "يا شباب دخيلكم، أسرعوا إليّ".

93

بسرعة الريح قاد راشد دراجته إلى مستشفى المقاصد. لم يع كيف كانت قدميه وساقيه تتحرك صعوداً ونزولاً على دواسات الدراجة، رغم أنه كان يقودها بيد واحدة، ويمسك بقصص الكنار بالأخرى. مدخل المستشفى وبهوه وسلّمه وممرّاته وغرفه كانت مكتظة بمواطنين جاءوا لتفقد أقربائهم وأصدقائهم. ثلاجة المشرحة طافت بالقتلى، وغرف العمليات فاضت بالمصابين، وعنابر الجرحى نضحت بالنزلاء.

باكياً عرف راشد إدارة المستشفى بأسماء شهداء عائلة شومان، وأخبرهم بأن البروفسور كان أستاذاً في الجامعة الأميركية، لذلك فإن إدارتها قادرة على تزويدهم بعناوين أقربائه لإبلاغهم وتسليمهم جثث الشهداء الخمسة. جموع كثيفة من المواطنين كانوا يحاولون معرفة أي شيء عن أحبائهم من الأطباء والمرضات والإداريين، ولكن عبثاً، فبسبب انخفاض عديد الجهاز الطبي لم يستطع أفرادہ التضحية بدقيقة واحدة للحديث معهم. فالعمل كان كثيراً جداً، والحالات صعبة جداً. وبينما كان صوت المذياع يدعو المواطنين إلى التبرّع بالدم من جميع الفئات دوى صوت انفجار قوي اهتز له مبنى المستشفى، تبين أنه جراء قذيفة سقطت قرب مدرسة التمريض المجاورة، ناشرة قنابلها العنقودية ومسببة دماراً في المبنى. ما أن انقشع دخان القذيفة الأولى حتى انفجر صاروخ في جناح الأطفال في الطبقة الثالثة مدمراً أجزاء منه وملحقاً أضراراً جسيمة بالطبقتين الثانية والرابعة. أما الصاروخ الثالث فانفجر في حديقة المستشفى، ليتبعه الصاروخ الرابع منفجراً على سطح قسم الطوارئ. جرّاء ذلك انتشر الركام في الشوارع المجاورة وتدلّت الأسرة والبطانيات والثياب من الجدران المهذمة. كانت الحصيلة اثني عشر إصابة بينها الطبيب محمود أبو عمو الذي أصيب بجروح خطيرة

استدعت خضوعه لعملية جراحية أدت إلى بتر إحدى ساقيه. صراخ وعرويل وهرج ومرج أصاب الجميع، المرضى القادرون على السير نهضوا من أسرّتهم متجهين إلى الأدوار السفلية، أما الزوار فهرعوا مغادرين المستشفى، بينما عكفت الممرضات على نقل المصابين إلى الأدوار الأكثر أماناً. إزاء هذا التطور المفاجئ لم يعد هناك من مكان أو متنسّع لمعالجة المصابين بسبب القصف الأخير، فتمّ التنسيق مع مستشفى البربير لنقلهم إليها، وبما أن سيارات الإسعاف كانت خالية من الوقود، فإن أحد الجيران تبرّع بالمساعدة بنقلهم بشاحنته. وهكذا وضعت خمس حمّالات تحمل الجرحى في الشاحنة المتجهة إلى مستشفى البربير.

استقبل مستشفى البربير مؤخراً بعض الإصابات الأكثر خطورة جرّاء القصف الإسرائيلي وخاصة حالات الحروق، التي خصّص لها جناح خاص. هناك تستلقي أجسادهم المحروقة تلتفها قطع الشاش وتسكن المهدئات من الألامهم. وجوههم متورّمة وشفاههم متقرّحة فتخرج أشباه الكلمات من أفواههم منقطّعة غير مفهومة. فحروقهم البليغة من الدرجتين الثانية والثالثة بحاجة إلى فترة طويلة من العلاج. وهناك في طرف الجناح طفلة حلقة الشعر لم تبلغ السنوات العشر من عمرها تتنّ طالبة أمها. تحاول الممرضات إلهاءها ولو قليلاً بتقديم لعبة لها عليها تنسى أمها التي توفيت ليل أمس. تتدحرج الدموع من عينيها طالبة من الممرضة أن تحكّ لها أنفها المتورّم، ذلك أن يداها ملفوفتين بالشاش ومربوطتين إلى جانبها. عندما أدخلت سميرة إلى المستشفى قبل أمس، كانت فاقدة الوعي ووجهها وجسمها قرمزياً اللون. وعندما عاد إليها وعيها روت للممرضة أنها كانت تستحمّ عندما سقطت قذيفة قريبة، فخافت وارتبكت فأغلقت حنفية الماء البارد بدل الساخن، وفي اللحظة نفسها سقطت قذيفة أخرى أصابت والدتها، فجفلت وتزحلق على الماء الساخن فارتطم رأسها بأرض الحمام وتابعت المياه الساخنة سقوطها

على جسمها وهي تصرخ وتئنّ. فأصيبت بحروق في صدرها ورقبتها وبطنها وجميع أنحاء جسمها.

وصلت الشاحنة التي تحمل المصابين الخمسة من مستشفى المقاصد إلى باب مستشفى البربير تحت وابل من القنص المباشر على المحور الذي تقوم عليه المستشفى، فتحلّق حولها المقاتلون الذين هالتهم الجريمة البشعة، وتنادوا لحمل الجرحى إلى قسم الطوارئ.

رفع عبد الباسط الحمّالة من أحد طرفيها بينما حملها يحيى من الجهة المقابلة واتجها إلى قسم الطوارئ. خلفهما كان عنصران آخران يرفعان حمّالة أخرى عليها سيدة تتألم بصوت عالٍ. لفت صوت السيدة أسماع يحيى، إنه صوت أليف، وكأنه صوت أمه، غير معقول أن تكون أمه، فنزلهم بعيد عن المناطق المستهدفة... ولكن.. توقّف عن السير وأدار رأسه ليتمكّن من رؤية الجريحة على الحمّالة خلفه.

- يا ربي، إنها أمّي. صرخ يحيى متألماً.

وضع الحمّالة على الأرض واستدار نحو أمه، التي كانت في وعيها، ولكنها قد أصيبت بضربة حجر على رأسها بسبب الصاروخ الذي أصاب مستشفى المقاصد. تعرّقت على ابنها مباشرة طالبة منه الإسراع بتوصيلها للمعالجة. عاود موكب الحمّالات سيره بسرعة، والدم يغلي في عروق يحيى، مطلقاً اللعنات والشتائم على إسرائيل وشارون. وما أن اطمأن إلى أن والدته بأيدي أمينة وأن حالتها ليست خطيرة، حتى أسرع نحو المحور والشرر يتطاير من عينيه.

- لقد قتلوا أبي والآن يريدون قتل أمي. زعق يحيى بوجه "أبو داوود" مسؤول المحور: أريد أن أفتح الجبهة عليهم الآن... لن أدهم يفرّوا بفعلتهم هذه.

- صبرك يا يحيى، سنعلّمهم درساً لن ينسوه، ولكن يجب أن

نخطط لذلك، أعطيني يومين فقط.

94

سحابةً من الكآبة كانت تَلْفَ مقهى "أبو عفيف" حيث جلس راشد متورِّم العينين من الأرق وقد أطلق لحيته، ممسكاً ثمرة تين بين أصابعه المضمّدة، وهو يُطعم كنار رنا عبر أسلاك القفص الذي وضعه على الطاولة. إلى جانبه جلست مدام ناديا محاولةً التخفيف عنه. روت له كيف أصاب القنّاص زوجها في رأسه قبل سبع سنوات وبقي ينزف وينازع لأكثر من خمس ساعات وهو يسبح بدمائه حتى أسلم الروح. ولم يستطع أحد سحبه عن قارعة الطريق لمدة يومين، بسبب عنف الاشتباكات بين المنطقتين الشرقية والغربية. بينما بقيت هي طوال هذين اليومين بلا طعام أو نوم، وهي مختبئة وراء حائط في بناية مقابلة تراقبه باكية ومنتظرة هدنة لوقف إطلاق النار لسحب جثته، بينما كانت القطط والجرذان والذباب تحاول نهش جسمه، وهي ترشقها بالحصى محاولة إبعادها عنه.

مسحت مدام ناديا دموعها المتجدّدة قائلة: إنه قدرنا، يجب أن نؤمن بأن كل ما يحصل لنا مُقَدَّر، وكل مُقَدَّر وراءه عبرة لبني البشر.

- لمن هذا الكنار الجميل؟ سأل "رويتز" وهو يجلس إلى الطاولة:

ولماذا تركتَ شعر ذنك ينمو بهذا الشكل يا راشد؟

- إنها قصة طويلة. أجابته مدام ناديا.

- خير إن شاء الله؟

روى راشد لهما ولجمال وعلي اللذين انضمّا إليهم كيف فجّرت

الصواريخ الإسرائيلية مبنى سكن البروفسور وهدّمته بينما كان هو في طريقه لمقابلته، وكيف اكتشف جثته وجثث عائلته، وكيف ساعد في وضعهم في ثلاجة المستشفى بانتظار أن يتعرّف عليهم أحد أفراد عائلتهم.

- وماذا حصل لأصابعك؟ سأل جمال.

- لقد جرحتها وأنا أبحث في الحطام، كما أن عيناى تقرحتا من الغبار والرمال والدخان... والدموع التي ملأتهما.
- رحمة الله عليهم جميعاً. ولكن للأمانة يا راشد فإن ذقك هذه لا تعجبني! بادره "رويتز" محاولاً ترطيب الأجواء.
- ما رأيك يا راشد لو قمنا بطباعة صور للشهداء في المطبعة التي يعمل فيها علي ونلصقها على جدران الشوارع؟
- لا، لا داعي لهذا، فالبروفسور رحمة الله عليه، لم يكن يحب هذه التصرفات.
- تمنى راشد لو كان باستطاعته أن يخبر الجميع عن الإنجاز الذي حققه البروفسور والذي يستأهل بحق تكريماً أكثر من طباعة صور له. ولكن للأسف فإنه مضطر لكبت هذه المعلومات كي لا يعرض نفسه للخطر، فجواسيس إسرائيل في كل مكان، فمن كان يظن أن تصل ذراعهم إلى البروفسور؟
- صدقت يا راشد، إن الدعاء للميت هو أفضل شيء يمكننا فعله، فكيف إذا كان شهيداً؟ إن أستاذك وعائلته هم شهداء أبرياء ماتوا ظلماً، والعدالة تقضي بقتل الظالم. تدخل علي.
- ألا يكفيننا قتلٌ وقتلى؟ استغربت مدام ناديا.
- يا مدام، لا علاج للظلم الإسرائيلي والأميركي سوى بإعلان الجهاد ضدهم، وإلا أصبحنا كلنا شهداء! علق علي.
- هل تعلمون أن راشد كاد أن يصبح شهيداً لولاي أنا؟ تدخل "رويتز" محاولاً تغيير مجرى الحديث.
- كيف هذا؟ سأله جمال.
- كان القصف شديداً ولكن بعيداً نسبياً، وكان راشد على دراجته مستعداً للانطلاق لمقابلة أستاذه، فقلت له أن يصبر قليلاً حتى تهدأ حدة القصف، وهكذا كان...

- صحيح، لولا أنه طلب مني التروّي قليلاً لكنت أصبحت في خبر كان.

- لا كانَ ولا إن، كل ما في الأمر أن عمر الشقي بقي.

- هل تعتقد ذلك؟ الواقع أنني أعيش في شقاء مستمر، فأنا مصاب بالأرق، والقلق، وعدم الأكل، حتى أن يداي أصبحتا ترتجفان بدون سبب.

- يا ابني عليك أن توجّه تفكيرك نحو أشياء أخرى، إذ لا يمكنك الاستمرار هكذا. بادرت مدام ناديا.

- لا أستطيع محو ذكرى البروفسور، كان إنساناً كاملاً، وكذلك ابنته رنا التي كنت أحبها، كانت رقيقة كالفراشة، كل عائلته كانت طيبة لم يأذوا أحداً في حياتهم، فلماذا هذا المصير؟

- استغفر ربك يا رجل. تدخل علي: إن شهية شارون المفتوحة للدماء لن يوقفها سوى ضربة قاصمة على رأسه تعيده إلى رشده، وهي آتية إن شاء الله.

- هل تعرف يا راشد أن لوحة "غيرنيكا بيروت" التي أرسمها على الحائط هناك تشبه حالتك كثيراً، كما تشبه حالة معظمنا. بادرت مدام ناديا بعد أن تحنحت: فنلك الطائرة والعمارة المرسومتان تعرفهما، والدماء والزهرة والطائر تعرفها كلها وتعرف رمزيتهما. أما السيدة المكتئبة فتشبه وضعك، ولكنني أريد أن أعرفك إلى الحصان الأبيض المنتصب على قائمته الخلفيتين متمرّداً على محيطه، هكذا أريدك يا راشد.

- شكراً مدام، إن وقوفكم جميعاً إلى جانبي يعطيني دفعاً وأملاً في المستقبل.

- سنبقى إلى جانبك يا راشد، كلنا إخوة هنا. علق "رويتنر".

- خلع راشد قميصه ووضع فوق قفص الكنار قاتلاً: حان الآن وقت النوم.

95

إعتقد شارون ومعاونوه أن قصف قواته وحصارها لغرب بيروت لا بدّ أن يكون قد أنهك المدافعين عنها، وأن الوقت قد حان للتأكد من ذلك عبر تسريع خطة القضم البطيء، خاصة وأن تقارير الصحفية بربارة نيومان حول نوايا بشير الجميل أكدت ضرورة توريطه في حربهم ضد بيروت الغربية. فقرّر الإطباق على بيروت من عدة نقاط. حشد قواته في مناطق المرفأ والمطار إضافة إلى منطقة المتحف التي تضم ميدان سباق الخيل لتكون ميدان معركته الجديد. وبما أن لميدان سباق الخيل اتصال مباشر مع كورنيش المزرعة الذي يصل إلى البحر، ويفصل تقريباً مناطق المقاومة والتجمعات البشرية الفلسطينية عن المناطق المدنية البيروتية الأخرى، اعتقد أنه قد يصبح بمقدوره عندها عزل المناطق المقاومة عن المناطق الأخرى، ومهاجمتها، مما لن يثير الرأي العام العالمي ضده.

لم تكن قيادة المقاومة الفلسطينية غافلة عمّا يدور حولها. فعلى سطح مبنى السفارة التشيكوسلوفاكية المرتفع والمواجه لميدان سباق الخيل، زرعت أحد رجال الرصد وسلّحته بمنظار متطور بعيد المدى وجهاز إرسال مونتورولا متصل مباشرة بغرفة العمليات. كانت مهمة سامر إيلاغ القيادة بأي تطورات تحصل على جبهة المتحف. وفي هذا اليوم رصد تحركات مكثّفة وغير عادية. آليات تنقل مشاة إسرائيليين إلى الشوارع الخافية المحيطة بمتحف بيروت، ودروع تصطفّ بمحاذاة السور الشرقي لميدان السباق. أبلغ العمليات بحجم التحركات، فما انقضت خمس دقائق حتى كان معه العميد "أبو الوليد" شخصياً على السمع يستوضحه تفاصيل الآليات والدروع وتجهيزاتها وحجمها ومواقعها، طالباً منه البقاء معه على السمع وإبلاغه أي تطورات أول بأول. استنتج "أبو الوليد" من حجم الحشد

أن هناك خطة لاقتحام بيروت. وبناءً على ذلك أمر مدير مكتبه الاتصال بجميع مواقع بطاريات المدفعية والصواريخ وتحديد إحداثيات مواقعها مع ميدان سباق الخيل بدقة. بعد رفع حالة الاستنفار وتوجيه أوامره لمراكز المدفعية بتعمير مدافعها وصواريخها وتثبيت إحداثياتها، طلب منها أن تبقى على السمع بانتظار أوامر فتح النار. في هذه الأثناء كان القصف الإسرائيلي على مختلف المناطق في العاصمة على أشده، براً وبحراً وجواً. وبناءً على تعليمات غرفة العمليات التزم المقاتلون مراكزهم المحصنة على خطوط التماس استعداداً لأوامر فتح النار.

- لقد بدأوا بالتحرك نحو سور ميدان سباق الخيل.

- جيد، تابعهم دقيقة بدقة وبلغ.

التفت "أبو الوليد" إلى مساعده طالباً منه إصدار أمر مركزي بالاستعداد وعدم فتح النار إلا بناءً على أوامره الشخصية.

- هناك المئات من الجنود الإسرائيليين الذين يتقدمون وراء الدبابات. إنهم يعبرون الآن سور ميدان السباق المهدم. إن دبابة الطليعة أصبحت الآن في وسط ميدان السباق. نظر "أبو الوليد" إلى ساعته ورفع يده اليمنى مظهراً ثلاث أصابع، وشرع يطويهم إصبعاً بعد الآخر. اثنين. واحد. "افتح النار".

هدرت السماء وأرعدت حين انطلقت القذائف والصواريخ دفعة واحدة من مواقعها في مناطق الكوكودي والرمل العالي وبرج البراجنة وحي السلم والسفارة الكويتية والسفارة الصينية والأوزاعي والسمرند والرملة البيضاء والحمام العسكري والمرفاً وقصقص ومار مخايل نحو هدف واحد، وزلزلت الأرض حين سقطت مفعرة كل ما في محيط سقوطها من آليات وعسكريين وأشجار.

- الله أكبر، الله أكبر. صرخ سامر في جهازه عن سطح البناية محاولاً رفع صوته فوق صوت الانفجارات، واصفاً انفجار دبابات العدو

واحدة بعد الأخرى وسقوط جنوده وهربهم محاولين الاحتماء خارج سور ميدان السباق.

عند سماعه هذا، أصدر "أبو الوليد" أوامره إلى مدفعيته بإطلاق الموجة الثانية من حممها نحو القوات المتراجعة حسب الإحداثيات المتفق عليها. ومن جديد كان سامر يرقص طرباً لموسيقاها مُبلغاً القيادة عن النيران الكثيفة التي شبت في الدبابات والآليات، وكيف تتخبط الدروع السليمة بعضها ببعض أثناء تراجعها، وقد وصلت في تراجعها قريباً من سور ميدان السباق. كانت هذه كلمة السر لانطلاق الموجة الثالثة من القذائف والصواريخ مهتمة ما تبقى من سور الميدان ومحطمة دبابات العدو المتراجعة وحاصدة ما تبقى من مشاته على الأرض.

96

نهى وهزار وهالة سيدات عربيات يعشن في العاصمة الأميركية واشنطن بواقع عمل أزواجهن كسفراء لدولهن هناك. أدمت قلوبهن مأساة المدنيين العزل في بيروت الصامدة، فجمعن المساعدات المادية لدعمهم، ثم قررن إسماع أنين أصواتهن من إرهاب القصف والتجويع والتعطيش الإسرائيلي، عبر الإضراب عن الطعام والاعتصام خارج أسوار البيت الأبيض، عسى يسمع سيده صوتهن، ويضغط على إسرائيل علها ترتدع.

كما في واشنطن كذلك في بيروت، وفي حديقة كلية طلال أبو غزالة لإدارة الأعمال في الجامعة الأميركية، اعتصمت سيدات لبنانيات وأجنيبات احتجاجاً على صلف إسرائيل ووحشيتها تجاه المدنيين العزل، كما أرسلن رسالة إلى الرئيس الأميركي ريغان يستنكرن موقف

الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل والمجافي للعدالة والحرية التي تنادي بها شرعتها.

خارج أسوار حرم الجامعة الأميركية في بيروت، كانت ملحمة البقاء مستمرة على كل الجبهات. فعلى الحاجز الإسرائيلي في منطقة حي السلم استطاع أحدهم الاتفاق مع أمر الحاجز على تمرير شاحنته الصغيرة الآتية من البقاع والمحملة طحيناً بشكل يومي مقابل كيلو من الحشيشة. وعلى حاجز منطقة الشويفات انفتحت المقاومة بطريقة غير مباشرة مع النقيب شلومو على غضّ الطرف عن كل صهاريج الوقود التي تعبر نقطته خلال فترة مناوبته بين الثانية والخامسة فجراً، لقاء ألف دولار لكل صهريج. أما عبر غاليري سمعان، فإن معلم نمر وصل إلى الحاجز الإسرائيلي في سيارته المرسيديس الغريبة الشكل، فهي خضراء اللون، أما غطاء محركها فأسود، والباب الخلفي الأيسر أصفر اللون بينما الباب الأمامي الأيمن أحمر اللون، كما أن الأضواء كانت في الأصل لسيارة فورد. ترحل من سيارته محبباً الرقيب الإسرائيلي ثم صافحه بيده التي وضع فيها نصف ورقة المائة دولار حسب الاتفاق، ثم انطلق نحو ضاحية بيروت الجنوبية وقد احتشدت في صندوق سيارته الفاكهة والخضار والمواد التموينية، على أن يدفع نصف ورقة المائة دولار الآخر عند عودته إلى البقاع عبر الحاجز.

تعلمت "أم جمال" أسرار رِقّ العجين وخبزه لصناعة خبز المرقوق الشهي، من أمها التي كانت أشطر سيدة في القرية في صنعه رقيقاً مثل ورقة السيارة. وعندما قصف الإسرائيليون بيتهم في القرية واستشهد والداها الصامدان هناك، لم يبقَ الكثير من أثاث البيت المتواضع أصلاً. وعندما سألتها إختوتها ماذا تريد "من رائحة أهلها" اختارت صاج الخبز المعدني الأسود ليذكرها بأماها المميزة عن سيدات القرية. وعندما جلبت الصاج إلى البيت في التاكسي، استغرب "أبو جمال" خيارها هذا، فوضعه في متحت البيت لانتفاء الحاجة إليه.

وهناك، في منطقة المصيطبة، كانت "أم جمال"، زوجة بواب عمارة وهبه جالسة القرفصاء على أرض رصيف العمارة أمام صاج الخبز، وهي تضع رغيف العجين تلو الآخر فوق الصاج الساخن لترفعها أرغفة مرقوق ساخنة يتصاعد الدخان منها وتفوح رائحتها الشهية. أما مدام ناديا الجالسة قربها فكانت تأكل خبز المرقوق بيد وتحمل القلم بالأخرى ترسم "أم جمال".

- هل تعرفين بكم اشتريت كيلو البطاطا اليوم؟
- لا أدري، فقد أصبحت البطاطا بالنسبة لنا ضرباً من الترف.
- كيلو البطاطا الذي كنا نشتريه منذ شهر بليرتين أصبح بـ 25 ليرة، وكيло الليمون الحامض الذي كان بليرتين أصبح بـ 60 ليرة.
- كل شيء مرتفع الثمن ولا قدرة لنا على شرائه، لقد سئمنا من أكل العدس والبرغل، وإذا أعطاني الله عمراً بعد هذا الحرب، فلن أكل العدس والبرغل ما تبقى من حياتي.
- ما رأيك أن تعطيني بعض خبز المرقوق مقابل أن أعطيك صحن طبخ لا يحتوي برغلاً أو عدساً؟

97

وجوه كئيبة احتشد أصحابها في ملجأ عمارة وهبه، وقد جلس بعضهم على الكراسي بينما افترش البعض الآخر بساطاً كبيراً على الأرض. عشر ساعات انقضت عليهم وهم مسمرّون في هذا المكان الرطب الذي تفوح منه رائحة المياه الأسنة. فقبيل الساعة الرابعة صباحاً استيقظ سكان بيروت الغربية على قصف عنيف متبادل لم يعدوا له مثيلاً من قبل. فرغم أنهم لا زالوا مواظبين على النزول إلى الملاجئ لليوم الرابع، فإن همجية قصف هذا النهار لم يعادلها أي من

الأيام السابقة، فالمدفعية والدبابات الإسرائيلية مستمرة في قصفها منذ الفجر من مرابضها في الدوحة وعرمون والشويفات والحدث وبعبداء، والبوارج تقصف من عرض البحر، بينما الطيران ينقض على أهداف في جميع مناطق العاصمة. هذا القصف لم يكن من طرف واحد فقط، بل أن مدفعية وصواريخ المقاومة الفلسطينية كانت تنصب على مراكز القوات الإسرائيلية حول بيروت وفي محيط المطار بشكل خاص.

كعادته كان راشد يحمل راديو الترانزستور العامل على البطارية ويقلب فيه باحثاً عن آخر الأخبار.

- "أبو أياد" من صوت فلسطين يحدث أبطال المقاومة على الصمود.

- "أبو الوليد" يشد من أزر المدافعين عن بيروت قائلاً: لا خروج من بيروت، لقد حصناً بيروت بما يحول دون اقتحامها من أعتى جيش في العالم.

- عبر إذاعة صوت لبنان العربي يلقي رفيق نصر الله قصائد وطنية بين الخبر الميداني والآخر.

- أرجوك يا راشد أن تقفل الراديو، لقد سئمت الأخبار التي تثير الأعصاب. تمت عليه مدام ناديا: ألا تكفيننا سمفونية الموت التي تعزف في الخارج؟

نظر إليها راشد بعينين حمرأوين أحاطت بهما دوائر سوداء مترهلة قائلاً: كما تريدين مدام. وأغلق الراديو، ومد إصبعه مداعباً كنار رنا عبر أسلاك القفص.

- لا أدري لماذا هذا القصف المجنون، طالما أن المفاوضات لرحيل المقاومة مستمرة؟

- إن طبيعة السياسة الإسرائيلية هي هكذا، كلما حصلوا على تنازل ما، صعدوا ليحصلوا على المزيد، حتى... عفواً... يعرفوك من ثيابك.

ومَضَّ الملجأ فجأة وزلزلت أرضه وعلا صراخ الأولاد والنساء فيه، وسُمع تكسُّر زجاج وتحطُّم حجارة بينما كانت أصوات الشطايا تضرب جدران الملجأ الخارجية ودفق من الحصى والرمال والغبار يندفع نزولاً من السلم يصاحبه دخان أسود ورائحة بارود نفاذة.

ارتفع بكاء هستيري من الأطفال وقد احتضنتهم أمهاتهم الداعيات إلى الله أن يحميهم جميعاً، بينما شرع كئار رنا يصدر أصواتاً عصبية متقطعة وهو يقفز خوفاً في قفصه. أما الحاج "أبو أحمد" فانحنى على الأرض ماسحاً كفيته على رمالها متيمماً بها ليصلي صلاة العصر.

انخفضت وتيرة بكاء الأطفال عندما شرع جمال يلهيهم بألعاب تعلّمها في الجبهة، كأن يسألهم عن القذائف التي يسمعون أصواتها، هل هي منطلقة أو ساقطة، وهل هي صاروخ أم قذيفة، وهل هي قذيفة مدفعية ميدان أو هاون. ثم جعلهم يحسبون الوقت بين إطلاق القذيفة وسقوطها. ولكن ما أن سقطت قذيفة أخرى قريبة حتى عاد بعض الأطفال للبكاء، بينما وضع بعضهم أيديهم على آذانهم وأغلقوا عيونهم كي لا يسمعوا أصوات الانفجارات. أنهى الحاج "أبو أحمد" صلاته ودعاه وتوجّه نحو جيرانه قائلاً: "لا تجزعوا يا إخوان، إن الذي له عُمر لا تقتله شدّة" وانصرف إلى ركنه يقرأ القرآن.

في هذه الأثناء، ولليوم الرابع استمرت القوات الإسرائيلية في مخطط القصف البطيء للنقّدم وإحكام الخناق على العاصمة الصامدة. فبينما كان الطيران يقصف مناطق بئر حسن ومستديرة المطار ومستشفى عكا وشاتيلا، والروشة وعين التينة وفردان، والطرادات الإسرائيلية تقصف مناطق الأوزاعي وسينس وشاتيلا، اندفعت ثلاث من كتائب المدرعة على ثلاثة محاور: الأول، في مطار بيروت حيث تمكّنت تحت ستار كثيف من القنابل الدخانية والقصف العنيف من الدبابات والمدافع من الوصول إلى مبنى شركة طيران TMA الذي كان يتمركز فيه الجيش اللبناني سابقاً، ومنه انتقلت قواته الخاصة إلى المبنى

الرئيسي للمطار مستخدمة آليات الدرك اللبناني التي استولت عليها. وبعد إعادة تجميع قواتهم هناك، انعطفوا شمالاً لاحتلال مبنى الإدارة العامة للمطار، واستطاعوا التقدم تحت وابل رهيب من جميع أنواع الأسلحة نحو موقع الكوكودي الاستراتيجي وثلة الردع، ومنها إلى ساحة المريجة. وخلال التقدم الإسرائيلي هذا، كانت القوات الفلسطينية تتراجع نحو منطقة برج البراجنة وحسنية المطار.

شقت الكتيبة الإسرائيلية الثانية طريقها عبر الكثبان الرملية المحيطة بمنطقة (تعليم السواقة) متغلغلة نحو ملعب الغولف ومنها إلى ثكنة هنري شهاب التابعة للجيش اللبناني واحتلتها، وحاولت التقدم بشتى الوسائل نحو موقع السفارة الكويتية الاستراتيجية، ولكن المقاومة الفلسطينية استبسلت في الدفاع عنه واستطاعت دحر جميع محاولاتها، ورغم دفع القيادة الإسرائيلية بالمزيد من دروعها وتكثيف قصفها على القوات المدافعة بمعدل 5 قذائف في الثانية، فإنها صمدت وثبتت في مكانها رغم التفاوت الكبير في نوعية الأسلحة التي بيد الطرفين، ورغم الحرب النفسية التي شنتها القوات الإسرائيلية عبر مكبرات الصوت، داعية المقاتلين ليستسلموا ليسلموا. وهناك وقف "أبو سفيان" قائد المحور بين مقاتليه ومن ورائه بيروت تحترق قاتلاً: لا تردد في الخيار بين الاستسلام أو القتال حتى الموت، خسى شارون أن نرفع له الأعلام البيضاء.

أما كتيبة الدروع الإسرائيلية الثالثة فتحرّكت على طريق الأوزاعي الساحلي تتقدمها كاسحات الألغام في خضم قصف عنيف متبادل أدى إلى تدمير أربع دبابات إسرائيلية، ولكن اختلال ميزان القوى وحجمها مكّنها من الوصول إلى مطعم ديانا في منطقة الأوزاعي، مما جعل المقاتلين ينسحبون إلى منطقة السفارات المجاورة لثكنة هنري شهاب.

هكذا يكون الإسرائيليون قد وصلوا إلى المنطقة المقابلة لقصر رياض الصلح وتقاطع أوتوستراد المدينة الرياضية ومستديرة المطار، كما وصلوا إلى الليكي وحي السلم شرقاً. من هناك أصبحت مناطق شاتيلا والفاكهاني

وكورنيش المزرعة في نطاق المرمى المباشر لنيرانهم، كذلك أصبحت المخيمات الفلسطينية والمناطق الأهلة بالسكان إضافة إلى الأبنية المتراسة في الأحياء الضيقة على مرمى حجر من قواتهم.

خمسة عشر ساعة من القصف المستمر وأكثر من 150 شهيداً على جبهة الأوزاعي منفردة، رفعت مجموع الخسائر البشرية خلال الأيام الأربعة الأخيرة إلى 595 قتيلاً و2470 جريحاً. أما الخسائر المادية فكانت رهيبة بسبب القصف العشوائي الإجرامي، إذ دمرت شبكات الماء والكهرباء والهاتف والطرق، كما أصيبت مستشفى الجامعة الأميركية ومبنى رئاسة الوزراء والبنك المركزي ووزارة الإعلام ومكاتب الصحافة الأجنبية وفنادق الدرجة الأولى ومراكز الإطفاء والدفاع المدني ومراكز الشرطة ومحطات الكهرباء ومحطات الوقود والمستشفيات والمدارس ومئات المنازل التي هُدمت أو تصدّعت. كما وقعت حرائق عديدة في جميع المناطق، واحترق الصنوبر في حرج بيروت وتهاوت أشجاره هنا وهناك ليصبح الحرج أرضاً محروقة. أدى هذا إلى تشريد عشرات الآلاف من سكان بيروت وهربهم من بيوتهم إلى أماكن أخرى يعتقدون أنها قد تكون أكثر أماناً.

عاد كنار رنا يزقزق من جديد، فانتهب المجتمعون في ملجأ عمارة وهبه إلى توقّف أصوات الانفجارات وهدير الطائرات، فقرروا الخروج والعودة إلى بيوتهم مهتئين بعضهم بالنجاة، وقد أصابهم الإعياء والنعاس.

98

لم يقبل أريئيل شارون الجلوس، بل طفق يذرغ الغرفة ذهاباً وإياباً وهو ينظر تارة إلى جهاز الكمبيوتر على الطاولة وطوراً إلى بشير الجميل وإيلي حبيقة اللذين كانا يحاولان تحديد الموقع الذي يبحثان عنه عبر منظارين ضخمين.

- تلك حديقة الصنائع، وبمواجهها كلية الحقوق ومبنى رئاسة مجلس الوزراء ثم الإذاعة اللبنانية، هل تراهما جيداً؟ سأل حبيقة بشير مشيراً بإصبعه بالاتجاه المحدد.

- نعم، ولكن البناية المطلوبة هي إلى جانب الحديقة وليس أمامها.
- أكيد، انظر إلى الطريق المواجه لمبنى مجلس الوزراء، إذا أتجهت عبره صعوداً ودائماً إلى جانب سور الحديقة، ستصل إلى البناء الذي إلى اليمين المواجه تماماً لزاوية الحديقة الجنوبية الغربية، ذلك البناء المرتفع الذي يبلغ ارتفاعه ثمان أدوار.

في بناية عكر وفي مقر احتياط ميليشيا "فتح" في منطقة الصنائع، كان "أبو عمار" و"أبو الوليد" و"أبو جهاد" وجورج حاوي ومحسن إبراهيم يحاولون تحليل مدى جدية تقبل إسرائيل لطروحات فيليب حبيب، عندما هبّ "أبو عمار" فجأة طالباً من الشباب أن يغادروا المكان. وبما أن الشباب كانوا قد اعتادوا على تصرفات "أبو عمار" هذه والمنبعثة من احساسه الدائم بالخطر، والذي صدق في العديد من الحالات، فإنهم أسرعوا إلى سياراتهم. وما أن انطلقت السيارات حتى سمع من في داخلها صوت الطائرات الحربية تحوم فوق المنطقة. وخلال دقيقتين صدر صوت قوي كفرقة سوط ولكن قوته لم تتجاوز صوت انفجار قذيفة 75 ملم في الجو.

في مدرسة مون لاسال رفع شارون وبشير الجميل وإيلي حبيقة كؤوس الشمبانيا احتفالاً، عندما شاهدوا الصاروخين ينفجران فوق بناية عكر لتنتهار بلحظات قليلة على رأس ياسر عرفات كما كانوا يعتقدون.

انهار البناء في لحظات وقد انسحقت جدرانه متحولة إلى قطع صغيرة من الحجارة والحصى والرمال ليصبح ارتفاعه ثلاثة أمتار بعد أن كان يتجاوز الثلاثين متراً.

دُفن تحت ركام المبنى أكثر من 250 شخصاً من مهجري مخيم ضبيه للفلسطينيين المسيحيين. أصوات عويل وصراخ جرحى الأدوار العليا اختلطت بأصوات أقرباء المدفونين في ملجأ البناء. الغريب أن صوت انفجار الصاروخين كان ضعيفاً مقارنة مع زلزلة الأرض التي أحدثها، وبدون أي حرائق أو دخان. إنها القنبلة الفراغية الأميركية الصنع التي دسنتها إسرائيل بمحاولة اغتيال "أبو عمار". هذه القنبلة التي تمتص الأوكسجين من مكان انفجارها محدثة فراغاً هوائياً فوق الهدف مما يؤدي إلى خلل كبير في الضغط الجوي ينتج عنه تقلص المواقع المستهدفة وتفتيتها.

وقف زياد الذي لم يبلغ العاشرة من عمره مذهولاً أمام أطلال البناء الذي غادره قبل خمس دقائق إلى الدكان ليشتري السكاكر، وعاد ليجده ركاماً وقد دفنت عائلته تحته، بينما بقيت جميع الأبنية المحيطة على حالها. كانت النسوة لا تزال تتدب، والدفاع المدني يحاول إزالة الركام لرفع الضحايا بينما سيارات الإسعاف تنقل القتلى والجرحى إلى المستشفيات. مسح زياد دموعه ورفع قبضته إلى السماء صارخاً: يجب أن نهدم عشرة أبنية في إسرائيل وأميركا انتقاماً من هذه الجريمة.

99

لم تعد "أم ميشال بشارة" قادرة على كبت حنينها للعودة إلى منزلها. فرغم الحفاوة والرعاية اللتين لقيتهما وزوجها من ابنتهما روز وعائلتها، فإن قلبها ما فتىّ يحنّ إلى الحبيب الأول... كان بيتها الصغير العتيق، وحديقته الكبيرة والذي ورثته عن أهلها هو الذي وُلدت وترعرعت فيه، وهو الموقع ذاته الذي شيد عليه كمال وهبه عمارته بعد أن اشتراه منها وأعطاهما شقتين في عمارته مقابل عقارها، حيث سكنت في احدهما، وأجرت الثانية لـ "رويتز" وعائلته. ولكن، وبعد إصرار

كبير، وافقت ابنتها على ذهابها إلى غرب بيروت لتتقَدُ بيتها والاطمئنان إلى جيرانها لمدة ساعة واحدة فقط. وافقت "أم ميشال" على هذا التدبير على مضض وانتظرت هذا النهار بفارغ الصبر.

تبرّع داني بالذهاب معهم حتى حاجز القوات اللبنانية كي لا يتعرّضوا لمضايقات من عناصره. ولكن "أم ميشال" رفضت ذلك بشدة قائلة أنهما عجوزان لا يقَدّمان ولا يؤخران في ما يجري، وبالتالي فإن لا مشاكل تواجههما على الحواجز المسلحة عادة. واكتفت بصهرها "أبو داني" وسيارته الفولفو القديمة، بعد أن ملأت صندوقها بالخضار والفاكهة وغالونين من ماء الشرب كهدايا لجيرانها المحاصرين.

وصلت بهم السيارة إلى منطقة العدلية باتجاه حاجز القوات، فلفتت نظرهم عن بُعد مجموعة من العناصر تتناقش في ما بينها بصوت عالٍ، بينما كان بعضهم يسرع باتجاه المبنى المرتفع القريب من مبنى متحف بيروت. فجأة لعلع الرصاص واحتذى المقاتلون في متراسهم وهم يطلقون النار في الهواء في إشارة للسيارات القادمة بالعودة أدرأجها. توتر "أبو ميشال" وبدأ يصلي بينما توسّلت زوجته صهرها "أبو داني" الالتفاف والعودة بهم إلى البيت.

كانت دبابات وهاونات الجيش الإسرائيلي تقصف محور البربير والمتحف وميدان سباق الخيل من منطقتي المصالح والبويك بطريقة استفزازية، رغم حديث شارون بالأمس أنه حريص على الخيول الرابضة في ميدان سباق الخيل، والتي قال أنه يسعى لإخراجها إلى مكان آمن آخر خوفاً على حياتها. ولكن يظهر أنه غير رأيه اليوم، ولم يعد مهتماً بسلامة الحيوانات أو البشر فداءً لتنفيذ مخططه السياسي الإرهابي ذي الشقين، والقاضي بضرب منزل السفير الفرنسي الذي يقع إلى جانبه ميدان سباق الخيل، انتقاماً من سياسة الرئيس ميتران الذي أعلن استعداد بلاده للمشاركة في القوات المشتركة، ولخروج مشرف للفلسطينيين حفاظاً على كرامة المقاومة؛ وكذلك لجعل شارع المتحف

الذي يضم قصر منصور والذي تحول إلى مركز مؤقت لمجلس النواب اللبناني شارعاً غير آمن، بهدف نقل جلسات انتخاب رئيس الجمهورية العتيد إلى مكان آخر يضمن سيطرته عليه.

100

كانت معنويات فوكس في أدنى مستوياتها بعد أن أفلتت ياسر عرفات من بين يديه ثانية. لقد تأخر الإسرائيليون كثيراً في التحرك لإصرارهم على استخدام القنابل الفراغية في هذه العملية، فلو تفاعلوا مباشرة مع المعلومات التي وصلته من الزبيق في بيروت الغربية، واستخدموا الصواريخ الانشطارية التي تحملها الطائرات التي تحوم فوق بيروت، لكان قضي على ابن الشر... مباشرة، بدل أن يطلب جهاز "أمان" من غرفة OPS إرسال طائرتي القنابل الفراغية من إسرائيل واللتين تأخرتا عشر دقائق ثمينة كلفته خسارة المليون دولار التي وعده بها.

كعادته كان فوكس مداوماً في مقسم هاتف بدارو يتابع عملية التنصت على هواتف المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية.

من طرف القاعة ناداه جان: لقد سمعت كلاماً مشبوهاً على هاتف منزل نبيل العلم عميد الداخلية في الحزب القومي الاجتماعي.

- مع من كان "العلم" يتكلم؟
- مع شخص اسمه حبيب رقم هاتفه 323457 وعنوانه في ساحة ساسين.

- وماذا كان موضوع الحديث؟
- لقد سأله "العلم": أين خبأت الأغراض؟ فأجابه: على المتخت.
- وفي أي منزل؟ فأجابه: في منزل جدي. عظيم، أريدك أن تأتي لعندي فور أن تفتح المعابر يا بطل.

- وماذا الذي جعلك تشكّ بالحديث؟

- عدة أشياء، أولاً: تخبئة الأغراض على المتخت، فلا بدّ أن تكون أشياء حساسة، أوراق سرّية مهمة، أو بضائع أو مجوهرات مسروقة أو أشياء من هذا القبيل. ثانياً: إنه نبيل العلم المسؤول في الحزب القومي ويريد من حبيب هذا أن يأتي لعنده بسرعة ليحادثه بشيء هام لا يستطيع التكلم فيه على الهاتف، أو أنه يريد أن يعطيه شيئاً هاماً يريد نقله من المنطقة الغربية إلى الشرقية. ثالثاً: إنه سمّاه النبيل، أي أنه يشجّعه على تنفيذ شيء ما. ألا يعني هذا شيئاً لك؟

- معقول، فإذاً أريدك أن تحدّد العنوان الكامل لحبيب هذا وتبلغني لنتقصّى عنه. هل سجّلت المخابرة؟

- أكيد، وسأفيدك بعنوانه الكامل بأسرع وقت.

يقيم حبيب الشرتوني في منطقة الأشرفية، منتقلاً بين منزل جده نعمان صابر في الطابع العلوي من مبنى كتّاب الأشرفية في ساحة ساسين، ومنزل خالته يولاند في محلة الناصرة. وقد انتسب إلى الحزب القومي الاجتماعي في العام 1977، ونشأت صداقة بينه وبين نبيل العلم عميد الداخلية في الحزب، إثر لقاءهما في فرنسا، حيث كان حبيب يتابع دروسه الجامعية. وعندما عرف نبيل العلم أن حبيب الشرتوني يقيم في نفس البناء الذي يتخذ منه حزب الكتائب في الأشرفية قرأ، شدّد من أوامر الصداقة معه وراوده عن ضرورة التخلص من بشير الجميل الذي ينتهج سياسة مضادة لمنظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية التي ينتمي الحزب القومي الاجتماعي إليها.

نبيل العلم أقنع حبيب بتنفيذ عملية لاغتيال بشير الجميل عبر وضع المتفجرات في الطابع الأول من البناء الخالي من السكان والذي يشغل حزب الكتائب طبقته الأرضية وعائلة حبيب الشرتوني الطابق الثالث. وبالفعل استلم حبيب كمية كبيرة من متفجرات الـ تي أن تي

والديناميت والسيتمكس البلاستيكية إضافة إلى صواعق كهربائية نقلها على عدة دفعات في سيارة والده الزرقاء من نوع دودج دارت موديل 1974، وخبزها في منزل جده في ساحة ساسين.

101

كجزء من أنشطتها الاجتماعية لدعم صمود المدنيين في غرب بيروت، أنشأت "جمعية المواطن الصالح" بالاشتراك مع "الهيئة النسائية الموحدة" برنامجاً ترفيهياً وتنقيفياً لأطفال وأولاد العائلات المهجرة عن منازلها. ففي مدرسة زقاق البلاط الرسمية تطوّعت مجموعة من الشابات والشبان لتحريك أنشطة مجموعة من الناشئين الذين يسكنون في الجوار، بغية تسليتهم والتمويه عنهم بالدرجة الأولى، وتغذية مواهبهم الفنية وإطلاقها.

في أحد فصول المدرسة، جلس خمسة عشر طفلاً تتراوح أعمارهم بين التسع سنوات والخمس عشرة سنة. تمّ توزيع دفاتر رسم وألوان عليهم، قدّمتها "الهيئة النسائية الموحدة"، والهدف منحهم فرصة ليعبّروا عمّا يجيش في أنفسهم عبر الأقلام والألوان.

لم تُفاجئ مواضيع رسوم الأولاد راشداً الذي كان في عداد متطوعي جمعيته: طائرات ودبابات وانفجارات وحرائق وسيارات إسعاف. ولكنه صدم عندما شاهد رسم بتول ذات الأربعة عشر ربيعاً. تابوت أسود بداخله رجل مضرّج بدمائه وقد جحظت عيناه. استغرب راشد رسمها هذا. وضع ذراعه على كتفها منقرباً منها وسألها عن سبب رسمها هذا التابوت.

بصوت متهدج وكلمات متقطعة أجابت:

- إنه أبي يوم استشهد. جاءوا به إلى بيتنا في حي السلم والقصف مستمر. وضعوه في فراشه في غرفة النوم والقصف مستمر. لم يغسلوه

لأنه شهيد. حرام أن نغسل الشهيد. جاء أحد الشبان ووضع شريط سكوتش لاصق أسفل ذقنه وصعوداً عبر وجنته حتى رأسه ثم نزولاً نحو وجنته الأخرى ونحو أسفل ذقنه ليبقى فمه مغلقاً. لم يتوقف بكاء أمي، ولم يتوقف القصف. تساقطت دموعها على وجهه وابتلت الدماء الجافة على جبهته. سقطت دمعته في عينه. ضحكت أمي ضحكة هستيرية مخيفة قائلة بصوت متهذج: كان يحب أن يقبلي قبلة العيون، كان يضع عينه على عيني وفتحتها ونغلقهما سوياً وكان عينانا تقبلان بعضهما. أغلقت عيناه بيدها. لن يقبلي أحد بعد الآن. ما زال القصف مستمراً. انتظرنا الشيخ ليأتي قبل آذان الظهر ولكنه لم يأت. ما زال القصف مستمراً، وما زالت أمي تبكي. انتظرنا الشيخ حتى العصر ولكنه لم يأت. ما زال القصف مستمراً، وما زالت أمي تبكي. اقترب موعد آذان المغرب ولكنه لم يأت. ما زال القصف مستمراً، وما زالت أمي تبكي. قال الشبان لا بد أن الشيخ خائف من شدة القصف. قرروا الصلاة عليه حسب معرفتهم. إنه دين يسر وليس دين عسر. ما زال القصف مستمراً، وما زالت أمي تبكي. دفنوه في الرادوف قبل المغرب. ما زال القصف مستمراً حتى اليوم، وما زالت أمي تبكي حتى اليوم، وما زلت أذكر كل ما حدث ذلك اليوم وكأنه اليوم.

تبارى بقية الأولاد في سرد القصص وراء رسومهم، ولكن رواية بتول بقيت الأكثر مرارة والأكثر تأثيراً في راشد، ربما لأنها لمست وتر الذكريات المرة لديه. يوم قُصفت بناية البروفسور. تسلق الركاب. حفر بيديه العاريتين. اكتشف كُتب البروفسور. تحتها برز وجهه مضرجاً بالدماء. عين مفتوحة والثانية مغلقة. إنه يغمزه للمرة الأخيرة. ولكنه للمرة الأولى لن يبتسم. إنه يبكي. ولا زال يبكي حتى اليوم، ولا زال القصف مستمراً حتى اليوم.

أدمت تجربة الحرب المرة ذاكرة البيروتيين، وحفرت ذكريات دموية في قلوبهم حدّدت من هو الأخ والصديق والعدو.

في نفس الوقت كان الشاعر محمود درويش يكتب لبيروت:

بيروت - لا.

ظهري أمام البحر أسوارٌ و.. لا

قد أخسر الدنيا، نَعَمْ،

قد أخسر الكلمات والذكرى

لكني أقول الآن: لا.

هي آخرُ الطلقات - لا.

هي ما تبقى من هواء الأرض - لا.

هي ما تبقى من حطام الروح - لا.

بيروت - لا.

* * *

أشلاؤنا أسماؤنا. لا... لا مَفْرُ.

سقط القناعُ عن القناعِ عن القناعِ،

سقط القناعُ

لا إخوةً لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاغ

لا الماءُ عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراغ

ولا الأمام ولا الورا

حاصرٍ حصارك.. لا مفرٌ

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوك.. لا مفرٌ.

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي.. فأنت الآن حُرٌّ

حُرٌّ

وحرٌّ..

قتلاك، أو جرحاك فيك ذخائر

فاضرب بها. اضرب عدوك.. لا مَفْرُ.

ذهبَ الذينَ تحبُّهم، ذهبوا
 فإمّا أن تكونَ
 أو لا تكونَ،
 سقط القنّاعُ عن القنّاعِ عن القنّاعِ
 سقط القنّاعُ
 ولا أحدُ
 ألاّك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيان،
 فاجعل كلّ متراسٍ بلنّذ
 لا.. لا أحدُ
 سقط القنّاعُ
 عربّ أطاعوا رومهم
 عربّ وباعوا رُوحهم
 عربّ.. وضاعوا
 سقط القنّاعُ

102

منذ الخامسة من صباح هذا اليوم ما زالت الطائرات الإسرائيلية
 تغير على جميع المناطق في بيروت الغربية وضاحيتها الجنوبية. وكأن
 شارون مصمّم على صبغ جميع أيام بيروت بألوان الموت. فبعد يوم
 الجمعة المزلزل، والسبت الأسود، والأحد الأحمر، والاثنين الرهيب،
 والثلاثاء العاصف، والأربعاء الدامي، جاء دور الخميس المدمّر.
 زرعت القنابل والصواريخ دمارها في الأحياء المدنية والمواقع
 العسكرية، وخاصة على الخط الأخضر ومحاور الضاحية الجنوبية. لم
 يكن رد المقاومة هذا اليوم بمستواه العادي، ربما بسبب انخفاض
 مخزون الذخائر أو بسبب تغلغل اليأس إلى نفوس المقاتلين. لذلك كانت

الطائرات الحربية تطير على ارتفاعات منخفضة جداً، إلى درجة أنه كان يمكن مشاهدة رأس الطيار من قمرة وكذلك النجمة السداسية عليها مما جعل الطيارين يتجرأون على استخدام رشاشاتهم الثقيلة من عيار 800 ملم في إرهاب السكان المدنيين في سياراتهم في منطقة الروشة.

في ملجأ بناية وهبه تكتلت الأجسام على بعضها البعض، وفاحت رائحة الأجساد التي لم تعرف طعم الماء منذ مدة طويلة، وارتفع بكاء الأطفال ممزوجاً بصوت انفجار القذائف المثير للأعصاب. رغم ذلك استكان اللاجئون للواقع وسلّموا أمرهم لله، بعد أن أصبحوا لاجئين في وطنهم. ولكن مع اشتداد القصف وارتفاع وتيرته واستمرار الطائرات الحربية في رقصة الموت فوق ضحاياها، بدأت عيونهم تتفتح وألسنتهم تنطلق تعبيراً عن غضبهم ويأسهم من الأوضاع التي وصلوا إليها. الشوارع فارغة والطائرات تنزلق مطلقه صواريخها وقذائفها، لتتوهج السماء باللون الأحمر، فترتفع أعمدة الدخان الأسود لتبدو من تحتها خيوط نارية متأججة.

اقترب القصف وسقطت قذيفة قريبة اهتزت لقوة انفجارها البناء وعصفت بالملجأ ريح قوية حملت معها رائحة بارود نفاذة، بينما كانت أصوات الزجاج المتحطم تجرح أعصاب اللاجئين المتوترة وتدمرها. أصيب بيت الحاج "أبو أحمد" القديم وتناثر حطام بعض قرميده الأحمر بينما انطحن ما تبقى منه فتاتاً، كما أصيبت خزانات الماء وتسربت مياهها التي امتزجت بمادة غريبة كانت تحرق كل شيء تمرّ عليه من ثياب وأخشاب. انتشر الدخان الأبيض برائحته الفوسفورية الغريبة في الشارع الضيق حيث حفرت الشظايا أثلاماً عميقة، ونسفت حجارة الرصيف من أمكنتها لتختلط مع بقايا القرميد والألمنيوم والزجاج المنتشرة عبر الطريق، وقد بلّتها المياه الأسنة التي نفرت من المجرور العام، فتدفقت عبر ما تبقى من الطريق، وقد فاحت رائحتها الكريهة متسلّلة نزولاً نحو ملجأ البناء، حيث احتشد أكثر من سبعين مواطناً هرباً

من وحشية القصف. دخلت قطة سوداء إلى الملجأ بسرعة وهي تموء، ربما هرباً من الانفجار، أو أنها قد تكون اشتمّت رائحة طعام، أو رائحة كنار رنا، أو ربما رائحة أحد الفئران أو الجرذان التي تسكن الملجأ.

عاود ألم الأضراس ضغطه على مدام ناديا، فأعطتها "أم جمال" حبة "بنادول" واستمرت بسرد الحلم الذي رأتَه في الليلة الماضية.

- رأيت نهراً هادراً انتشر على ضفتيه قطيع كبير من الأغنام، وكلما حاولت غنمة عبور النهر سحبها التيار وأغرقها. وفجأة فاض النهر على ضفتيه وبدأ بجرف الأغنام السوداء فقط عن الضفتين في عبابه. عندها أفقت من حلمي.

- أنت بحاجة إلى مفسر أحلام ليفهم مغزى هذا الحلم الغريب.
- أعتقد أنني فهمت الحلم جيداً. وأعتقد أن حلمي هذا سيتجسّد حقيقة واقعة قريباً مثل جميع أحلامي.

بعد ظهر الخميس المدمر في 12 آب 1982، وقف شفيق الوزان، رئيس الوزراء اللبناني، على درج قصر الرئاسة مصرحاً: إذا كان هدفهم قتلنا كلنا، فليذهبوا هذا الأمر لمرة واحدة وللأبد، إذ لم يعد لدينا شيء آخر نتنازل عنه لهم. فلماذا هذا الإجرام إذاً؟

في الوقت نفسه تقريباً كان البيت الأبيض يبدأ نشاطه اليومي عندما اتصل الملك فهد بالرئيس ريغان متوسلاً العمل على إيقاف هذه المجزرة. وما أن انتهت المخابرة حتى دخل على الرئيس ريغان مساعده الشخصي مايكل ديغر والدم يغلي في عروقه قائلاً:

- لا يمكن أن نبقى متفرجين على ما يجري في بيروت. القصف وقتل الأطفال. إنه خطأ. إنك الإنسان الوحيد في العالم القادر على إيقاف هذه المجزرة. كل ما عليك عمله هو الاتصال ببيغن وإبلاغه أنك تريده أن يوقف هذه المجزرة. ودفع إليه بالتقارير التي وصلت خلال الليل من وزارة الخارجية حول الأوضاع الأمنية في بيروت.

اتصل الرئيس ببيغن وقرأ له من المذكرة التي كتبها له ديفر، طالباً منه إيقاف أعماله الحربية وإلا اضطرّ لسحب فيليب حبيب من لبنان مما سيؤثر على العلاقات المستقبلية بين البلدين مضيفاً أن العالم ليس بحاجة إلى "هولوكوست" جديد.

ثار بيغن من كلام ريغان مذكراً إياه بأن إسرائيل دولة مستقلة وليست مستعمرة أميركية. ولكنه عاود الاتصال بالبيت الأبيض بعد عشرين دقيقة قائلاً إنه أمر بإيقاف القصف على بيروت.

- شالوم، مناحيم. قال ريغان وهو يغلق سماعة الهاتف، وتوجّه نحو ديفر قائلاً: لم أكن أعرف أنني أملك هذا القدر من السلطة.

توقّف حمام الدم بعد إحدى عشر ساعة من القصف الجوي والبحري والبري. توزّعت أضراره بشكل كثيف في جميع المناطق، بحيث أصبح تعداد المناطق التي لم تُقصف أسهل من تعداد الأماكن التي أُصيبت، إثر سقوط أكثر من 44 ألف قنبلة وصاروخ على بيروت الغربية وضاحيتها الجنوبية، أدت إلى وقوع أكثر من 500 إصابة بين قتل وجريح وإلى تدمير أكثر من 800 منزل معظمها في المخيمات الفلسطينية.

إنها سياسة الأرض المحروقة استعداداً للاقتحام. ولكن في خضم هذه المعمعة لم ينسَ رئيس مجلس النواب، كامل الأسعد، واجباته الدستورية، فدعا النواب من مصيف برمانا إلى انتخاب رئيس جديد للجمهورية يوم الخميس القادم في 19 آب/أغسطس الحالي، وذلك في المقر المؤقت لمجلس النواب اللبناني في "قصر منصور"، والمرشح الوحيد هو الشيخ بشير الجميل. ثم ليعود - أي رئيس المجلس - بعد ذلك لمواصلة رياضة التنس بينما الطائرات الإسرائيلية ما زالت تحوم فوق العاصمة الصامدة.

103

ما أن توقف القصف الجوي على بيروت، حتى انعقد مجلس الوزراء الإسرائيلي في جلسة طارئة بناءً على طلب وزير الدفاع أريئيل شارون، الذي كان بصدد طلب السماح لجيش الدفاع الإسرائيلي باقتحام بيروت على عدة محاور، وخاصة على محور المتحف/البربير ليقسم بيروت الغربية إلى شطرين.

ولكن حسابات شارون لم تتطابق مع توجهات زملائه الوزراء الذين هاجموه على خلفية خميس بيروت المدمر الذي أثار حفيظة ريغان وزملائه الوزراء أريئيل وهايمر وبورغ وشامير الذين هاجموا تفرده باتخاذ القرارات بدون العودة إلى المجلس حسب الأصول المتبعة. توجه موشي ليفي إلى شارون محاولاً تهدئة نغمة زملائه.

- إنك لا تخدع الإسرائيليين وحسب، بل تخدع رئيس مجلس الوزراء والأعضاء.

قاطعته شارون صائحاً: إن أي قرار بعدم الاقتحام سيكون قراراً سيئاً.

عندها صرخ بيغن في وجه شارون: اخفض صوتك في هذا المجلس... فأنا من يترأس الجلسة.

تخصّص شارون وجوه زملائه الوزراء فوجد نفسه منبذاً منهم جميعاً ما عدا من يوقال نعمان من حزب "هاتحيا" اليميني الذي حاول إقناع الجميع بالموافقة على اقتراح شارون. ولكن أغلبية الوزراء رفضوا اقتراحه، وصوتوا على أغرب قرار في تاريخ إسرائيل، حيث تمّ كف يد وزير الدفاع عن سلاح الجو بسبب إساءته استعمال صلاحياته.

كانت عملية الخميس المدمر هي القشة التي قصمت ظهر شارون، فبعد استبداده بالتفرّد بالضغط على مجلس الوزراء لتمرير القرارات

التي يرتئها، انقلب السحر على الساحر. فرغم اعتراضه على تزويد بيروت بالماء وقوله إنه لا يعمل سمكياً لدى حبيب، أجاز مجلس الوزراء الإسرائيلي فتح الأنابيب التي تزود غرب بيروت بالماء. وبعد اعتراض شارون على اشتراك الفرنسيين في القوات المتعددة الجنسية وافق مجلس الوزراء على ذلك، وهكذا تمّ إعلام فيليب حبيب بهذه التطورات الهامة.

104

في هذه الأيام، كانت القيادة الفلسطينية تعيش بشخصيتين متناقضتين. إحداهما تدعو المقاتلين إلى الصمود، بينما الأخرى تفاوض فيليب حبيب بطريقة غير مباشرة على الرحيل عن لبنان. هذه الازدواجية انعكست على نفوس المقاتلين وقادة التنظيمات المختلفة بأشكال سلبية مختلفة راوحت بين أقصى التشدد ومنتهى اليأس، الذي فرضته الضغوطات العسكرية الإسرائيلية من جهة، والضغوطات السياسية اللبنانية والعربية والدولية من جهة أخرى. أما العقدة الحالية فتجسّدت في الاختلاف على آلية انتشار القوات المتعددة الجنسية وتمركزها. فبعد أن حُلت مشكلة الإسرائيليين مع القوات الفرنسية، برزت عقدة توقيت نزول هذه القوات على الأراضي اللبنانية. ففي حين كان الإسرائيليون يريدون توقيت هذا النزول بعد انسحاب القسم الأكبر من المقاتلين الفلسطينيين على أن يتم انسحاب القيادات في المرحلة الأخيرة. فإن القيادة الفلسطينية اشتمت رائحة كريهة في هذا التدبير، إذ كيف يغادر المقاتلون بدون وجود قوات دولية تحمي المدنيين؟ وهل يُعقل أن تغادر القيادات بعد مغادرة المقاتلين وقبل وصول القوات الدولية؟ عدم الثقة بخطة الإسرائيليين هذه، قابلها عدم ثقة من جهة

الإسرائيليين الذين كانوا قلقين من إمكانية تطّي الفلسطينيين وراء القوات الأميركية والفرنسية والإيطالية في حال انتشارها قبل انسحاب القوات الفلسطينية، وبالتالي العودة إلى الحلقة المفرغة التي لا تنتهي من شروط ياسر عرفات الدائمة التجدد للقبول بالانسحاب.

كان "أبو عمار" يعتمد على "الاستخارة" من القرآن الكريم في اتخاذ قراراته، التي جاءت بمجملها رافضة الخروج من بيروت وداعية إلى الصمود فيها. فكان يخرج من خلوته دائماً مردداً: هبّت رياح الجنة، لقد أمرني القرآن الكريم برفض اقتراحات فيليب حبيب ومواصلة القتال.

ولكن وبعد ارتفاع عدد الضحايا الأبرياء خلال الأسبوع الماضي، وخاصة يومي الأربعاء الدامي والخميس المدمر إضافة إلى تهديم مبنى الصنائع على رؤوس سكانه، شعر "أبو عمار" بمسؤولية تاريخية تجاه العاصمة وسكانها. وكان اجتماعه مع الفعاليات البيروتية حاسماً في قراره التاريخي مغادرة بيروت، خاصة حين توجه إليه تقي الدين الصلح، رئيس الوزراء اللبناني السابق سائلاً:

- أريد طرح سؤالين هامين عليك أخي "أبو عمار". هل لديكم أي وعود من أي جهة دولية أو إقليمية بدعمكم عسكرياً في القريب العاجل وذلك لتغيير ميزان القوى الحالي؟ وهل لديكم أي سلاح سري لم تستعملوه حتى الآن وتعتقدون أنه قادر على قلب المعادلة العسكرية الحالية؟

- حدّق "أبو عمار" في عيني تقي الدين الصلح ثم أطرق نحو الأرض وهو يهزّ برأسه يميناً ويساراً: كلا يا أخي، ليست لدينا أي أسلحة سرّية لم نستخدمها ولسنا موعودين بأي دعم من أي شخص أو دولة على العكس، فالكل يريدنا المغادرة. والله لو كانت هذه القدس وليست بيروت لصمدنا حتى النهاية، إما النصر أو الشهادة، ولكن بيروت لأهلها وليس لنا الحق بتدميرها وقتل شعبها.

مع انتهاء الاجتماع أعلن ياسر عرفات أنه سيوقع على مذكرة استعداده لمغادرة بيروت.

بعد أخذ وردّ تمّ الاتفاق على أن تتزامن بداية انسحاب القوات الفلسطينية مع بداية نزول القوات الفرنسية كطليعة للقوات المتعددة الجنسية، على أن يتم تسليم الإسرائيليين الطيار والجندي الأسيرين إضافة إلى جثث الإسرائيليين التسعة التي تحتفظ المقاومة برفاتها. كما أن مشكلة إحجام بعض الدول العربية عن استقبال القوات الفلسطينية المنسحبة تم حلّها، حيث أعلن الأردن والسودان واليمن وتونس والعراق وسوريا استعدادهم لاستقبال أعداد مختلفة من هذه القوات، وذلك تحت ضغوط عربية وعالمية متعددة. ولكن، وفي اللحظة الأخيرة برز اختلاف على أعداد القوات المغادرة، ففي حين صرّح الفلسطينيون بأن ما يقارب 7500 مقاتلاً سيغادرون، فإن الإسرائيليين أعلنوا أن عدد المغادرين يجب أن يتجاوز 8500 مقاتلاً. كاد هذا الإشكال أن يعطلّ الاتفاق النهائي، لولا الوصول إلى صيغة تقضي أن تلبس الكوادر السياسية والنساء والأشبال اللباس العسكري ليرتفع عدد المغادرين إلى 8500 شخص، شرط أن يحمل كل منهم سلاحه الفردي فقط، بينما يتم تسليم السلاح الثقيل إلى الجيش اللبناني.

105

انتشرت الخرائط على جدران "مكتب تنسيق الانتخابات" الذي يديره زاهي البستاني، والتي كانت تُظهر العناوين الفعلية للنواب اللبنانيين، وذلك بهدف تأمين الحراسة عليها، وتحديد طرق وصولهم إلى مجلس النواب. كانت قائمة بأسماء النواب وأرقام هواتفهم قد تمّ تسليمها إلى فوكس للتصنّف عليهم ومعرفة تحركاتهم واكتشاف طبيعة اتصالاتهم

وارتباطاتهم المستجدة. أما الهدف الرئيسي لهذا المكتب فكان جمع 63 نائباً لتأمين النصاب الكافي لانعقاد جلسة انتخاب الشيخ بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية.

برزت عدة صعوبات في وجه تأمين 63 نائباً للحصول على النصاب القانوني اللازم لانعقاد مجلس النواب. فبداية قرّرت القوى الإسلامية والوطنية الامتناع عن المشاركة في الانتخابات، وحاولت إقناع الرئيس الباس سر كيس بالتمديد أو التجديد لمدة سنتين إضافيتين إلى حين الوصول إلى مرشح توافقي، ولكنه رفض ذلك بشدة بعد أن اكتشف خطورة المرض المُصاب به. ثم أثارت القوى الإسلامية ضرورة احتساب ثلثي العدد المطلوب لتأمين النصاب من العدد الأساسي للنواب وهو 99. ولكن نتيجة لاجتماع هيئة مكتب المجلس ولجنتي الإدارة والنظام الداخلي تمّ تثبيت وجوب احتساب الثلثين من العدد الحالي للنواب وهو 92 نائباً ليصبح عدد النواب المطلوب لحصول جلسة الانتخاب 63 نائباً، الذي حاولت القوات تخفيضه إلى 62 عبر محاولة فاشلة لاغتيال النائب حسن الرفاعي.

كان "مكتب تنسيق الانتخابات" قد ضمن أصوات 55 نائباً يمثلون حزبي الكتائب والأحرار وكتل ونواب الموارنة المستقلين والسكاف وأرسلان وكامل الأسعد إضافة إلى بعض النواب المستقلين. وهكذا انبرى أركان "مكتب تنسيق الانتخابات" للعمل بجهدٍ لدفع ثمان نواب إضافيين للانضمام إلى الـ 55 نائباً لضمان انعقاد الجلسة ونجاحها، فاستنفر زاهي بستاني وميشال المر وميشال سماحة وجان غانم وإيلي حبيقة جميع أسلحتهم المشروعة وغير المشروعة لاستقطاب النواب الثمان الضروريين. وبوجود صندوق مالي عامر ساهم فيه صدام حسين بخمسة ملايين دولار، وميشال المر بمليون دولار إضافة إلى الأموال التي جمعتها القوات من المرافئ والمعابر وتجارها الخاصة وصلت ميزانية تمويل الحملة إلى أكثر من 15 مليون دولار، مما شكّل طُعماً

شهباً لاصطياد النواب المترددين. استنفر فريق الانتخابات جميع مناصريه وطاقاته وأسلحته لتأمين العدد الناقص، فتم إقناع رينيه معوض وسالم عبد النور وفؤاد الطحيني وميشال معلولي وسليمان العلي وطلال المرعبي بوسائل مختلفة، إضافة إلى جوزف سكاف الذي جيء به بواسطة الهليكوبتر من المستشفى في باريس حيث كان يعالج لتأمين اكتمال العدد.

106

مع صمود الهدنة الجديدة وانسحاب الإسرائيليين من محيط مجلس النواب وتوفر المزيد من المواد التموينية في الأسواق تنفس أهل بيروت بعض الصعداء بعد عاصفة الدماء التي اكتسحت مدينتهم.

اكتمل عقد الجيران في مقهى "أبو عفيف" بعد عودتهم من مقبرة الشهداء، حيث شاركوا في تشييع الحاجة "أم أحمد". فبعد قرار الحاج "أبو أحمد" عدم النزول إلى الملجأ بسبب ضيق التنفس الذي كان يصيب زوجته هناك، وبسبب عدم تمكنه من الوضوء في الملجأ للصلاة، فأصيبت الحاجة "أم أحمد" إصابة خطيرة في رأسها وصدرها، عندما سقطت قذيفة فوسفورية على منزله القديم إضافة إلى إصابتها بحروق بليغة، لم تمهلها سوى أيام ثلاثة لتفارق الحياة. أما الحاج "أبو أحمد" فأصيب بحروق فوسفورية بصدرة وأطرافه ألزمته فراش مستشفى البربير.

- مسكين الحاج "أبو أحمد"، لم تكفه مأساة استشهاد زوجته وآلام جراحه وحروقه، فأولاده قد هاجروا كما أن إخوته لجأوا إلى الجنوب فأصبح وحيداً، لذلك علينا زيارته والاطمئنان على صحته دائماً، فهو لم يكن مقصراً مع أحد منا. بادر "رويتز" بالحديث.

- لقد طمأننتي مدام ليلي عليه، فرغم أن حروقه وجروحه ستحتاج إلى مدة طويلة لنشفي ولكن حياته ليست في خطر والحمد لله. أردفت مدام ناديا.

تدخل "أبو جمال" قائلاً: إن إسرائيل دولة مجرمة تعيش على آلام ودماء الفلسطينيين والعرب.

علقت زوجته على كلامه: لقد تمّ اليوم سحب ثلاث جثث جديدة من تحت بناية الصنائع.

- كما تمّ اعتقال فتاة أدخلت سيارة فولفو مليئة بالمتفجرات إلى موقف سيارات الإذاعة اللبنانية، وتم تفكيكها وتبين أن جميع المتفجرات عليها كتابات عبرية. علّق "أبو جمال".

تضح راشد وعدل من جلسته "أغرب ما سمعته وأكثره وقاحة مما قالته إذاعة BBC اليوم بأن مجلة Aviation Week الأميركية، نشرت إعلاناً بالألوان وعلى صفحة كاملة يُظهر طائرات حربية إسرائيلية تُسقط قنابل فوق مدينة بيروت تحت عنوان كبير يقول: قنابل يمكنك الاعتماد عليها لتنفيذ المطلوب منها تماماً وكتب في الأسفل: الصناعات العسكرية، جيش الدفاع الإسرائيلي.

- ولكن يظهر أن الأميركيين استطاعوا إيقافهم عند حدّهم إفساحاً في المجال أمام المفاوضات لخروج المقاومة من بيروت. قال "روبنر".
- إنهم يتناوبون الأدوار. علّق "أبو جمال" مضيفاً بصوت منخفض: لقد سمعت من الشباب أنه تمّ الاتفاق على رحيل المقاومة رغم أن بعض القيادات غير موافقة على ذلك.

- أنا لن أرحل من هنا. زعق جمال: سأختفي عن الأنظار ولن أَدع أحداً يكتشف مكاني.

- حتى أنا لن أَدعك ترحل معهم. أضافت "أم جمال" بحدة: فأنت وُلدت في لبنان وأمك لبنانية فلا يحق لهم أخذك مني.

في هذا الوقت كان ياسر عرفات مجتمعاً مع رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان في القصر الحكومي.

- دولة الرئيس، أقدم لك هذه المذكرة التي كتبتها بخط يدي - أصرّح فيها عن استعداد منظمة التحرير الفلسطينية للرحيل عن بيروت وفق النقاط التي تمّ الاتفاق عليها أخيراً. لقد بذلت منظمة التحرير الفلسطينية جهوداً جبّارة لتأمين حياة لائقة لشعبها في لبنان، فأنشأت مؤسسات صحية واجتماعية وتعليمية وثقافية وإعلامية وصناعية وزراعية تحوّلت إلى شجرة باسقة تقياً في ظلّ أمانها اللاجئون الفلسطينيون في لبنان. ولكن ومع الأسف فإن جذور هذه الشجرة كانت ضاربة في رمال متحركة. فلا اللبنانيون يريدون توطين اللاجئين في بلادهم، ولا الفلسطينيون يقبلون بغير فلسطين داراً لهم. والآن، ومع زوال هذه الشجرة التي تظلّل الفلسطينيين في لبنان وتمنحهم الأمان، أمل أن تحافظوا على الأمانة التي أودعتها بين أيديكم.

أطرق شفيق الوزان إلى الأرض محاولاً حبس دمة عزيزة، فأغلق عينيه بشدة سائلاً نفسه ما الذنب الذي اقترفه ليمرّ بهذا الموقف الصعب. مرّت لحظة صمت طويلة نهض على أثرها الوزان مستأنناً. دخل غرفة نومه وعاد حاملاً مصحفه الخاص الذي يضعه إلى جانب سريره.

- أخي "أبو عمار"، لقد أعطيتني كتاباً بخط يدك، وأنا أقدم لك كتاب رب العالمين، متعهداً بشرفي أن أرفع إخواني الفلسطينيين الذين سيبقون في لبنان كما أرفع إخوانهم اللبنانيين.

107

كانت القوات الأميركية والفرنسية والإيطالية قد وصلت إلى مشارف الشواطئ اللبنانية عندما استلم الإسرائيليون أسراهم الاثنين إضافة إلى رفات جنث الإسرائيليين التسع التي تعود إلى العام 1978.

في هذا الوقت بالذات كان المقاتلون يشترتون حقائب كبيرة لوضع أمتعتهم الشخصية فيها بينما كانت الحركة الوطنية اللبنانية تستلم أسلحة المقاومة الفلسطينية الثقيلة كي لا يصارها الجيش اللبناني، فيما كان رئيس مجلس النواب اللبناني، كامل الأسعد، يعلن تأجيل موعد انتخابات الرئاسة إلى يوم الاثنين في 23 آب/أغسطس، ونقل مكان انعقاد الجلسة إلى قاعة المحاضرات في المدرسة الحربية في منطقة الفياضية، بسبب سقوط قذائف هاون إسرائيلية في محيط مبنى مجلس النواب في منطقة المتحف، رغم أن النظام الداخلي للمجلس يحتم انعقاد الجلسة ضمن الحدود الإدارية لمدينة بيروت. وتعليقاً على هذا التدبير قال وليد جنبلاط، رئيس الحركة الوطنية اللبنانية: لماذا لا يعقدوا جلسة الانتخاب في مجلسهم الحربي في الكرنتينا ويريحوننا من هذه المسرحية؟

أما في المجلس الحربي في الكرنتينا، فإن بشير كان يعقد جلسة الوداع لمجلس القيادة الكتائبي قائلاً لهم: منذ بداية المسيرة قالوا إننا مجانين. من معركة الأشرفية، إلى معركة زحلة، إلى التجنيد الإجباري، إلى الترشح لانتخابات الرئاسة. واليوم نرى أن الرئاسة أصبحت في متناول يدنا، مما يعني أننا كنا على حق في مسيرتنا. واليوم وأنا أرى المقاومة تتحول إلى دولة، نستنتج أنها نتيجة لتضحياتنا وللخمسـة آلاف شهيد الذين قدمناهم، ورغم أنني أعرف تماماً أن المزيد من الناس ستستشهد، ولكن رغم ذلك فإن المسيرة ستستمر.

108

إنها السادسة صباحاً.

حيّ العميد "أبو الوليد" طابور المقاتلين المنتظم أمام مقر قوة الـ 17 في الفاكهاشي، ثم صافحهم فرداً فرداً وعانق المسؤولين وسط جو

من التأثر والحزن الشديدين. تقدّم الطابور بكل نظام نحو الملعب البلدي. المقاتلون في أفضل قيافتهم العسكرية يلبسون ثياباً عسكرية جديدة ونظيفة ومتجانسة، وقد وضعوا الكوفيات السوداء حول أعناقهم واعتمر بعضهم الخوذ والبعض الآخر البيريه. للمرة الأخيرة عبروا قرب مقر قوات الـ 17. المبنى مهتمّ الأطراف، ونوافذه محطّمة، أما الأبنية حوله فدمرّة. تركوا كل شيء في مكانه، المكاتب والمهاجع وغرفة العمليات بأجهزتها اللاسلكية والخرائط العسكرية وخريطة فلسطين، حتى صورة "أبو عمار" بقيت صامدة في مكانها على الحائط.

دخلوا ملعب بيروت البلدي فارتفع التصفيق والهتاف من جموع الجماهير المنتظرة، في حين وقفت شاحنات الجيش اللبناني في إحدى جوانب الملعب بانتظار أن تقلّهم إلى المرفأ. ما أن صار المقاتلون داخل جدران الملعب حتى انفرط عقد الطابور، وكالمغنطيس انجذب كل مقاتل إلى مجموعة عائلته وأقربائه وأصدقائه.

ارتمى هاني بين ذراعي أمه المفتوحين لتضمّه بشدّة ماسحةً دموعها على كتفيه. دموع "أم هاني" لم تتوقّف منذ أسبوع عندما علمت أن على ابنها البكر هاني المغادرة إلى تونس مع رفاقه. الحسرة تملأ قلبها وما فتئت تردّد: ما ذنب شعبنا المعترّ لينا له هذا القدر من القهر والعذاب؟ لقد تهجّرت مع أهلي طفلة في الـ 48، وتزوّجت ورزقت بأولادي في بيروت، واستشهد زوجي في جنوب لبنان، والآن يتهجّر ابني البكر إلى تونس، وغداً ربما سيتهجّر أولاد ابني من تونس إلى بلد آخر... ربي أي ذنب اقترفته شعبنا ليعيش حياته بانساً مشرداً بلا هوية؟ اصطبغت عينا هاني باللون الأحمر من شدة حزنه على معاناة أمه ومن كثرة سهره المزمّن على محور السفارة الكويتية، وسهره المستجد في حفلات الوداع المستمرة منذ ثلاثة أيام، والتي انطلقت مع عقد قران ابن عمّه جمال على أخته سوسن، على أن يتمّ العرس في عيد الأضحى

المقبل، وهكذا يكون في البيت رجل يدافع عن العائلة بعد رحيل كبيرها هاني.

سهرة الأمس التي طالت حتى الثالثة صباحاً ضمّت إلى جانب عائلة هاني المباشرة الأقرباء والأصدقاء، وكان بينهم عمّه "أبو جمال الشاعر" وزوجته، وابن عمه جمال وأصدقائه راشد وعلي. وبين جولات أقذاح الشاي المخمر الخمس دار جدال حول جدوى التوقف عن القتال والرحيل، وعُقدت حلقة رقص الدبكة، واستعيدت سواف المعارك والمعاناة اليومية أثناء الحرب.

رغم أن عيني راشد لم تعرفا طعم النوم من تأثير أقذاح الشاي الخمسة التي شربها في سهرة الأمس، لكنه نهض مباشرة عندما أيقظه جمال عند الخامسة صباحاً لمشاركته وداع ابن عمّه هاني والدفعة الأولى من المقاتلين المغادرين. "إنه مفصل تاريخي في حياة الفلسطينيين واللبنانيين يجب أن أعيشه بحذافيره كي يبقى راسخاً في ذاكرتي". علّق راشد في سهرة الأمس عندما تدخل محاولاً إثبات أن اللبنانيين سيمرون أيضاً في نفق مظلم نهايته غير معروفة مثل حال إخوانهم الفلسطينيين. عندها علّق الرائد محسن مسؤول هاني والذي كان حاضراً "شرفاً لنا أننا صمدنا لـ 77 يوماً في مواجهة إسرائيل، بينما لم تصمد أكبر الدول العربية أمامها لأكثر من ستة أيام. لقد صمدنا لـ 77 يوماً عسى أن يتحرك ضمير العرب ويساندونا، ولكن عبثاً فقد شلّت إرادتهم وأخصي ضميرهم وتحطّ شرفهم، أما أنتم يا أهل بيروت فقد أثبتتم أنكم ما زلتم أحراراً، وأرجو أن لا يصيبكم ما أصاب إخواننا العرب في العصر الإسرائيلي القادم إليكم".

أطلقت الشاحنات العسكرية اللبنانية أبواقها إيداناً بحلول موعد التحرك نحو المرفأ. من جديد تأجّبت العواطف، وارتفعت الحناجر بالهتاف والتهليل.

عانق راشد هاني مودعاً محاولاً حبس دموعه. ضغطاً على يديّ بعضهما بعضاً وسلّم هاني إلى راشد كيساً كان يحمله: إني أعتزّ بصداقتي لك وهذه هدية لك عربون صداقتنا كي تذكّرني دائماً كما سأذكرك. نفرت الدموع من عيني راشد وهو يستلم الكيس، بينما انصرف هاني مودعاً أصدقاءه وجمال وعمّه وأمه.

فتح راشد الكيس فوجد فيه رشيش شتاير قصير مع 3 أمشاط وخمس علب رصاص. حاول شكر هاني ولكنه كان منغمساً في العناق والبكاء، فانطلق بسرعة خارجاً من الملعب البلدي.

رغم مرارة الرحيل عليهم، فإن كرامة المقاتلين منعتهم من إظهار دموعهم التي كانوا يدارونها بإدارة ظهورهم لمسحها. أما "أم هاني" فبكت ملء عيناها حسرة، بينما "أم جمال" تحاول التخفيف عنها. ولكن ما أن وضع هاني حقيبته على كتفه هاماً بالتوجه نحو الشاحنة، حتى ارتفع نشيجها من جديد، ومن جديد عانقها هاني وقد اختنقت الكلمات في حنجرته وتدفقت الدموع من عينيه، فلا داعي ليخفيها الآن، فالجميع يبكي، إنه بحر من الدموع، حتى الجندي اللبناني وراء مقود الشاحنة كان يبكي. صعد إلى الشاحنة وأخذ مقعده بينما تشبّثت يدا "أم هاني" بهيكلها عسى تصلها حرارة جسم ابنها ونبضه ورائحته.

- هاني! ناداه راشد وقد عاد إلى الملعب: شكراً على الهدية، وهذه هدية متواضعة مني، إنها خرطوشة سجائر "جيتان" الفرنسية، إنها أفضل من "المارلبورو" الأميركية التي تدخنها، لقد آن الأوان للتغيير.

تحركت أولى الشاحنات نحو بوابة الملعب البلدي، فلعل صوت الرصاص مترافقاً مع هتافات وأهازيج الوداع مبلّلة بدموع المحبّين. وقف "أبو الوليد" و"أبو جهاد" إلى جانب الآلاف يودعون المغادرين رافعين الأصابع بإشارة النصر. شعور المودعين كان مزيجاً من السخط

والحزن والحب. رُفعت على الشاحنة الأعلام اللبنانية والفلسطينية وصورة كبيرة لياسر عرفات. كان صوت موجات الرصاص المتتالية تصمّ الأذان بينما كانت ظروفها المعدنية الفارغة تتطاير في جميع الاتجاهات ناشرة معها رائحة البارود. الأولاد يركضون هنا وهناك جامعين ظروف الرصاص المعدنية الفارغة في أكياس بلاستيكية ليبيعوا الكيلو منها بليرة لبنانية واحدة. بينما تنطلق من الحناجر هتافات "الله معكم" و"الله يحفظكم" و"مع السلامة" وقد تورّمت عيون النساء والرجال. علت الأصوات لتصمّ الأذان مع خروج الشاحنة الثانية والثالثة وتحرك القافلة كلها نحو البوابة، بينما النسوة المتشحات بالسواد يركضن وراءها علها تتزوّد بنظرة أو لمسة أخيرة تعينها على آلام الفراق.

جموع المودعين تتحرك مثل المد والجزر مع حركة الموكب الذي يمر في منطقة الفاكهاني النصف مدمرة والشبه مهجورة، بعض النسوة يرمين ما تبقى لقوتهن من الأرز من شرفات منازلهن تحية وداع لمن صمد بصمودهن. على كورنيش المزرعة مرابطاً على مدفع ثنائي مضاد للطائرات يحرق السماء بلهب نيرانه. صعوداً عبر شارع مار الياس يصطف مقاتلو الحزب التقدمي الاشتراكي على جانبي الطريق يحيون المغادرين بصاليات كثيفة من أسلحتهم المختلفة. من هناك تصل القافلة إلى وادي أبو جميل، حيث تُستقبل القافلة بالزغاريد والأرز والمزيد من الرصاص.

ويستمر الموكب نحو منطقة الزيتون فالفنادق المدمرة حتى مدخل المرفأ الذي تحرسه قوة فرنسية مدجّجة بالسلاح. لقد حان وقت الوداع النهائي. عاصفة من الرصاص تشوبها انفجارات بضع قنابل يدوية وقذائف آر بي جي، لتتحرف القافلة عبر بوابة المرفأ مختلفة في حرمه.

109

منذ العام 1976 وبشير الجميل يحلم بكرسي الرئاسة ولو عبر انقلاب عسكري. أما الآن وقد حانت الفرصة المناسبة فعليه أن يحصل عليها بأي ثمن كان، وبما أنه وصل إلى هذه النقطة بفضل براغماتيته المدروسة، فقد قرّر الاستمرار بلعب هذا الدور محافظاً على جميع الخيوط والأقنية المفتوحة مع الإسرائيليين والأميركيين والسوريين والسعوديين والمسلمين اللبنانيين وحتى مع بعض الفلسطينيين. وهكذا عندما اجتمع مع شارون في شرق بيروت قبل يومين من انتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية، طبق زئيقته لتأجيل موسم الحصاد الإسرائيلي. فبالنسبة لشارون فإن الوقت قد حان ليقطف ثمار قتلاه وخسائره في لبنان معاهدة للسلام حسب وعود بشير، الذي بعد أن أصرّ شارون عليه، طلب منه تأجيل الموضوع إلى ما بعد انتخابات الرئاسة.

قبل يومين من موعد الانتخابات، قُطعت الاتصالات الهاتفية بين منطقتي بيروت لإيقاف تحريض "الملتقى الإسلامي" للنواب بمقاطعة الانتخابات، كما أن المعابر أُقفلت لضمان عدم تسرب أي من النواب من المنطقة الشرقية إلى الغربية كما حصل مع النائبين حسين الحسيني وألبير منصور. كما تمّ وضع حراسة مشدّدة على منازل جميع النواب المشكوك بأنهم قد يحاولون عدم حضور الجلسة، لا بل لازم بعض قياديي القوات عدداً من النواب داخل بيوتهم لضمان حضورهم الجلسة التاريخية. من ناحية أخرى ساهمت ميزانية الانتخابات الخرافية في إقناع العديد من النواب في الحفاظ على كلمتهم مع بشير.

خلت شوارع البيروتين من الناس الذين لازموا بيوتهم خوفاً من تردّي الوضع الأمني في حال نجاح بشير أو فشله، وخاصة لأنه تمّ توصيل التيار الكهربائي للعاصمة المحاصرة خصيصاً ليتسنى لسكان

بيروت الغربية متابعة الانتخابات عبر الإذاعات وشاشات التلفزة. وهكذا أعلن رئيس مجلس النواب، كامل الأسعد، افتتاح الجلسة في الساعة الحادية عشرة تماماً بحضور خمسين نائباً. ومع حلول الظهر ارتفع العدد إلى 55، ولكن مع مرور الوقت ساد شعور بأن رئيس المجلس سيؤجل الجلسة. ولكن جاء من يقول بأن هناك المزيد من النواب في طريقهم إلى الجلسة، حيث وصل نائبان بالفعل. ثم دخل النائب موريس فاضل وسط تصفيق حاد وقد نكش شعره وأخرج قميصه فوق سرواله ليظهر وكأنه تعرّض لضغوط للمجيء إلى الجلسة. أصبح العدد الآن 59 ولكن لا زال ينقص أربعة نواب. مرت فترة حرجة ساد فيها الترقّب. توتّر أفراد القوات اللبنانية المتواجدين داخل حرم المجلس بملابسهم المدنية وقد أخفوا مسدساتهم تحت ستراتهم، فتعاملوا بشدة مع الصحفيين الذين أبدوا شكّهم في حصول الجلسة بسبب عدم اكتمال عقد النواب الكافي للنصاب القانوني. في الثانية عشرة والنصف دخل عراب الانتخابات ميشال المر وأعلن أن هناك أربعة نواب في طريقهم إلى الجلسة. دوّت عاصفة من التصفيق وعاد التفاؤل إلى وجوه نواب الكتائب ما عدا أمين الجميل شقيق بشير الذي ابتسم ابتسامة صفراء.

قبل أربعة أيام من الانتخابات، دخل النائب أمين الجميل على أخيه بشير المرشح لرئاسة الجمهورية، محاولاً إقناعه بالتخلي عن ترشيحه لصالحه، لأن لا أمل له بالنجاح كما أبلغه، وعليه أن يكون واقعياً، إذ أن جميع فرص النجاح متوفرة لأمين، فما كان من بشير إلا أن شتمه وطرده من مكتبه. ثار أمين من تصرّف بشير الذي نعته "بالحسّون" واتّجه مباشرة إلى غرب بيروت للاجتماع بـ "أبو أياد" الذي تربطه به صداقة قديمة، طالباً منه الضغط على النواب المسلمين ليقاطعوا الجلسة: المهم عدم اكتمال النصاب القانوني، ولو اضطرّ الأمر إلى قصف تكنة الفياضية بالصواريخ.

دخل النواب الأربعة سوية. كان جان غانم يحتجز النواب سالم عبد النور وفؤاد الطحيني وإميل روحانا وفؤاد لحدود في شقة واحدة بانتظار تعليمات ميشال المر، وكان كل منهم لا يريد أن يكون آخر الداخلين إلى الجلسة كي لا يظهر وكأنه بيضة القبان التي رجّحت كفة الميزان لصالح بشير الجميل. عند دخولهم القاعة سوية كان كلُّ منهم يحاول الظهور وكأنه اقتنِدَ عنوة لحضور الجلسة، حتى أن أحدهم طلب من مرافقه أن يُظهر سلاحه وكأنه مصوّب نحوه.

مع دخول النواب الأربعة لعلع الرصاص خارج القاعة. فالنصاب القانوني اكتمل، وأصبحت نتيجة التصويت مضمونة. كان بشير وفريقه مجتمعين في مكتبه أمام شاشة التلفزيون عندما دخل النواب الأربعة قاعة المجلس فقفز بشير في الهواء فرحاً وأسرع إلى الهاتف ليتحدّث مع زاهي البستاني:

- تقبرني، زاهي!

لم يتمكّن زاهي من الردّ عليه فقد غلبته الدموع وتجمّدت الكلمات في حلقه.

عمّت أجواء الاحتفال مناطق بيروت الشرقية والجبل، وفي غمرة إطلاق كثيف للنار والتفجيرات حضر "المخلص" لمقابلة رئيس المجلس الذي هنأه وترافقا إلى القصر الجمهوري لمقابلة رئيس الجمهورية. أما في بيروت الغربية وبعد وضوح نتيجة الانتخابات، نزل الناس إلى الشارع غير مصدّقين ما جرى. كانوا ينظرون إلى بعضهم ويهزّون رؤوسهم غير مصدّقين. مش معقول - هي الكلمة على كل لسان - من غير المعقول أن يكون هناك رابح وخاسر في لبنان، وأي رابح هذا الآتي على ظهر الدبابات الإسرائيلية. هذا الاحتقان تفجّر في غرب بيروت اعتداءات على منازل بعض النواب الذين شاركوا بانتخاب بشير. فتمّ تفجير وإحراق منازل رئيس مجلس النواب كامل الأسعد،

والنواب فؤاد لحود وعثمان الدنا ورائف سمارة وملكون أبلعتيان ويوسف حمود وعبد اللطيف الزين وفؤاد الطحيني وسالم عبد النور وطلال المرعي وفؤاد غصن.

مساء ذلك اليوم استلم رئيس الجمهورية اللبنانية الجديد، الشيخ بشير الجميل، رسالة من رئيس وزراء إسرائيل تقول:

سيادة الرئيس،

تفضلوا بقبول أحرّ التهاني بمناسبة انتخابكم. ليكن الله بعونكم يا صديقي العزيز، ويوفّقكم في تنفيذ مهمتكم التاريخية من أجل تحرير لبنان واستقلاله.

صديقكم مناحيم بيغن

110

عندما عرف فوكس بعنوان سكن حبيب الشرتوني في المبنى الذي يشغله حزب الكتائب في ساحة ساسين في الأشرفية، ثارت فيه الشكوك، فعاد إلى شريط التسجيل المحفوظ في المقسم، واستمع إلى الحوار الذي دار بين حبيب الشرتوني ونبيل العلم عدة مرات، فتعزّزت شكوكه وقرّر وضع تحركات الشرتوني تحت المراقبة.

بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية وبدء رحيل المقاتلين الفلسطينيين، تمّ فتح المعابر بين البيروتين واستلم الجيش اللبناني مسؤولية أمنها، لذلك كان على حبيب الشرتوني أن يتأكّد من طبيعة التفتيش الذي ينفّذه الجيش اللبناني على المعابر، قبل الاستمرار بالمخطط المرسوم. وصل بسياره الودج إلى الحاجز حيث طلب منه الجندي بطاقة هويته، وعندما سأله عن سبب عبوره إلى المنطقة الغربية، أبرز بطاقته الوظيفية في شركة تمام للإعلانات في شارع الحمراء، ففتّش صندوق السيارة بحثاً عن أي ممنوعات ثم سمح له بالمرور.

انطلق بسيارته نحو منزل نبيل العلم في حي التوتات في منطقة القنطاري يتبعه "الطيار" المخبر الذي أوكل إليه فوكس مهمة مراقبة الشرتوني.

بعد أن تناولا النكافيه وتجادبا الأحاديث حول الانتخابات، ونجاح المخطط الإسرائيلي في مصادرة القرار الوطني، عبر انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية تحت وطأة الآلة العسكرية الإسرائيلية، دعاه العلم للدخول إلى غرفة مجاورة، حيث تناول حقيبة سوداء من تحت السرير ووضعها على الطاولة وفتحها قائلاً:

- هذا هو جهاز التفجير اللاسلكي الذي يتحكم عن بُعد بالمتفجرات التي لديك. وهذه القطعة هي الجهاز اللاقط الذي سيوضع مع المتفجرات. أما بقية الحقيبة فتضم جهاز الإرسال الذي يتحكم بالجهاز اللاقط عن بعد. - ولكن كيف هي طريقة استخدامه؟

- في البداية يجب زرع الجهاز اللاقط بين المتفجرات بعد وصله بالصاعق الكهربائي، وعند الاستعداد للتفجير يجب فتح آلية الاستقبال. أما عملية إرسال أمر التفجير فتتم لاسلكياً كالتالي: يتم رفع الهوائي الذي ترسل الإشارة عبره، إذ أن هذه الحقيبة هي كناية عن سنترال متنقل كامل. تضغط على زر التشغيل الرئيسي "ON" ثم على الزر الأخضر هذا فيضيء ضوء أخضر صغير، ثم تطلب رقم اللاقط الذي هو (120)، عبر ضغط الأرقام (1-2-0) على لوحة الأرقام هذه، لتضغط بعد ذلك على زر (call) فتفجر العبوة لاسلكياً.

- إنها عملية سهلة، ولكنني لن أخذ الحقيبة معي الآن، لأنني أريد التأكد من طبيعة تفتيش السيارات التي تغادر المنطقة الغربية، وسأعود للاتصال بك لاحقاً لنقل الحقيبة إلى بيتنا في منطقة الناصرة.

أثناء عودته إلى المنطقة الشرقية لم يعترض أحد سبيل حبيب الشرتوني، حتى أن أمر الحاجز لم يطلب بطاقة هويته أو يفتح صندوق سيارته، بينما كان المخبر "الطيار" يقود سيارته وراءه.

بعد ثلاثة أيام، اتصل حبيب الشرتوني بنبيب العلم على رقم هاتفه المنزلي 253305 وأخبره أنه سيوافيه في الغد ليستلم منه الهدية، فرحّب العلم بالبطل. وعندما التقيا، أعاد حبيب أمام "العلم" خطوات تشغيل آية التفجير، فأعجب بنباهته وعانقه ناعثاً إياه مجدداً بالبطل. نزلا سوياً إلى الشارع ورفع "العلم" مقعد سيارة حبيب الخلفي ووضع الحقيبة وأعاد كل شيء إلى مكانه، ثم عانق حبيب مجدداً قائلاً: "الله مع البطل". طوال هذا الوقت كان المخبر "الطيار" يراقب كل شيء عبر مرآة سيارته.

111

صباح الاثنين في 1982/8/30 انطلق موكب ياسر عرفات الحزين للمرة الأخيرة من مركز قوة الـ 17 في "جمهورية الفاكهاني" المدمرة نحو مرفأ بيروت، وسط دموع من تبقى من سكان المنطقة، وتحت وابل من الأرز وماء الزهر الذي انهمر عليه من جميع الأطراف وهو يشق طريقه بصعوبة مع مرافقيه بين دعاء الجماهير "الله معك" وهتافها "ثورة، ثورة حتى النصر".

أمام منزل وليد جنبلاط في منطقة المصيطبة، رفع "أبو عمار" يده بإشارة النصر مبتسماً للجماهير المودعة، رغم الأسى الذي يعتصره، والذي فضحته عيناه الدمويتا اللون، مواجهاً حشد الشخصيات الوطنية والجماهير الشعبية المودعة. تقدّم نحوه طفل يلبس زي الأشبال وأعطاه غصن زيتون. عانقه "أبو عمار" وقبل يده متناولاً غصن الزيتون منه، بينما انصرفت أصابعه تعبت بكوفيته لتعدلها كعادته كلما بانّت عصبيته. وتحت إصرار جموع الصحفيين صرّح قائلاً:

- أنا فخور بالناس وبالمقاتلين. كان لنا شرف الدفاع عن هذا الجزء الغالي من بيروت المناضلة ضد البرابرة والوحوش. لكن بالرغم

مما فعلوه، وبالرغم من آلاف القنابل والصواريخ من البر والبحر والجو بقيت بيروت صامدة. نعم سأغادر بيروت، لكن قلبي وضميري سيبقيان هنا معكم.

وسط عاصفة من الهتاف "ثورة، ثورة، ثورة حتى النصر" انطلق الموكب من جديد وقد انضم إليه أركان الحركة الوطنية اللبنانية بدون أي إطلاق للنار بناءً لتمني "أبو عمار"، والذي استعريض عنه بأبواق السيارات التي سلكت شارع مار الياس - الزيدانية - الصنائع نحو القصر الحكومي.

تدافع وهرج ومرج رافق وصول "أبو عمار" إلى القصر الحكومي، الذي شق وصحبه طريقه بصعوبة هائلة نحو مكتب رئيس الوزراء اللبناني. عناق ودموع تحجرت في المآقي، وخطب وداعية مؤثرة، ورسائل متبادلة موجهة إلى الشعبين الفلسطيني واللبناني. لقد أثبت "أبو عمار" بأنه أعطى بيروت بقدر ما أعطته. فكما أن شعبها صمد مُدافعاً عن مدينته بصدرة، مُشكلاً خط الدفاع الأول بوجه اجتياح العاصمة، كذلك فإن "أبو عمار" قد أعطى الكثير من نفسه وشموخه عندما وافق على الانسحاب من بيروت حقناً لدماء سكانها وصوناً لما تبقى من معالمها.

بعد ذلك غادر "أبو عمار" والرئيس الوزان مقر رئاسة الحكومة في سيارة واحدة نحو منطقة النورماندي وسط عاصفة من العواطف المؤثرة وهتافات "ثورة، ثورة حتى النصر". عبّر الموكب منطقة النورماندي باتجاه المرفأ وسط ملحمة أخرى من العواطف الجياشة. عند بوابة الشامية اختلط الصحافيون والمودعون بثلة "الكفاح المسلح الفلسطيني" التي جاءت لتؤدي التحية لرئيسها. وما أن ترجل "أبو عمار" لاستعراض ثلة "الكفاح المسلح" حتى فاض طوفان المودعين باتجاهه مغلقاً الطريق وسط هتافات مدوية "ثورة، ثورة حتى النصر". وهكذا لم يعد باستطاعة "أبو عمار" العودة إلى سيارته بعد أن ألغى استعراض القوة المودعة. فاستقل أقرب سيارة إليه، ولكن الجموع المودعة امتطت

السيارة التي لم تعد ظاهرة للعيان، فجهد المولجون بالأمن إلى جانب القوات الفرنسية في ردهم للابتعاد عن السيارة. وبصعوبة كبيرة تحرك الموكب من جديد باتجاه المرفأ بمواكبة قوات المارينز الأميركية. عند سَلْمَ الباخرة كان الوداع الرسمي اللبناني لياسر عرفات. الفعاليات السياسية والدينية البيروتية والوطنية إلى جانب سفراء الدول الصديقة، كلهم كانوا هناك وكانهم في مأتم. كذلك كان هناك جوني عبده مدير المخابرات اللبنانية ممثلاً لرئاسة الجمهورية، والذي سَلْمَ عرفات رسالتين وداعيتين، الأولى من الرئيس الحالي الياس سركريس يُحمّلها صداقته وعاطفته. أما الثانية فمن الرئيس العتيد بشير الجميل يطمئنه بأن الفلسطينيين المدنيين هم في ذمته وفي حضن الدولة اللبنانية. تبادل الطرفان خطب الوداع المؤثرة، ثم قام المودعون وعانقوا المغادرين فرداً فرداً في بكائية صامتة لينسلخ الشيعين اللبناني والفلسطيني عن بعض عروبتهما مردّدين "ثورة، ثورة حتى النصر".

112

اتصل صموئيل لويس السفير الأميركي المعتمد لدى إسرائيل، بمناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي ليُعلمه بأن كسبار واينبرغر، وزير الدفاع الأميركي قد وصل إلى إسرائيل، وأنه يحمل رسالة خاصة إليه من الرئيس الأميركي ريغان. فطلب منه بيغن أن يأتي إليه في مدينة نهاريا لعدم تمكنه من موافاتها في تل أبيب.

بعد توقّف عملية السلام في الشرق الأوسط، إثر اغتيال الرئيس السادات، اقترح مستشارو الرئيس ريغان عليه ضرورة إطلاق مبادرة سلام جديدة تتوجّ الانسحاب الفلسطيني من لبنان. لذلك أوكل الرئيس الأميركي إلى وزير خارجيته جورج شولتز وفريقه مهمة إعداد خطة

سلام جديدة للشرق الأوسط مبنية على عدة أسس أهمها: إيقاف بناء مستعمرات إسرائيلية جديدة، والتأسيس لمحادثات مباشرة بين إسرائيل وفلسطيني الضفة الغربية وغزة بهدف إعادة القدس الشرقية والضفة الغربية إلى كنف المملكة الأردنية وإنشاء دولة فلسطينية في غزة. ولكن هاتين النقطتين اللتين شكّلتا أساس رسالة ريغان إلى بيغن أثارتا امتعاضه، فثار ورفضهما قائلاً للوزير الأميركي: إن مشروعكم وُلد ميتاً. إننا لم نضحّ بشباننا في لبنان ليفرض علينا الرئيس ريغان اتفاق سلام لا يناسبنا.

إثر ذلك، اعتذر بيغن من الوزير والسفير الأميركيين لارتباطه بموعد سابق، وخرج غاضباً للاجتماع ببشير الجميل. كان بشير الجميل رئيس الجمهورية اللبنانية العتيد قد وصل بطريقة سرّية ومتكتمة بناءً على دعوة مستعجلة من بيغن، على متن طوافة إسرائيلية إلى مدينة نهارياً منذ أكثر من ساعة، وما زال ينتظر مع فريق عمله المكوّن من جوزف أبو خليل وألفرد ماضي وجورج فريحة وجوزف سعادة وجان ناضر.

دخل بيغن إلى الغرفة متّكناً على عصا بسبب الآلام التي كان يعاني منها إثر إصابته في وركه، يرافقه أريئيل شارون وإسحق شامير وفريق عمل كبير. عانق بيغن بشيراً مهنئاً فوزه بالرئاسة باللغة الإنكليزية، وحيّاً أعضاء الفريقين بعضهم بعضاً وجلسوا إلى طاولة اجتماعات وضعت عليها كووس شمبانيا احتفالاً بالانتصار. وقف بيغن رافعاً كأسه ومقترحاً شرب نخب الحياة الطويلة لبشير الجميل رئيس جمهورية لبنان. شرب الجميع كأس بشير ما عدا بيغن الذي أعاده إلى الطاولة قائلاً إنه يتناول أدوية قد تتحول إلى مؤذية إذا تناول الكحول معها.

- عزيزي الرئيس بشير الجميل، أعزائي، إني أهنئك وأهنئ نفسي وأهنئ الجميع على الإنجاز العظيم الذي حققناه، رغم التضحيات

البشرية والخسائر التي تحمّلناها في سبيل تحقيق هدفنا طرد المخربين من لبنان. إنني أكلّمك كإبني الآن، فطالما رأيت فيك نفسي عندما كنت شاباً، وطالما كنت متأكداً من وصولك إلى سدة الرئاسة، لتعمل على إحلال الديمقراطية في بلادك وتحقيق السلام مع جيرانك. وبما أننا سبق واتفقنا منذ بداية تعاوننا على أن تكون نتيجته اتفاق سلام بين بلدنا نتيجة طردنا لمنظمة التخريب الفلسطينية من بلدكم، وبما أننا قد نفذنا واعدنا لكم، فإني أدعوكم الآن لتنفيذ وعدكم لنا بأسرع وقت، وطرق الحديد الآن وهو ساخن، كما يقول المثل.

امتقع وجهه بشير متحوّلاً إلى اللون الأصفر وهو يعبث بخاتم الزواج السداسي الأضلاع في إصبعه والذي أصبح واسعاً بعد أن خسر عدة كيلوغرامات من وزنه مؤخراً.

- إن ما ذكرته صحيح، ولكن للظروف أحكام. هل تريدون سلاماً مع مسيحيي لبنان فقط، أم مع الجمهورية اللبنانية كلها؟ دعني أسألكم منصبياً وأشكّل وزارة جديدة لأعيد الثقة بين أبناء الوطن، ثم انصرف للتحضير لمعاهدة السلام معكم إلى جانب رئيس الوزراء المسلم.

امتعض بيغن من إجابة بشير وحاول إقناعه بالبدء بترتيبات معاهدة السلام حالياً، ولكن بشير رفض ذلك بشدّة طالباً مهلة سنة لتحقيق ذلك. فانتقل بيغن إلى موضوع شائك آخر.

- وماذا سيكون مصير الرائد سعد حداد تحت حكمكم؟

- بما أن جمهورية لبنان ستكون مثال الدولة الديمقراطية، لذلك لن أستطيع سوى أن أحكم بالعدل وعبر المؤسسات الدستورية التي لا شك ستقضي بمحاكمته كما ستحاكم أحمد الخطيب قائد جيش لبنان العربي. ولكنها ستكون محاكمة صورية للإعلام فقط. إذ بعد إثبات وطنيته سأعيّنه ملحقاً عسكرياً في أي بلد يختاره.

- إن رجلاً عظيماً مثل سعد حداد لا يستأهل محاكمة، بل يجب أن تعينه وزيراً للدفاع أو قائداً للجيش، وليس في هذا المنصب المهين الذي لا يليق بالعطاء الكبير الذي قدمه لبلاده، إننا لا نطلب منكم سوى أن تكونوا أوفياء، ذلك أن أكثر ما أكرهه في إنسان هو الغدر. فبالأمس مثلاً ظهرت على شاشات التلفزيون تتغزل بما قدمته القوات الأميركية والفرنسية والإيطالية لبلدكم، ولم تتقوه بكلمة شكر واحدة لدولة إسرائيل وشعبها وجيشها الذين ضحوا في سبيلكم الغالي والنفيس. إن شعبنا شديد الانزعاج لعدم حصوله على أي نتائج لصالحه مقابل التضحيات الجمة التي قدمها لطرده المخربين من لبنان ولوصولكم إلى سدة الرئاسة الأولى.

رفع بشير يديه الاثنتين في الهواء قائلاً: إذاً ما عليك الآن سوى أن تضع الأغلال في يدي لترضي الشعب الإسرائيلي.
غضب بيغن من حركة بشير هذه وصرخ في وجهه:

- إنني لا أطلب منك سوى تنفيذ وعودك التي التزمت بها، أريدك أن تأتي إلى القدس في زيارة رسمية كما فعل أنور السادات وتوقع معاهدة السلام الموعودة أمام أنظار العالم أجمع.

نهض بيغن عن كرسيه متوجّهاً نحو باب الخروج، فاستوقفه شارون محاولاً ترطيب الأجواء، وضمان عدم انقطاع التواصل بين الطرفين موجّهاً كلامه إلى بيغن وبشير:

- سنشكل لجنّتين لبنانية وإسرائيلية لمتابعة الموضوع ووضع رزنامة عمل تفضي إلى تحقيق معاهدة السلام.

هزّ بيغن رأسه غاضباً، كما هزّ بشير رأسه مستكراً.

عاد بشير من نهاريًا محبطاً من المهانة التي شعر بها أمام بيغن. فرغم محاولته جاهداً تقمص شخصية رئيس جمهورية كل لبنان، ولكن بيغن استطاع تقزيمه وتحقيره عبر إبرازه كناكر للجميل الذي قدمته له إسرائيل.

أدرك بشير بعد كابوس نهاريا صعوبة الاستمرار في علاقته غير الصحية مع إسرائيل. إذ لا يمكن له أن يوحد شعب لبنان بجناحيه المسلم والمسيحي ويمدّ يده في الوقت نفسه إلى إسرائيل. فاغتنم فرصة وصول كاسبار واينبرغر وزير الدفاع الأميركي من إسرائيل لتفقد القوات الأميركية المرابطة في بيروت، ليعرض عليه إمكانية استخدام واشنطن للأراضي والمياه اللبنانية لبناء قواعد عسكرية لها لدعم أنشطتها في الشرق الأوسط. أراد بشير عبر هذا العرض إصابة عصفورين بحجر واحد، إذ إنه بهذه الطريقة يأمن شرّ بيغن ويقي السوريين داخل حدودهم. ولكن ردّة فعل واينبرغر كانت غير مشجعة، واعدأ بنقل أفكار بشير إلى الإدارة الأميركية.

113

ما أن ودّع نبيل العلم حبيب الشرتوني وعاد إلى منزله، حتى طلب القيادة على الهاتف ليطمأنها إلى أن حبيب استلم الأمانة، وأن العدّ العكسي لتنفيذ العملية قد ابتدأ. بالطبع استمع فوكس إلى شريط تسجيل المخابرة، كما أن مخبره "الطيار" أبلغه بموضوع الحقيبة وكيف أخفاها نبيل العلم شخصياً تحت المقعد الخلفي، ثم نقلها حبيب إلى منزل الناصرة. بناءً على هذه المعلومات، مضافاً إليها نتيجة استقصاءات فوكس التي كشفت أن حبيب الشرتوني هو عضو في الحزب القومي الاجتماعي، قرّر فوكس معرفة محتويات الحقيبة قبل القيام بأي خطوة أخرى. وبناءً على معلومات "الطيار" بمغادرة حبيب لمنزله، تسلّل فوكس إليه بعد أن أوكل إلى مرافقه الشخصي طانيوس مهمة مراقبة باب البناء الخارجي وإفادته عبر الجهاز في حال قدوم أحد سكان المنزل. أما "الطيار" فاستمرّ في ملاحقة حبيب. بعد بحث

قصير، اكتشف فوكس الحقيبة وكشف سرّها الرهيب. ورغم خبرته الطويلة في عالم الجاسوسية، فإنه فوجئ بجهاز التفجير الياباني المتطور، ولكنه قرّر عدم القيام بأي تصرف إلا بعد مراجعة ماريون.

قاد فوكس سيارته نحو فيلا الموساد في منطقة طبرجا لمقابلة ماريون. كان ماريون هو ضابط الاتصال الإسرائيلي المسؤول عن التنسيق بين جهازي الموساد و"أمان" اللذين كانا يتنافسان على إمساك الخيوط التي تحرك الساحة اللبنانية. وللاستئثار بهذه القدرات، كان لكل جهاز منهما رجاله في القوات اللبنانية. ففي حين كان HK (إيلي حبيقة) رئيس جهاز الأمن والمعلومات القواتي هو رجل الموساد، فإن عباس (إيلي وازن) رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية القواتية كان رجل جهاز "أمان". أما فوكس، ورغم أنه كان تحت إمرة HK، ولكن ولاءه كان لعباس، لذلك كان يمرّر جميع المعلومات المتعلقة بالأمن الإسرائيلي إلى ماريون ضابط الاتصال بدل وضعها على مكتب رئيسه المباشر HK.

استغرب ماريون أخبار فوكس. وبدأت الأسئلة تدور في رأسه. تُرى هل الفلسطينيون أم السوريون أم الليبيون أم الإيرانيون هم وراء هذه العملية؟ هل من المعقول أن يكون أحد الأجهزة الإسرائيلية الموساد أو "أمان" أو "الشين بيت" قد تسلّل عبر المخربين لتنفيذ هذه العملية؟ لا بد أن يتقصّى الموضوع مع مراجعه العليا ليعرف طريقة التصرف في هذه الحالة كي لا يُقدم على تصرف ما يتعارض مع مصالح إسرائيل العليا.

- اسمع يا فوكس، أريدك أن تحفظ هذا السر بيني وبينك، حتى HK وعباس يجب أن لا يعلما بأي شيء عنه.

114

مع رحيل آخر مقاتل فلسطيني وانسحاب آخر جندي سوري عن بيروت وعودة سكانها إليها، ابتدأت مهمة الجيش اللبناني لحفظ الأمن في بيروت الغربية. فتمركزت قواته في المفاصل الحساسة لضمان عدم حصول أي احتكاكات بين شطري العاصمة. أما قوى الأمن الداخلي فنشرت حواجزها وسيّرت دورياتها في أحياء العاصمة الداخلية للمحافظة على أمن المواطنين، للتأكد من عدم حصول تعديّات عليهم، بسبب الانتشار الكبير للأسلحة التي ما زالت بأيدي الميليشيات والتي كانت حتى الأمس القريب هي التي تحكم الشوارع.

من جهة أخرى، كان هناك قرار سياسي بضرورة فتح المعابر المغلقة بين البيروتين. وعلى هذا الأساس بدأت وحدات الهندسة في الجيش اللبناني بالكشف على الدشم والسواتر والمتاريس والعوائق في منطقة السويدكو/بشارة الخوري لنزع الألغام منها. ثم توافدت فرق الدفاع المدني الرسمية والشعبية للعمل على فتح الطرقات بمساعدة قوى الأمن الداخلي ومساعدة جرافات القوات الفرنسية.

كان راشد وهبه في عداد فريق "جمعية المواطن الصالح" الذي تطوّع للمساعدة في فتح المعابر بين شطري العاصمة، ورغم صعوبة العمل وطبيعته المرهقة فالكل كان سعيداً لتمكّنهم من القيام بعمل مفيد لمدينتهم ووطنهم.

مع إزالة الجرافة لآخر سائر يسدّ الطريق، دوّت أصوات صفارات سيارات الشرطة وأبواق آليات المواكبة الأمنية معلنة وصول شفيق الوزان، رئيس الوزراء اللبناني. نزل الرئيس وسط حراسة مشدّدة وألقى كلمة شكر فيها الجميع، ثم تقدّم سيراً على قدميه محاولاً قطع الطريق نحو المنطقة الشرقية المقابلة. حاول مرافقوه وحرسه نهبه عن

هذا التصرف، ولكنه رفض قائلاً: أنا رئيس وزراء كل لبنان. عبّر المنطقة المحرّمة منذ سنين وتبعه حرسه وشباب الدفاع المدني وهم يندشون النشيد الوطني اللبناني "كلنا للوطن، للعلم".

رغم جو الكآبة المرفرف فوق منطقة السويكو بسبب الدمار الكبير الذي أصاب معظم أبنيتها، فإن نسمة من الحبور والأمل أنعشت أجواءها. فما أن وصل المقتحمون محيط حي الناصرة في الجهة المقابلة، حتى تجمّع حولهم المواطنون يصفقون وينثرون الأرز عليهم ترحيباً، فيما كان الجميع ينشد من جديد "كلنا للوطن للعلم" بقوة وصوت أكثر ارتفاعاً، وكأنهم قد نسوا للحظة ويلات الحرب وعذاب الحصار.

بعد أن عادت المياه إلى مجاريها، وتأمّن التيار الكهربائي للمواطنين معظم الوقت، وملأت محطات الوقود خزاناتها، ووصلت شحنات التموين والخضار والفاكهة إلى العاصمة وقد عادت أسعارها إلى سابق عهدها، طلبت الشركات من موظفيها العودة إلى أعمالهم، فيما أعلنت الجامعات والمدارس عن شروعها بالتحضيرات استعداداً للبدء بالعام الدراسي. إثر ذلك، ساد المواطنون جو من التفاؤل جعلهم ينصرفون إلى إعادة إعمار ما تهدّم من ممتلكاتهم مما رفع أسعار مواد البناء إلى مستويات خيالية.

هذا الاستقرار الداخلي خرّفته إسرائيل كالعادة عبر تصريح لأريئيل شارون إلى برنامج "شريط الأسبوع" من إذاعة إسرائيل، مشدداً فيه على أن إسرائيل لن تقبل بالمشروع الأميركي الجديد الرامي إلى إيجاد حل كامل للقضية الفلسطينية عبر إنشاء كيان فلسطيني على الأراضي الفلسطينية المحتلة، ذلك أن الأردن برأيه هو الدولة الفلسطينية. من جهة أخرى، دعا شارون بشير الجميل مجدداً إلى التوقيع على معاهدة سلام مع إسرائيل وإلا اضطرت لضمان أمنها عبر إنشاء حزام أمني بالقوة بعرض 40 إلى 50

كيلومتر في جنوب لبنان، مذكراً بأن المقاتلين الفلسطينيين والجنود السوريين قد خرجوا من بيروت حقاً، ولكنهم ما زالوا في شمال لبنان وبقاعه، إضافة إلى وجود ثلاثة آلاف مقاتل فلسطيني يلبسون الثياب المدنية ويحملون بطاقات هوية لبنانية مزورة انتشروا في بيروت وضواحيها بانتظار الأوامر. ولكنه عاد وذكر بأن القوات الإسرائيلية ما زالت منتشرة في جنوب لبنان ومتمركزة على الحدود الجنوبية لعاصمته وضاحيته استعداداً لأي طارئ أو مفاجأة قد تحصل.

115

انتقلت ورشة فتح المعابر إلى جادة عبد الله اليافي التي تربط محور العدلية مروراً بمحور المتحف وصولاً إلى حاجز العجة ومحور البربير. بناءً على اتفاق سابق، وصل الرئيس الوزان إلى محور البربير حيث استقبله قائد "قوات المرابطون". بعد تبادل كلمات الترحيب، أمر قائد موقع "المرابطون" قواته بالانسحاب، فتم إنزال علم "المرابطون" وتسليمه إلى القائد. إثر ذلك تقدم قائد قوى الأمن الداخلي وصافحه معلناً استلام قواته للأمن على هذا المحور. وبناءً على إشارة مدير الدفاع المدني، تحرك المتطوعون بآلياتهم وأدواتهم وشرعوا بجرف الدشم والحواجز الرملية وبقايا الأبنية المنهارة على جانبي الطريق. ما أن انتهت عملية رفع العوائق من الطريق وتنظيفه، حتى كان التعب قد نال من المتطوعين وأنهكهم. انحنى راشد يغسل وجهه بالماء من إبريق بيد علي بعد أن تناوبا الأدوار، وما أن رفع رأسه ماسحاً الماء عن جبهته ووجهه، حتى لمح تجمعاً من الناس إلى جانب حائط ثانوية خالد بن الوليد المقاصدية (الخرج). وبدافع من الحشوية توجه مع علي إلى هناك لمعرفة ماذا يجري.

دفع الفضل شلق ونادر سراج عربة بيع الخضار المركونة جانباً بصعوبة، وأسنداها إلى جانب حائط المدرسة، ووضعها عليها ملفاتها. ثم حملاً مكتباً معدنياً شبه محطم، كان أحد متطوعي الدفاع المدني يهيم بوضعه في شاحنة الأنقاض، ووضعاه على رصيف المدرسة. أخرج نادر سراج عدة ملصقات من ظرف أسمر اللون يحمله، وأصقها على جوانب المكتب المعدني محاولاً إخفاء آثار الحرب التي شوهته، ومعلنناً ابتداء حملة تنظيف مدينة بيروت. كان النص على الملصقات يقول "مشروع تنظيف مدينة بيروت - مقدمة رفيق الحريري أوجيه لبنان 1982".

تزامن وصول راشد وهبه وعلي حرب إلى التجمع الشعبي على رصيف مدرسة خالد بن الوليد، مع وصول محافظ مدينة بيروت متري النمار وتمام سلام نجل الزعيم البيروتي صائب سلام ورئيس بلدية بيروت شفيق السردوك. رفع نادر سراج ميكروفوناً مرحباً بالضيوف الذين حضروا ليشهدوا انطلاق "مشروع تنظيف مدينة بيروت". من جهته حيًا المحافظ المتطوعين وأشاد بالمتبرع الكريم مضيفاً: إن بيروت لن تترك ولن تتخلى عن الدور الذي اضطلعت به في شتى الحقول. أما الفضل شلق المسؤول الرئيسي عن المشروع وبعد شكر رفيق الحريري والمتطوعين فقال: سننظف هذه المدينة العظيمة وننزع عنها آثار الدمار ونعيد إلى ثغرها الابتسامة. ثم أعطى إشارة الانطلاق للأليات للبدء بمهمتها، فتحررت ستون شاحنة وقلاباً وثلاثون جرافة تحمل على أبوابها ملصق المشروع باتجاه منطقة الفاكهاني.

تقدّم راشد وعلي من نادر سراج يسألان عن إمكانية التطوع معهم. رحب بهما سراج عندما عرف بأن راشد طالب جامعي وكان يعمل مع "جمعية المواطن الصالح"، ودعاهما إلى الحضور في الخامسة والنصف من صباح الغد إلى ملعب بيروت البلدي، لمقابلة المهندس زاهي أبو حويلي، بعد أن زودهما بورقة تعريف.

من جهتها واصلت إسرائيل محاولات إبقاء أجواء عسكرية ضاغطة ومهيمنة على العاصمة، فأذاعت أن التعليمات أعطيت لجنودها في منطقتي بئر حسن والجناح بتعزيز مواقعهم، والاستعداد لاجتياح خطوط الهدنة، في حال لم تتسحب قوات الحركة الوطنية من مواقعها المواجهة. ولم تكف القيادة الإسرائيلية بهذا التوتير العسكري على حدود العاصمة، بل زرعت لغماً سياسياً خطيراً تحت قدمي بشير الجميل للضغط عليه للقبول بتوقيع اتفاقية سلام معها، إذ سرّبت إلى "وكالة رويترز" للأخبار خبر اجتماع الرئيس بشير الجميل بالقيادة الإسرائيلية في نهاريا رغم تعهدها المسبق بأن الاجتماع سيكون سرّياً ولن يرشح منه شيء للصحافة، وذلك بغية عزل بشير عن محيطه المسلم وتهديم جميع الجسور التي كان يحاول مدها نحوهم.

اسوتت الدنيا بوجه بشير ولعن الساعة التي قبل بها الذهاب إلى نهاريا، فدعا إيلي حبيقة إلى اجتماع عاجل. عند وصول HK بادره بشير قائلاً:

- كنت أعتقد أن الإسرائيليين يحترمون كلمتهم، ولكني تأكدت الآن أنه ليس في السياسة مبادئ بل مصالح تبرر التصرفات. وهذا يثبت نظرتي الأساسية بأن الإسرائيليين لم يجتاحوا لبنان ويحاصروا بيروت إكراماً لسواد عيون بشير الجميل والمسيحيين، بل لمصلحتهم الشخصية، ولطرد الفلسطينيين والسوريين من حدودهم، وللحصول على اتفاق سلام يمكنهم من استخدام مياهانا وبلغني دور لبنان الاقتصادي في المنطقة.

- وهل تعتقد أن بوسع الأميركيين مساعدتنا في درء الضغط الإسرائيلي عنا؟

- إن لإدارة الأميركية حساباتها الداخلية والدولية أيضاً، ولكن باستطاعتنا نحن أن نناور ونلعب سياسياً كما يفعل الإسرائيليون.

- لا أفهم عليك ماذا تقصد!
- الكلام الذي سأقوله لك الآن سري جداً ولا أحد يعرفه غيرك أنت. أريدك أن تحضّر للقاء سري وسريع بيني وبين مسؤول سوري رفيع. يجب أن يبقى هذا الأمر سرياً جداً، إذ أن في المسألة قطع رؤوس.
- لا تخف يا باش، اتكل عليّ في هذا الأمر.

116

- مجدداً، اتصل نبيل العلم بحبيب الشرطوني يحثّه على تنفيذ العملية ومحاولاً استفهام أسباب تأخره بالتنفيذ. فصارحه حبيب بأنه خائف من اكتشاف الحقيبة بعد تنفيذ العملية.
- الحل بسيط، عليك تفخيخ الحقيبة عبر ربط قنبلة مدقة بإصبع متفجرات بلاستيك أخضر اللون، وإضافة بعض أصابع البلاستيك الخضراء الأخرى داخل الحقيبة، ثم شبك حلقة أمان قنبلة المدقة بالهوائي المثبت في غطاء الحقيبة من الداخل، والذي سيتحرك ليبرز لحظة فتح غطاء الحقيبة، فتسحب حلقة الأمان وتتفجر القنبلة.
- ولكن ما الفائدة من هذا التدبير؟
- بعد الانتهاء من تنفيذ العملية، ترمي الحقيبة في مستوعب نفايات، وعندما سيشاهدها مطلق شخص في المستوعب، سيعتقد مباشرة أنه عثر على ثروة، فيفتحها، فتفجر وتتحول هي ومحتوياتها إلى قطع صغيرة لن يتمكن أحد من التعرف إليها، ويضيع أي دليل عنها.
- وسيقتل الذي يفتحها؟
- ليس بالضرورة. إذا كان له عمر سيعيش. المهم أن تسرع بالتنفيذ يا بطل قبل حلول موعد جلسة تنصيب الرئيس الجديد.

فور سماعه تفاصيل المخابرة، اتصل فوكس بمخبره "الطيار" سائلاً عن مكان وجود حبيب الشرتوني، فأجابه بأنه في منزل خالته يولاند في منطقة الناصرة، فأمره بأن يُعلمه بتحركاته لحظة بلحظة للضرورة. إثر ذلك، انطلق فوكس نحو مركز الكتائب في ساحة ساسين، بغية تفتيش منزل نعمان صابر جد حبيب الشرتوني في الطابق الثالث، ولكن وجود حارس المركز صبحي بقرب الباب شكّل عائقاً، فأرسل إليه مرافقه طانيوس الذي يعرفه معرفة جيدة. تعانقا وتحادثا لعدة دقائق ثم دخل صبحي ليحلب إبريق ماء لطانيوس ليشرب، فاستغل فوكس الموقف وصعد إلى الطابق الثالث وعالج الباب وفتحه، بينما بقي طانيوس عند الباب في الأسفل إلى جانب صبحي مستعداً على جهازه لتتبيه فوكس في حال وصول أحد سكان المنزل. بحث فوكس في جميع أرجاء البيت عن أي دليل لعملية التفجير المدبرة ولكن عبثاً، إلى أن صعد إلى متخت المنزل، فاكتشف صندوق المتفجرات والصواعق.

حمل فوكس الشريط الذي يضم تسجيل المخابرة الأخيرة بين حبيب الشرتوني ونبيل العلم، وما شاهده بعينه في منزل حبيب الشرتوني، وانطلق إلى مركز الارتباط الإسرائيلي لمقابلة ماريون الذي استمع إلى الشريط، وإلى رواية فوكس، فما كان منه إلا أن اعتذر ودخل إلى غرفة جانبية ليتحدث عبر جهاز اللاسلكي مع رؤسائه. ولدهشة فوكس، وبناءً على تعليمات القيادة، طلب منه ماريون من جديد عدم القيام بأي تحرك لمواجهة هذا الوضع، والتكتم على سر هذه المخابرة، وعدم البوح بتفاصيلها أو بأي معلومة حول الموضوع برمته لمطلق شخص، كذلك طلب منه تنبيه معاونيه للالتزام بهذه التعليمات أيضاً.

استغرب فوكس هذا التصرف وحاول الاستفهام عن سبب ردة الفعل الغريبة هذه، ولكن ماريون أمره بالالتزام بالتعليمات كما يفعل أي عسكري منضبط.

117

بعد أن استلم الجيش اللبناني المحاور الرئيسية في العاصمة، انتقل إلى ضاحيتها الجنوبية المتاخمة للمواقع الإسرائيلية، وسيّر الدوريات المؤلّلة وثبت حواجز التفثيش لضمان استتباب الأمن، ثم انطلق يعمل على نزع الألغام.

بعد إعلان هذه النقاط مناطق خالية من الألغام، اجتاحتها جحافل من الجرافات والشاحنات والقلّبات والحفّارات والكسّارات والرافعات التي امتدّت على طول طريق صيدا القديمة - الطيّونة - مار مخايل - الشياح، وعلى الطريق الذي يربط مستديرة الغبيري وساحة جمال عبد الناصر - برج البراجنة. ورشة حقيقية كان أبطالها شبان متطوعون وعمال وسائقون متفرغون. وقف جمال الشاعر على تقاطع كنيسة مار مخايل يراقب تنفيذ عمليات الجرف والتحميل ويحضّر إيصالات التسليم للسائقين، الذين كانوا يتقاطرون في شاحناتهم الفارغة، بينما كانت الجرافات تقوم برفع رمال وأتربة السواتر، التي تحولت بعد تسع سنوات إلى شبه غابات صغيرة، نبتت فيها شجيرات وأعشاب بريّة كثيفة، لتتطلق بها الشاحنات نحو مكبّ النورماندي لترميها في البحر.

أما علي حرب، فكان يعمل على تنسيق عمل وحركة الآليات على الأرض في الورشة وعلاقتها مع الإدارة الميدانية في مركز بلدية برج البراجنة، والمركز الرئيسي في الملعب البلدي، والإدارة العامة في مكتب رئيس بلدية بيروت، ومسؤول مكبّ النورماندي وذلك عبر جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص بشركة أوجيه. وبين مغادرة شاحنة ووصول أخرى اجتمع جمال وعلي لتناول طعام الغداء سندويتش جبنة لكل منهما.

- الحمد لله، لقد أصبح عدد الشاحنات التي حملناها حتى الآن 24،

بينما وصل عددها في الوقت نفسه من يوم أمس إلى 17 شاحنة.

- ما أن ننتهي من رفع الدشم والسواتر من هنا، سنبدأ بهدم المباني المتصدّعة والمحروقة، ثم ننتقل إلى محور آخر.
- لا بدّ أن أماننا عمل لعدة أشهر أخرى.
- ولكن يظهر أن عملنا يلقي تجاوباً حسناً من الرأي العام.
- ويبدو لي أن الحريري صاحب المشروع متفائل جداً بمستقبل البلد ليصرف ملايين الليرات على هذا المشروع.
- لا شك أن السعودية أعطته الضوء الأخضر، مما يعني أن السلام قادم إلى البلد.
- لقد سمعت اليوم على الجهاز أن فرقة كبيرة انطلقت لتنظيف محيط ساحة النجمة ومبنى المجلس النيابي استعداداً لعقد جلسة تنصيب الرئيس الجديد هناك بعد أسبوعين.
- هذا الخبر ممتاز، فلا شيء يجمع اللبنانيين من مختلف الطوائف سوى "البلد" في وسط العاصمة بيروت، وستكون ساحة النجمة ساحة اللقاء الأولى بينهم.
- لا شك أن هذه التطورات الإيجابية هي التي دعت القوات الدولية الأميركية والفرنسية والإيطالية إلى الانسحاب.
- أرجو أن لا يكونوا قد تسرّعوا بهذا القرار.

118

بعد الصدمة الإسرائيلية العنيفة التي أصابت بشير الجميل في الصميم، وانتقلت تردّداتها من نهاريا إلى بيروت مزعزة أسس علاقة مصلحية طويلة بين الطرفين، انصرف بشير إلى مدّ جسور جديدة متينة بينه وبين اللبنانيين، بدل جسوره الإسرائيلية المرحلية التي سقطت بعد زلزال نهاريا فبدأ بتلميع صورته عبر شرح برنامج المستقبل من

خلال خطبه، مُركزاً أن الحكم الجديد سيعامل جميع اللبنانيين بطريقة متساوية وبدون تمييز بين طوائفهم أو مناطقهم، وأنه سينهي الإقطاعية السياسية في الإدارات الحكومية.

وقبل يومين، ألقى الجميل خطاباً في موظفي محطة التلفزيون ضرب فيه على الوتر الحساس لدى معظم اللبنانيين.

... لن أطلب من أحد في الإعلام أن يتصرف على أساس أحمد سعيد أو على أساس مزايدات أو تغطية الحقيقة أو تغطيسها... إن الحقيقة تخيفنا في أحيان كثيرة، إن قول الحقيقة في لبنان شيء لم نعتد عليه، فالحقيقة كانت في كثير من الأحيان مخيفة، لذلك كنا نموّها دائماً أو نحاول تجميلها. ولكن كل هذه "الأوساخ" كانت تتجمع في الداخل، وأصبح كل شيء "بويًا"، كل شيء كان غشاً وكذباً وخداعاً، وعند أقل اهتزاز للهيكل بدأ بالانهيار... عندما تكون لديكم مأخذ علينا قولوها علناً ولو كانت ضدنا أو ضد غيرنا... الحاكم بحاجة لمن يقول له الحقيقة، لذلك، فمن الآن وصاعداً سيتحمل كل إنسان مسؤولياته، ولن يتحمل أحد مسؤوليات غيره، ولن يتخل أحد عن مسؤولياته، إذ إننا منذ اليوم وصاعداً سنطبق مبدأ الثواب والعقاب، فمن يعمل بجد سيكافأ وسيرفع ويُحترم، ومن سيخطئ عن حسن نية سنصلحه بطريقة لبقة، ومن سيخطئ عن سوء نية سنقول له أن لا مكان له بيننا... لا يمكننا أن نقبل بعد الآن أن يأتي كل وزير بجماعته وأبناء منطقته ليضعهم في الإدارة، فالدولة لم تعد تستطيع تحمل كل الفاشلين في مهنتهم وحياتهم... سيكون هناك اتصال وثيق وتنسيق دائم بين مختلف أجهزة الدولة ومسؤوليها، فلن تترفت طريق بعد اليوم ويُعاد حفرها في اليوم التالي من جديد لأن شركة الكهرباء لم تكن على علم بذلك، ثم تعيد تزفيتها من جديد، ثم لتعود وزارة الهاتف لحفرها مجدداً... على المسؤولين الذين اعتادوا حماية الموظفين الفاشلين أو المتلبسين أن يعرفوا أنه لم يعد بإمكانهم فعل ذلك بعد الآن...

هذه الصراحة والعفوية التي لم يعتد عليها اللبنانيون من رؤساء جمهوريتهم السابقين لامست وترأ حميماً في قلوبهم، فتحوّلت عاطفة الكثيرين منهم إيجاباً نحو بشير الجميل. نبض الشارع هذا التقطه ركن اللقاء الإسلامي والسياسي المخضرم صائب سلام، وتفاعل معه ميمماً وجهه نحو قصر بعدا للاجتماع بالرئيس العتيد.

طوال ساعتين قبل موعد الغداء، وخلال تناول طعام الغداء، وبعده بساعة، لم يتوقف الحديث بين الرجلين. ناقشنا معظم النقاط الساخنة، وخاضا في أكثر المواضيع الخلافية، ولامسا كل الألغام المتفجرة.

تعهد بشير الجميل بتطبيق الدستور اللبناني بحذافيره والمحافظة على الديمقراطية والحريات، واعتماد نزاهة وكفاءة الإنسان معياراً وليس طائفته أو انتمائه السياسي. ولكنه اتخذ موقفاً معارضاً لتوزيع وليد جنبلاط في الحكومة، والذي سيكون في المعارضة التي سيحترمها في إطار القانون اللبناني.

- أنا لست رجل إسرائيل في لبنان، ولست رجل أي دولة أخرى. لست سوى رجل لبنان، إنني أريده حراً، سيداً، مستقلاً، ضمن حدود 10452 كيلومتراً مربعاً، لذلك أنا أتعهد بانسحاب السوريين والفلسطينيين وسأطلب من رئيس الحكومة العتيد التعهد بسحب الإسرائيليين. فلنطو صفحة الماضي، فإذا بدأنا اليوم بحاسبة بعضنا البعض على الماضي، لن تكون النتيجة سوى تمزيق لبنان من جديد. فلنتطلع إلى المستقبل ونحاول أن نحقق آمال اللبنانيين، ولنتعاون و ننضافر لإنقاذ لبنان من محنته والسير به قدماً إلى الأمام. إن لبنان السيد المؤمن بالحرية والسيادة لم يقم سوى على التوافق الإسلامي - المسيحي، ولن يستمر إلا عبر التوافق الإسلامي - المسيحي وكسر طوق الطائفية الذي يطوق أعناق أبنائه.

بعد المقابلة اجتمع بشير بأركان حربه ووضعهم بأجواء الاجتماع وأخبرهم أن كل شيء سار بشكل ممتاز، وأن صائب بك لا شك سيحضر جلسة القسم في 23 أيلول/سبتمبر الحالي.

إثر زلزال نهاريا، حضر أريئيل شارون ثلاث مرات إلى شرق بيروت محاولاً الاجتماع ببشير الجميل، ولكنه كان يرفض ذلك باستمرار، إلى أن وافق أخيراً على مقابلته في منزل آل الجميل في بكفيا. دام الاجتماع ست ساعات، وكان ملخصه مطالعة بشير أنه غير مستعد لإقبال 21 باباً عربياً ليفتح نافذة واحدة مع إسرائيل، وأن معاهدة السلام لا يمكن أن يُبحث فيها سوى بعد أن يستلم مسؤولياته كاملة كرئيس للجمهورية ويوافق رئيس الوزراء الذي سيرأس أول حكومة في عهده على هذه الخطوة. ولكن شارون ذكره بأن الجيش الإسرائيلي هو الذي يحاصر العاصمة اللبنانية، وليس الجيش اللبناني الذي يحاصر القدس، لذلك عليه الانصياع إلى الواقع وتنفيذ رغبات إسرائيل في معاهدة السلام، وضرورة دخول الجيش اللبناني والقوات اللبنانية إلى المخيمات الفلسطينية لاعتقال جميع المخربين الذين لم يرحلوا مع رفاقهم، ليتم بعدها إبعاد القوات الفلسطينية والسورية من شمال لبنان وبقاعه حتى الحدود الدولية بدعم من القوات الإسرائيلية.

في هذه الأثناء، أفرغ حبيب الشرتوني محتويات صندوق المتفجرات في حقيبتين جديتين، وانتظر حلول الساعة الواحدة والنصف من بعد منتصف ليل الاثنين في 13 أيلول/سبتمبر، فربطهما بحبل متين وحملهما إلى درج البناء حيث يمكن الوصول بسهولة من نافذته إلى شرفة مطبخ آل كريم في الطابق الأول من البناء. أنزل الحقيبتين بكل هدوء وتركيز، إلى أن حطتا على أرض الشرفة، فترك الحبل يسقط إلى جانبهما. وبدوره نزل إلى شرفة المطبخ بنفس الطريقة وفتح باب الشرفة ووضعا الحقيبتين على الأرض وسط صالون البيت، الذي يقع مباشرة فوق قاعة المحاضرات التي يجلس فيها الشيخ بشير عادة. كان حبيب قد أوصل أشرطة الجهاز اللاقط بالصاعق الموجود بين المتفجرات قبل إنزال الحقيبتين، كما أضاف إليه جميع الصواعق الباقية زيادة في الحيلة لضمان أكبر تأثير ممكن للانفجار. وهكذا لم يبق له

لإتمام عملية التفجير سوى فتح زر الجهاز اللاقط فقط ليصبح جاهزاً لاستقبال إشارة التفجير. بعد ذلك فتح الباب الخارجي للمنزل وتسلل عائداً إلى بيته.

في الصباح اتصل به نبيل العَلَم هاتفياً وسأله كالعادة عن آخر التطورات في القصة، وحثّه على التنفيذ السريع. فأجابه حبيب بأن التنفيذ سيتمّ في الغد، فنصحه العَلَم بالهرب بعد تنفيذ العملية إلى منطقة المتن لأنها أكثر أماناً له في حال حامت الشبهات حوله.

اتصل فوكس بالكونترول من جديد محذراً من دنو ساعة الحسم، ولكن ماريون عنّفه قائلاً إن التعليمات لا زالت كما هي، وفي حال حصول أي تغييرات فسيطلعه عليها، شخصياً، المهم أن لا تتسرّب أي معلومات حول هذا الموضوع إلى أي شخص، وأغلق الخط في وجهه.

119

بينما كانت مجموعة من السيارات تجوب شوارع البسطة ورأس النبع الإسلامية، وقد علّقت عليها صور الرئيس المنتخب بشير الجميل مطلقاً العنان لأبواقها استقرازاً، حصل احتكاك بين ركابها وبين مجموعة من سكان المنطقة، تطوّر إلى إطلاق نار بين المواطنين وعناصر الجيش اللبناني المولجة حفظ الأمن، مما أدى إلى مقتل جندي وجرح 13 آخرين إضافة إلى عشرات المدنيين، بينما تابع وفد السيارات طريقه باتجاه بلدة بكفيا، مسقط رأس بشير الجميل لتنهئته بالرئاسة. استقبلهم بشير بحفاوة وإلى جانبه ألفرد ماضي وعبد الله بو حبيب. بعد أن عرفه فاروق شهاب الدين - أحد فعاليات منطقة البسطة - بأعضاء الوفد المهني، وبعد الخطب المتبادلة والضيافة، انصرف الوفد مع وعد من الشيخ بشير بزيارة منطقة البسطة قريباً. بعدها، اختلى بشير بممثّليه

العسكري والمدني في الولايات المتحدة وسألها عن المناصب التي يفضلان تبوأها في الدولة، وأعطاهما فرصة حتى يوم الخميس لإجابته. قبل خروجهما قال بو حبيب لبشير:

- أرجوك أن تنتبه جيداً لأمنك الشخصي يا فخامة الرئيس.

- لا تخف، فكل شيء تحت السيطرة.

- لقد نشرت صحيفة "واشنطن بوست" نبوءة لمنجم شهير اسمه "سفتلين غوديللو" يقول فيها: إن شهر أيلول/سبتمبر يحمل خطراً على حياة رئيس لبنان المنتخب، بشير الجميل.

ضحك بشير طويلاً وقال: هل تصدّق هذه الخزعبلات يا عبد الله، يا جبل ما يهزّك ريح.

بعد سقوط أكثر من 18000 قتيل و30000 جريح منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان وحتى رحيل المقاتلين الفلسطينيين عنه وانتخاب بشير الجميل رئيساً، عادت الخدمات العامة من ماء وكهرباء ووقود إلى حالها نسبياً. هذا الاستقرار شجّع سكان بيروت النازحين عن بيوتهم إلى الجبل والجنوب وغيرها للعودة إلى العاصمة لمتابعة دورة الحياة فيها. وهكذا دبت الحركة من جديد في بناية وهبه، حيث عاد "أبو ميشال" و"أم ميشال بشارة"، وعائلة عباس الزين من الجنوب و"أبو راشد وهبه" وعائلته. كما فتحت المحلات أبوابها، وعادت البنوك تستقبل زبائنها، وعاد ازدحام السيارات إلى شوارع العاصمة، خاصة تلك التي لم تصل إليها جرافات "أوجيه لبنان" بعد. كما أن شركة طيران الشرق الأوسط دعت موظفيها للعودة إلى أعمالهم استعداداً لإعادة افتتاح مطار بيروت الدولي، مما أشاع جواً من التفاؤل بين المواطنين.

- الحقيقة أن الإنسان لا يعرف قيمة الأشياء وأهميتها في حياته

سوى حينما يفقدها. توجّهت مدام ناديا بالحديث إلى "رويتز".

- بالفعل، فبالأمس عندما تمّ تزويدنا بالماء، وبالرغم من أنها

كانت حمراء قانية كلون دماء ضحايا هذه الحرب، سررنا بها إلى

أقصى درجات السرور، حتى أننا ملأنا الطناجر وأوعية الغسيل وأحواض الاستحمام بها، خوفاً من فقدانها ثانية.

- ولسخرية القدر، فإن الفلسطينيين الذين غادروا بيروت لم تسنح لهم الفرصة ليشرّبوا من مياهها ثانية قبل رحيلهم.

- ولسخرية القدر أيضاً، فإن إسرائيل هي التي رمتهم في البحر، وهي التي كانت تدّعي دائماً بأن العرب يريدون رميها في البحر.

- ولسخرية القدر أيضاً وأيضاً، فإن الركام والردم الذي يجرفه "مشروع تنظيف مدينة بيروت" والناج عن حرب إسرائيل ضد بيروت، يتمّ رميه في البحر أيضاً وأيضاً، وهكذا تختفي فيه الجثة وآثار الجريمة.

- على سيرة حملة النظافة والمشروع يظهر أنهما قد صادرا الشباب، راشد وجمال وعلي منا، ولم نعد نراهم إلا قليلاً.

- أعتقد أن راشد يرهق نفسه بالعمل وينغمس فيه هذه الأيام خصيصاً كي يبقى مشغولاً عن التفكير بما مرّ به.

- الحقيقة لا يمكننا أن نلومه على تصرّفه هذا.

120

كانت صولانج بشير الجميل مشغولة بطفلها نديم الذي لم يتجاوز الأشهر الخمسة من عمره بعد، عندما خَطَّفت ابنتها اليمنى مفاتيح سيارة والدها بشير الجميل، رئيس جمهورية لبنان العتيد وهربت بها محاولةً منعه من الخروج من البيت، علّه يقضي نهار عيد الصليب مع عائلته. ولكن كانت لدى بشير مخططات عديدة أخرى لهذا النهار، ولم يكن الجلوس في البيت مع أفراد عائلته أحدها على الإطلاق. بعد جهد كبير استطاع بشير أخذ مفاتيحه من اليمنى وسط احتجاجها، بينما كان يقبّلها قبلة الوداع.

انطلق بشير بسيارته مع بعض المرافقين لزيارة أخته الراهبة أرزة في دير الصليب في جبل لبنان. كان مجرد الدخول إلى الدير يثير فيه ذكريات جميلة ومرة، ذكريات الحبيبة مايا التي افتتت أباها في حادث تفجير، فراحت ضحية جنون الحرب اللبنانية. كانت تطلب منه دائماً أن يأخذها إلى الدير لرؤية عمّتها والتمتع بحوض الأسماك الملونة في مدخله. وها هو يعبر حوض الأسماك فينظر إليه نظرة سريعة ثم يغلق عينيه بشدة ويتابع سيره.

ألقي بشير كلمة في الراهبات وبعض الضيوف وأبناء المنطقة مؤكداً أنه لولا الإرادة القوية ما كان بالإمكان تحقيق الإنجازات التي تمت، لذلك يجب العمل على تحقيق جميع الأهداف الأخرى بطي صفحة الحرب وتوحيد كلمة اللبنانيين ومحاربة الفساد. بعد ذلك عانق بشير أخته بحرارة وانطلق نحو مواعده التالي.

أنزل حبيب الشرتوني حقيبة التفجير عن متخت منزل الناصرة، وجلس يتأملها مفكراً في حجم خطوته القادمة ونتائجها وردات فعلها، ولكن وعده لنبييل العلم كان أقوى من جميع الهواجس الأخرى، كان عليه أن يثبت له أنه بطل بالفعل. نزل إلى "صالون مسعود للرجال" في منطقة الناصرة، فحلق ذقنه ثم اتصل بمنزل أهله في ساحة ساسين. ردت شقيقته نوال، فحاول حضّها على زيارة ابنة عمها سلوى في مستشفى رزق، في محاولة لإبعادها عن موقع التفجير، ولكنها رفضت ذلك لأنها كانت تعبئة وتودّ الاستراحة. انطلق نحو ساحة ساسين ودخل "مكتبة فرح" لشراء مجلة الوعد، حملها وسار نحو مطعم "بروستد تشيكن" ليتصل من هاتفه بجيرانه آل شاهين، في محاولة لإنقاذهم من الانفجار بإخراجهم من منزلهم عبر إقناعهم أن ابنهم ميشال قد تعرّض لحادث وهو يرقد في المستشفى. ولكن خطته فشلت عندما أجاب ميشال شخصياً على الاتصال، فسأله هل سيقدم الشيخ بشير محاضرة اليوم، ككل ثلاثاء؟ فكان جوابه، نعم.

وصل بشير إلى بيت كتائب الأشرافية كعادته كل ثلاثاء ليرأس الاجتماع الأسبوعي، ولكن بتأخر ساعة عن مواعده العادي، وكان الجميع بانتظاره. في هذه الأثناء كان حبيب الشرتوني يراقبه عن بُعد وهو يحيي الجميع مصافحاً الرفاق ومتقبلاً تهاني المواطنين. دخل صالة الاجتماعات وسط دوي تصفيق 400 حزبي وقفوا تحية له.

تناول حبيب الشرتوني الهاتف ثانية واتصل بشقيقته نوال من جديد، مدّعياً أنه أصيب بتشنجٍ حادٍ في ذراعه، ولم يعد يستطيع قيادة السيارة، طالباً منها أن توافيه الآن وبسرعة إلى ساحة ساسين لتأخذه إلى المستشفى. أسرع نوال وارتدت ثيابها ونزلت باتجاه ساحة ساسين مباشرة، بينما انطلق حبيب بسيارته بسرعة نحو منزل الناصرة. فتح الحقيبة وركّز الهوائي بالاتجاه المطلوب وضغط على زر ON ثم طلب رقم 120 ثم أخذ نفساً عميقاً وضغط على زر CALL بشدة وأبقى إصبعه على الزر إلى أن سمع صوت الانفجار العظيم الذي اهتز له البناء.

عندما وقع الانفجار في الساعة الرابعة وثمانية دقائق من بعد ظهر الأربعاء في 14 أيلول/سبتمبر 1982، كان بشير يعطي تعليماته للمسؤولين الحزبيين بضرورة دعم السلطة الشرعية وقواها على الأرض في تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة الأمنية في بيروت الشرقية. ارتفع البناء ذو الأدوار الثلاث في الهواء من حجم الانفجار وهوى مدمراً، في حين انتشرت سحابة كبيرة من الدخان والغبار فوق ركام المبنى الذي اختلطت أعمدته المحطّمة وحجارته ببقايا الأجسام البشرية والدماء. الصراخ يعلو في الشارع "بشير، بشير، بشير" مختلطاً بصيحات الكتائبين الهستيرية، وهم يبعدون المدنيين والصحفيين عن ما تبقى من بناء مركز الكتائب، بينما يوجّه مسؤولو الكتائب والقوات أوامرهم لرجال الإنقاذ بتركيز الحفر والتنقيب في محيط المكان الذي كان يجلس فيه بشير، وسط نداءات الصليب الأحمر للتبرّع بالدم،

وزعيق منبّهات سيارات الدفاع المدني والإسعاف وإطلاق الرصاص في الهواء، وقد أحاطت قوات الجيش اللبناني بموقع الانفجار لتبقي المتطفلين بعيداً عنه.

كانت العناصر الحزبية ورجال الدفاع المدني والإنقاذ يحفرون بالمعاول وبأيديهم بحثاً عن الجرحى والقتلى وبشير. حضرت رافعة كبيرة وشاركت بالعمل. فجأة تمّ انتشار أمد الأحياء. بدا شكله كأحد الأشباح وقد غطّاه الغبار والرمال بينما مالت الشمس إلى المغيب. وجّهت بعض السيارات أضواءها إلى حطام المبنى لإنارة الموقع، كما أحضرت بعض الأضواء الكاشفة. سأل كريم بقرادوني أحد رجال الإنقاذ عن مدة بقاء الإنسان حيّاً تحت الأنقاض. فأجابه ليس أكثر من ساعتين. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة. ناج آخر تمّ سحبه من بين الأنقاض وقد أصيب بجرح كبير في ساقه. وُضع على نقالة وتمّ نقله إلى سيارة الإسعاف التي انطلقت مسرعة. "بشير حي، لقد نقلته سيارة الإسعاف الآن إلى المستشفى". تردّد هذا الكلام من أكثر من شخص وانتشر الخبر بين الجماهير المحتشدة ليتحوّل إلى هتافات "بشير حي، بشير حي".

"هذه أعظم أعجوبة في عيد الصليب" قال الوزير سليم الجاهل مجهشاً بالبكاء فيما صرخت صولانج زوجة بشير: دعونا نذهب حالاً إلى مستشفى أوتيل ديو حيث أخذوه.

لم يكن بشير في مستشفى أوتيل ديو، فقالوا لهم أن يراجعوا في مستشفى رزق. توجّهوا إلى مستشفى رزق، ولكن بشيراً لم يكن هناك كذلك، فقالوا لهم أن يراجعوا في مستشفى الروم. توجّهوا إلى مستشفى الروم، ولكن بشيراً لم يكن هناك أيضاً، فعادوا إلى موقع الانفجار. كذلك هناك لم يكن قد ظهر أي أثر لبشير بعد، رغم أن العديد من الجرحى والقتلى الآخرين قد تمّ إخلاؤهم، ولكن جثة بشير لم تكن بينهم.

حوالى الساعة العاشرة مساءً صرخ أحد رجال الإنقاذ أنه اكتشف جثة. أسرع فادي أفرام لمعاينتها، فصعقه مشهد الخاتم السداسي الأضلاع في يد الضحية التي تلبس بذلة باللون الأزرق الفاتح وفي جيبها برقية تهنئة بالرئاسة من مختار إحدى القرى، إنه البشير. رفع رجال الإنقاذ الجثة بدون أن يبدي مسؤولو القوات والكتائب أي ردة فعل مباشرة أمام الجماهير المحتشدة خوفاً من توتر الأجواء التي بلغت ذروة التشنج واليأس. ولكن ما أن انطلقت سيارة الإسعاف نحو مستشفى أوتيل ديو حتى لحقتها جميع القيادات المنتظرة. وهناك في غرفة العمليات سُجِّي البشير وقد غطته الدماء المتجمدة والمجولة بالتراب والغبار. ورغم الكسور في الأطراف، فإن وجهه لم يكن مشوّهاً، إذ إن الإصابة المباشرة كانت من الخلف، في الرأس والظهر والعمود الفقري، فكانت نهاية الحلم.

121

بعد أن ضغط حبيب الشرتوني زر التفجير، انطلق لتفخيخ حقيبة التفجير ليمحو آثار جريمته، فركز حلقة قنبلة المدقة في هوائي جهاز الإرسال إلى جانب إصبعي ديناميت وقطعتي بلاستيك سيمتكس. أغلق الحقيبة ووضعها داخل صندوق من الكرتون وحملها إلى السيارة، ثم انطلق نحو مستشفى رزق. في طريقه إلى هناك رمى الصندوق في أرض مهجورة تضم بيتاً مهتماً.

لم يكن الدخان الأسود قد انقشع عن موقع الجريمة بعد، عندما تم الإمساك بالخيط الأول الذي سيفضي إلى منفذ العملية. فما أن ابتعدت نوال الشرتوني عن منزلها قليلاً باتجاه ساحة ساسين لتأخذ شقيقها حبيب إلى المستشفى، حتى دوى الانفجار في بناء بيت الكتائب الذي يضم

منزلها كذلك، فأصيبت بالذهول بدايةً لتتحول تصرفاتها بعد ذلك إلى ذعر حقيقي، فصرعت تصرخ "كدت أموت في الانفجار لو لم يتصل بي أخي حبيب ويطلب مني النزول حالاً من البيت". وبحركة هستيرية صارت تجري من مكان إلى آخر باحثة عن أخيها ومرتدة بانفعال ظاهر "أنقذني أخي من الانفجار عندما طلب مني النزول من البيت حالاً". كثيرون من المتجمّعين في موقع الانفجار سمعوا كلامها، وأبلغ بعضهم أمن القوات بذلك.

في مستشفى رزق تمّ لف ذراع حبيب الشرتوني بالضمادات الطبية كي يبعد أي شكوك عن رأس شقيقته نوال، ثم عاد إلى مسرح الجريمة ليبحث عنها، وليكتشف هول جريمته وفداحة التدمير الحاصل، إلى حدّ إصابته بالذعر من أن لا تكون أخته قد نزلت من البيت في الوقت المناسب، ولكن باله ارتاح عندما قابل خالته التي أخبرته أنها قابلت شقيقته بعد الانفجار والتي كانت بدورها تبحث عنه، إلى أن التقيا لاحقاً وانطلقا سوياً نحو قريتهما شرتون.

بينما كان الأطباء ينظفون جثة بشير الجميل ويضمّدون جراحه ويرمّمونها استعداداً لدفنه في اليوم التالي، كان فادي أفرام ينفذ أصعب مهمة في حياته، إيلاغ صولاتج الجميل خبر مقتل زوجها، كذلك إيلاغ أعضاء مجلس القيادة. حزنٌ وغضبٌ عارمان كانا يلفان قاعة الاجتماعات، ولكن كان لا بدّ من اتخاذ قرارات مصيرية واختيار من سيكمل مسيرة البشير. أعلن استتفار عام في صفوف الحزبيين والقواتيين على أن يلازموا الثكنات. وعند منتصف الليل أعلن رئيس مجلس الوزراء، شفيق الوزان، رسمياً وفاة الرئيس المنتخب، وانتقلت الإذاعة اللبنانية إلى بثّ الموسيقى الكلاسيكية الحزينة.

كان بشير الجميل رجلاً شعبياً لا يحبّ البهجة والمواكب المرافقة، وكان التواصل مع أفراد الشعب يثير فيه شعوراً بالزعامة

الحقيقية النابعة من القواعد الشعبية، لذلك كان يغافل مرافقيه وحرسه الشخصي بالتجول بسيارته الخاصة منفرداً لمقابلة الناس والاطلاع على أحوالهم ومعرفة أفكارهم والإحساس بنبضهم، رغم تحذيرات أعضاء القيادة له بخطورة تصرفاته هذه، ولكنه كان يعلّق دائماً "كما يريد الرب".

إثر شيوع خبر الوفاة، تشكلت غمامة حزينة سوداء غطت الجمهورية اللبنانية من أقصاها إلى أقصاها مع زوال الحلم، استمرت إلى ما بعد إيداعه الثرى في مسقط رأسه بلدة بكفيا، حيث استعاد اللبنانيون أجواء القلق على المستقبل الذي لازمهم طويلاً، في حين اختلفوا مجدداً في تحديد المسؤول عن اغتيال البشير، كل حسب انتمائه. فالبعض اتهم سوريا، والبعض إسرائيل، والبعض الآخر اتهم المقاومة الفلسطينية وليبيا وإيران، في حين اتهم آخرون مقرّبون منه بالضلوع بهذه الجريمة.

أبلغ رئيس الموساد رئيس الأركان الإسرائيلي بأن رجاله في بيروت قد تعرّفوا إلى جثة الرئيس الجميل، فاتصل فوراً بوزير الدفاع أريئيل شارون في منزله ووضعه في صورة آخر التطورات. بدوره، اتصل شارون مباشرة برئيس مجلس الوزراء مناحيم بيغن، ليأخذ منه الضوء الأخضر لتنفيذ الخطة الرديفة، والتي سبق وتمّ إعدادها استعداداً للطوارئ، والتي تقضي بنقل آلاف الجنود الإسرائيليين جواً مع آلياتهم إلى مطار بيروت الدولي.

عند الثالثة والنصف فجراً، وبعد موافقة مناحيم بيغن على خطة شارون، وصل رفائيل إيتان وأمير دروري وموشي ليفي وأوري ساغي إلى مركز قيادة القوات اللبنانية في الكرنتينا للاجتماع بفادي أفرام وزاهي البستاني وأنطوان بريدي، لإبلاغهم بقرار الحكومة الإسرائيلية دخول بيروت الغربية، وأن القوات الإسرائيلية ستُرسل ضابط ارتباط خاص للتسيق مع القوات في عملية تنظيف المخيمات الفلسطينية. عندها، طلب فادي أفرام 48 ساعة لتجهيز قواته الداعمة.

المشهد الثالث

15 أيلول/سبتمبر – 28 أيلول/سبتمبر

صحت بيروت عند الخامسة صباحاً على أصوات أزيز الطائرات الحربية الإسرائيلية لتتحول بعد ذلك إلى غارات وهمية منخفضة مرتبة استمرت حتى السابعة. هذه الغارات لم تمنع فرق "أوجيه لبنان" من القيام بواجباتها اليومية، فانطلقت عند السابعة والنصف كعادتها من الملعب البلدي إلى مناطق برج المر، رياض الصلح، رأس النبع، الجامعة العربية، الفاكهاني والطّيونة. كان مركز عمل راشد وعلي لهذا اليوم محيط مجلس النواب وساحة النجمة. أما جمال، فلم يحضر اليوم، رغم أنه كان أول الواصلين إلى الملعب البلدي صباح كل يوم.

استمرّ تنظيف ساحة النجمة ومحيط المجلس النيابي من الحواجز والسواتر الترابية والأنقاض لليوم الثاني، حيث كان من المفترض أن يتمّ حفل تنصيب بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية يوم 23 الجاري. ولكن، وبعد اغتيال البشير، فلا أحد يدري متى سيتمّ انتخاب رئيس جديد آخر أو متى سيتمّ تنصيبه. كانت جرافتان كبيرتان تتوليان تعبئة ثمان شاحنات بالركام، وما أن انتقلتا لتحطيم دشم الباطون المسلّح من الشوارع المتفرّعة من الساحة، حتى توقفت الجرافة التي تعمل على إزالة العوائق في شارع الجامع العمري، وانتصب سائقها محملاً في الشارع المقابل، أرسل صفره لراشد وأشار بيده ليصعد إليه.

من على متن الجرافة فهم راشد سبب توقف السائق ودهشته. كانت أربع دبابات بلون الرمال ترفع أعلاماً إسرائيلية وقد تمّ تغطيتها بقماش برتقالي اللون، تتجه من شارع المرفأ صعوداً نحو شارع النبي، مثيرة عاصفة من الغبار حولها.

- أولاد الكلب، أولاد الكلب. رَدَّها راشد وكأنه تَقَمَّص شخصية البروفسور سامي شومان. طلب الإدارة العامة على الجهاز لتلقي التعليمات، فكان الجواب سؤالاً: حتى عندك؟ يظهر أنهم يتقدّمون من جميع الجهات. عليك العودة فوراً مع جميع الآليات إلى الملعب البلدي. كانت غارات الطيران الإسرائيلي الوهمية تغطيةً لاقتحام القوات البرية المفاجئ لخطوط تماس بيروت الغربية وضاحتها الجنوبية. تمّ اندفاع القوات الغازية على خمسة محاور: المطار، ومستديرة السفارة الكويتية، والأوزاعي، والمتحف، والمرفأ. في الوقت نفسه تابع الطيران تحليقه في الأجواء بينما كانت البوارج البحرية تجوب الشاطئ قبالة مناطق الزيتون والمنارة والأوزاعي، حيث قامت بإزالة قوات كوماندوس في المسبح العسكري والرملة البيضاء، كما تمّ إنزال قوة مظليين في مطار بيروت اتجهت فوراً لتتضمّن إلى قوة المشاة عند مداخل مخيمي صبرا وشاتيلا والمدينة الرياضية والطريق الجديدة، داعيةً المواطنين إلى إلقاء السلاح وعدم مقاومتها لأن جيش الدفاع الإسرائيلي يريد حماية المسلمين من ردة فعل المسيحيين إثر مقتل زعيمهم بشير الجميل.

هبطت طائرة عسكرية إسرائيلية أخرى في مطار بيروت الدولي، وخرج منها أريئيل شارون مع مجموعة من كبار الضباط، وانتقلوا مباشرة عبر طريق الأوزاعي الذي احتشدت فيه قوات "جيش لبنان الجنوبي"، نحو سطح بناء ضمن مجموعة منازل الضباط المواجهة لنادي الفروسية، والذي اختارته القيادة الإسرائيلية مركزاً لمراقبة المخيمات الفلسطينية بعد أن جهّزته بشبكة اتصالات لاسلكية وخرائط عسكرية جوية ومناظير ليلية مكبرة ثابتة. من هناك قدّم رفائيل إيتان تقريره إلى وزير الدفاع حول اجتماعه فجراً مع قيادة القوات اللبنانية الجديدة، وعن تقدّم القوات الإسرائيلية في بيروت الغربية والمخيمات مستعيناً بالخرائط أمامه.

عاد راشد وعلي بألياتهم إلى الملعب البلدي، حيث علما بالتقدم الإسرائيلي على جميع المحاور، فقرّرا الذهاب إلى مخيم شاتيل لتفقد جمال الذي واظب على النوم في دار عمه في حي فرحات عند طرف مخيم شاتيل منذ أن رحل ابن عمّه إلى تونس مع المغادرين.

للمرة الثانية خلال أقل من اثنتي عشرة ساعة يُعقد اجتماع في مركز قيادة القوات اللبنانية في الكرنتينا يضمّ إضافة إلى أركان الاجتماع الأول إيلي حبيقة وأسعد الشفكري وأريئيل شارون ومرافقيه. بادر شارون بالقول: إن الوضع سيئ جداً، ويجب اتخاذ قرارات مصيرية للمحافظة على المكاسب التي حقّقناها حتى الآن، وإلضاع كل شيء منا حتى رئاسة الجمهورية، ولعاد المخربون إلى بيروت أقوى مما كانوا، لذلك فنحن مستعدّون لتقديم أي مساعدة تطلبونها كما فعلنا خلال السنوات الماضية وكأنّ بشير ما زال بيننا.

- الواقع أننا قد أجلّنا البحث في أي موضوع إلى ما بعد دفن البشير -
 - أجاب زاهي البستاني - ولكن بعد ذلك سنشاور الشيخ بيار شكلياً لتقرير ما يجب فعله، علماً أنّ هناك ثلاثة خيارات أمامنا الآن، إما التجديد للرئيس سركيس، أو انتخاب رئيس جمهورية جديد من الكتائب أو القوات، أو تشكيل حكومة انتقالية يرأسها شخص من الكتائب أو القوات.

- إذاً في الوقت الحاضر على قواتكم التقدم وراعنا في بيروت الغربية والمخيمات ابتداءً من الغد، فقواتنا ستصل بعد ظهر اليوم حتى كورنيش المزرعة، كما أنّها ستتقدّم خلال هذه الليلة عبر المرفأ إلى كورنيش رأس بيروت البحري لإحكام سيطرتنا من جميع الجهات، وذلك لتسهيل تنظيكم المخيمات التي لا زالت تضمّ أكثر من ألفي مخرب. لا أريدكم أن تبكوا كالنساء، أريدكم أن تفعلوا شيئاً لتنتقموا لبشير، هل تعتقدون أنّ بشيراً كان قد بكى لو قُتل أحدكم بدلاً منه. بالتأكيد لا... بل كان سيعمل كل ما بوسعه لينتقم من أعدائه، ولا شك أنّ هذا ما يريدكم أن تفعلوه غداً.

عندما دخل راشد وعلي حي فرحات متجهين نحو دار عم جمال على أطراف مخيم شاتيلا، لم يعترضهما الحاجز الإسرائيلي عند قصر صبري حمادة، بل كان أفراده يلعبون أطفال الحي ويمازحونهم، ولكن عندما أخذ أحدهم قطعة شوكلاته من جندي إسرائيلي نهفته أمه ورمتها على أرض الطريق.

صفوف طويلة احتشدت خارج كنيسة مار عبده في بلدة بكفيا الجبلية مسقط رأس بشير الجميل، في انتظار دورها لتلقي النظرة الأخيرة على النعش الأبيض اللون الذي يضم ما تبقى من الأسطورة التي عاشوا حلمها، فكانت صدمتهم كبيرة بحجم آمالهم التي تحطمت. كان بعض المقاتلين والرفاق ينتحبون كالأطفال على النعش ويضربونه بقبضاتهم وكأنهم يريدون من البشير أن يخرج منه، بينما كانت الصرخات في الخارج تدوي "بشير حيّ فينا، بشير حيّ فينا".

كانت الطائرات الحربية الإسرائيلية تحوم فوق الكنيسة عندما دخل أريئيل شارون ومرافقوه منزل بيار الجميل لتعزيته وعائلته بالمصاب الكبير. وعندما وصل دور التعزية إلى أمين الجميل شقيق الفقيد، بادرهم بالشكر على عاطفتهم مضيفاً أن بشير كان يطلعه على علاقاته معهم وأنه سيكمل مسيرة بشير... فقاطعه شارون قائلاً: "نحن هنا لتقديم واجب العزاء فقط".

بينما كان جثمان الرئيس بشير الجميل يوارى التراب، كانت الطائرات الحربية الإسرائيلية تقوم بحركات بهلوانية وداعية فوق بلدة بكفيا، لتنتقل من هناك لتنفيذ غارات وهمية إرهابية جديدة فوق بيروت الغربية والمخيمات، حيث كانت وحدة من "سايريت متعكال - الاستكشاف" قوامها 30 عنصراً من قوات المغاوير تدخلها. تمّ تقسيم الوحدة إلى ثلاث مجموعات تضمّ كل منها عشرة عناصر إضافة إلى مقنّع يتكلم العربية بلهجة فلسطينية.

تسلّلت هذه المجموعات داخل حوارِي المخيمات بناءً على خرائط محدّدة أرشدتها إلى أبواب بيوت محدّدة لتسأل عن أشخاص محدّدين بناءً على قوائم اسمية. وما أن كانت تتعرّف إلى أحدهم حتى كانت تطلب منه التّقدم إلى خارج البيت حيث كانت تطلق النار عليه في عنقه عبر كاتم للصوت وبكل دم بارد. ومع انتهاء النهار تمّت تصفية أكثر من 60 متفقاً فلسطينياً ملتزماً بين محامٍ وطبيب ومهندس وأستاذ جامعي.

في دار عم جمال وعلى ضوء "اللوكس"، وبسبب عدم وجود رقعة شطرنج لدى دار عم جمال، قرّر الشبان تقطيع الوقت بورق اللعب بعد الاستعانة بخالد، صديق جمال كلاعب رابع. وعندما كانت تُسمع طلقات الرصاص، أثناء لعبة الحرب، كان خالد يطمئنهم قائلاً: "إن الإسرائيليين الجبناء يطلقون النار عشوائياً عند سماع أدنى حركة قربهم ولو كانت قطعة شاردة".

123

بقرار من جمعيّتي المصارف والتجار أقفلت المصارف والمحلات التجارية في بيروت الغربية، كما أغلقت الدوائر الرسمية أبوابها لمدة أسبوعٍ حداداً على الرئيس المغدور. أما على الصعيد الشعبي، فقد تهافت المواطنون على محطات البنزين والأفران خوفاً من أزمة جديدة تصيبهم، خاصة بعد فرض منع التجول بين شطري العاصمة ومع الجنوب والبقاع.

هذا الصباح كانت مدام ناديا تقوم بزيارة "أم ميشال" ناشدة استعارة رغيفين من الخبز منها.

- من سوء حظّي أنني أصبت أمس بنوبة ألم رأس وأسنان ولم أستطع الخروج من بيتي لشراء تمويني، وعندما ذهبت إلى القرن اليوم

لشراء الخبز، كان قد أُقفل لنفاذ الكمية التي خبزها، بسبب لجوء الناس إلى التموين.

- لا تجزعي، لديّ الكثير من الخبز وسأعطيك بعضه.

- الله لا يحرمننا منك يا "أم ميشال"، أرجو أن لا تغادرينا الآن كما فعلت أثناء الحصار.

- كوني على ثقة أنني لن أنتقل من بيتي بعد الآن إلا إلى المدفن.

دوى انفجار قوي قريب بالتزامن مع تحطّم زجاج نافذة، إثر ذلك سمعت السيدتان صوت سقوط جسم على أرض الصالون. قفزت المرأتان إلى مصدر الصوت فشاهدتا شظية قذيفة هاون على الأرض فوق قطع زجاج نافذة الصالون التي انتشرت على البلاط.

في سوق خضار منطقة المصيطبة وإلى جانب الجسر الذي يوصل بين منطقتي برج أبي حيدر والباشورة، وضع شبان وطيون لبنانيون عبوة ناسفة تمّ تفجيرها عند عبور دورية للاحتلال، فأصيبت دبابة إسرائيلية، وأتبعوها بهجوم بالقذائف الصاروخية المباشرة فأعطبت دبابة أخرى واحترقت. عندها استخدم الإسرائيليون رشاشاتهم الثقيلة ومدافع الهاون المنصوبة داخل ناقلات الجند للردّ على المقاومين الذين انسحبوا بدون أية خسائر، بعد أن داست الدبابات الإسرائيلية السيارات المركونة إلى جانبي الطريق وسحققتها، وأصيبت الأبنية المجاورة وتحطّمت أجزاء منها. ثلاث عمليات أخرى وقعت خلال النهار ضد الإسرائيليين قرب كلية الهندسة في الفاكهاني والثانية قرب تمثال جمال عبد الناصر في منطقة عين المريسة، والثالثة قرب باتيسري الجندول، إضافة إلى عدة عمليات قنص متفرقة أخرى.

عاد حبيب الشرتوني إلى بيروت بعد غياب يومين في قريته، وقصد منزل آل شاهين لتعزيتهم بانهم، صديقه ميشال، الذي مات ضحية تفجيره مركز حزب الكتائب. كان شعور حبيب لا يوصف، أنه

أكثر من الحزن والأسى والندم، إنه الشقاء، ألف صورة وفكرة وهاجس عبرت رأسه، وقد سمر عينيه بالأرض لا تتحركان إلى أي مكان، كي لا تقع على عيني أحد أفراد عائلة شاهين. تمنى لو يبكي ولو قليلاً علّ دموعه تساعد في تبريد النار المتقدة فيه وفي إبعاد أي تهمة قد يكون أحد ما يريد إلصاقها به. لازمه هذا الشعور عندما عاد إلى منزله في منطقة الناصرة وإلى أن استلقى على سريره، عندها شعر بدفق حراري يصعد من عنقه إلى رأسه فعينيه اللتين اشتعلتا دموعاً حارة. سمع طرقاتاً على الباب، فحاول مسح ما استطاع من الدموع في طريقه ليفتح الباب لدورية من القوات اللبنانية على رأسها ابن عمه الياس الشرتوني الذي أمره أن يرافقهم، فغادر معهم دون أي نقاش أو تذمر.

بعد اقتحامها لبيروت الغربية أكملت القوات الغازية انتشارها في شوارع العاصمة وأحيائها عبر محاور الحمراء وبرج أبي حيدر والبربير إضافة إلى الخط الساحلي، مما أثار سخط المواطنين وأشعل الحمية الوطنية لدى مجموعة من الشبان الوطنيين فنظّموا صفوفهم وأطلقوا من منزل الشهيد كمال جنبلاط البيان الأول لـ "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية":

يا أبناء بيروت البطلة،

يا أبناء شعبنا اللبناني العظيم في الجنوب والجبل والبقاع
والشمال،

أيها المقاتلون الوطنيون الشجعان

إن العدو الإسرائيلي المستمر في حربه الوحشية ضد لبنان منذ أكثر من مئة وأربعة أيام يبدأ اليوم تدنيس أرض بيروت الغربية الطاهرة التي قاومته ببطولة طوال هذه المدة ولقنته في خلدة والمتحف وفي ضاحيتها الجنوبية وكل مداخلها دروساً في البطولة لن ينساها.

إن العدو المجرم يتكّر لكل الاتفاقات التي أُجبر على إبرامها بفضل المقاومة البطلة للشعبين اللبناني والفلسطيني بقيادة القوات

المشتركة، ويستهدف اقتحام بيروت الوطنية التي استعصت عليه عندما كانت في حال الاستنفار والتعبئة، وقبل تثبيت الخطة الأمنية التي قضت بتسليم أمن بيروت للسلطة الشرعية.

يا رجال ونساء لبنان من كل الطوائف والمناطق والاتجاهات، أيها اللبنانيون الحريصون على لبنان بلداً عربياً سيداً حراً مستقلاً، إلى السلاح استمراراً للصمود البطولي دفاعاً عن بيروت والجبل، عن الجنوب والبقاع والشمال. إلى السلاح تنظيمياً للمقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال وتحريراً لأرض لبنان من رجسه على امتداد هذه الأرض من أقصى الوطن إلى أقصاه.

1982/09/16

جورج حاوي

محسن إبراهيم

حسين حمدان

124

تحت شمس محرقة ومن على أشجار الصنوبر القليلة التي بقيت على أطراف مخيم شاتيلا، كانت جوقة الصراصير التي اتخذت منها منبراً تعزف سيمفونية "مقدح الدماغ"، ناخرة الرؤوس بموسيقى وحشية لا ترحم. وفي ظل الأشجار انتشرت أشباه بيوت غير منتظمة التصميم. القليل منها تمّ طلاؤه، بينما الأغلبية بقيت على لون حجارتها الرمادية اللون، وقد سُققت بألواح "الزينكو" المعدنية ووضعت فوقها بضع إطارات قديمة، لتحفظها من عصف رياح الشتاء.

حركة بطيئة في حوارٍ وأزقة المخيم الضيقة التي ملأها الرمال والحفر والحجارة. هناك فتية يدفعون عربات يدوية مملوءة بالرمل والحصى وحجارة البناء، بينما يقوم آباؤهم وإخوتهم ببناء وإصلاح ما هدمته حرب إسرائيل ضدّهم، في حين انصرفت النسوة باحثات عن الخبز المفقود من مخيم شاتيلاً محاولةً إيجاداه في منطقة الغبيري، ولكن الحاجز الإسرائيلي منعهن من ذلك. الدخول إلى المخيم مسموح، ولكن الخروج منه ممنوع.

في تكتة الكتائب في بلدة وادي شحور، انتظم أكثر من ثلاثمائة مقاتل في عدة صفوف في وضع الاستراحة، بينما وقف مقابلهم ضابط يوجّههم قبل الانطلاق في مهمتهم.

- اليوم تذهبون للثأر للبشير، على كل واحد منكم أن يثأر للبشير، أنتم أدوات الله اليوم. بالأمس كانوا يطلقون النار ابتهاجاً لاستشهاد البشير، واليوم ستنثأرون أنتم لدم البشير، ستكونون أنتم أدوات الله للانتقام للبشير. إن مهمتكم مقدّسة، عليكم جمع جميع الرجال والشبان القادرين على حمل السلاح واعتقالهم لتخليص لبنان ممّا تبقى من أعدائه لترتاح روح البشير.

بعد ذلك جاء دور الضابط الإسرائيلي شلومو مرتدياً زي الكتائب ولكن بدون أي رتب أو إشارات عسكرية عليه. شرع يشرح لهم تفاصيل الخطة مستخدماً خرائط جوية للشوارع والبيوت، وذلك بلغة عربية واضحة، مع تحويل حرف "حاء" إلى "خاء" دائماً. لم يكن أحد من المسلحين مهتماً بهذه التفاصيل، كان الانتقام ثم الانتقام ولا شيء سوى الانتقام نصب أعينهم. فبعد ليلة حفلت بما طاب من مأكّل وخمور ومخدرات، مدعومة بخطابات وأغانٍ عنصرية تحريضية، كان معظمهم مخدّر الأحاسيس وقد تحوّلوا إلى ما يشبه البشر الآليين.

بعد انتهاء شلومو من إعطاء تعليماته، حلف الجميع اليمين على الإنجيل المقدّس بأن أحداً منهم لن يتكلّم عن هذا الموضوع لمطلق

شخص طوال حياته. امتطوا شاحنات الريبو الإسرائيلية، يرافقه عسكريون إسرائيليون بثياب الكتائب، قيل لهم إنهم متطوعون، واتجهوا نحو مطار بيروت الدولي عبر طرقات محددة تُبنت عليها شعارات الكتائب لإرشادهم إليه، كي لا يضلوا الطريق ويدخلوا مناطق معادية فيتعرف المواطنون إليهم ويحدث ما لا تُحمد عقباه.

بسبب منع حاجز القوات الإسرائيلية قرب قصر حمادة راشد وعلي من الخروج من المخيم مساءً، اضطررا للنوم في دار عم جمال. ولكنهما في الواقع لم يناما جيداً كحال باقي سكان المخيم، فالقصف والقنص وإطلاق الأضواء الكاشفة استمر طوال الليل، أضف إلى أن راشد كان قلقاً لعدم إبلاغ عائلته أنه سيبيت خارج المنزل. بعد أن تناولا المناقش والشاي التي جلبها جمال، اقترح عليهما أن يمضيا الوقت في ما يفيد، كترميم سطح دار عمه الذي سبق وأحضر جمال حجراته ولوازم بنائه. استمر العمل حتى الظهر بمساعدة خالد، إلى أن تم إنجاز عملية الترميم بعد أن نال منهم التعب. بعد استراحة قصيرة قرّر راشد وعلي محاولة الخروج ثانية من المخيم ولكن من نقطة أخرى، فاقترح عليهما جمال المحاولة من جهة شارع "أبو حسن سلامة" لأنه مدخل رئيسي إلى المخيم.

تبع راشد وعلي خطوات جمال وخالد اتقاءً لرصاص القنص الذي كان يصيب البيوت المتواضعة والمتضررة. كان جزء كبير من الشارع الرئيسي في مخيم شاتيلا قد تحول إلى بحيرة موحلة اضطروا للخوض فيها جزئياً تجنباً لرصاص القنص. لكن، ورغم الجهد والمخاطرة فإن الحاجز الإسرائيلي صدهم بعنف ومنعهم من الخروج "روح جواً، روح جواً". دخلوا دكان الدوخي واتصل راشد بعائلته لطمأننتهم وإفادتهم بأنه سينام الليلة أيضاً عند جمال.

بعد أن كان القنص والقصف المدفعي على المخيمات متقطعاً، عاد واشتد بعد الظهر، مما جعل الناس تهرب إلى الملاجئ التي ضاقت بمن

فيها. بُعيد الثالثة بعد الظهر عَنَفَ القصف من الجهة الجنوبية للمخيم من مواقع الجيش الإسرائيلي في محيط السفارة الكويتية وشاركتها في القصف القوات الإسرائيلية في محيط المدينة الرياضية، فهرب المزيد من الناس من بيوتهم إلى المساجد والمستشفيات بعد أن ضاقت الملاجئ القليلة بروّادها.

فيما كانت المجموعة الكتابية الأولى تتّجه من مطار بيروت نحو المخيمات عبر الأوزاعي فتكنة هنري شهاب، كان الجنرال أمير دروري يتصل بوزير دفاعه أريئيل شارون: أصحابنا يتّجهون الآن نحو الهدف، لقد اتفقت مع مسؤوليهم على كل شيء.

- أحسنت... تهانينا.

وصلت القوة الكتابية مع بعض المتطوعين من القوات الإسرائيلية ونمر الأحرار وحيش لبنان الجنوبي إلى مركز الكتائب المستحدث في مبنى الجامعة اللبنانية، القريب من مبنى الأمم المتحدة. كان يقودها إيلي حبيقة رئيس جهاز الأمن، يساعده ميشال عيد، وميشال زوين مسؤول العمليات، وديب أنستاز مسؤول الشرطة العسكرية، ومارون مشعلاني مسؤول القوات الخاصة، وجوزف إده قائد المغاوير، وجيسي سكر ضابط الارتباط مع الإسرائيليين، وجوزف الأسمر وجورج ملكو. وفيما صعد حبيقة إلى البناء ليراقب تنفيذ العملية، اتّجهت عربات الجيب الخمسة وعشرون التي تحمل المهاجمين باتجاه مخيم شاتيلاً مروراً بمبنى السفارة الكويتية.

ما أن وصل راشد ورفاقه في طريق عودتهم إلى قرب بناية مغلّاتي حتى اشتدّ القصف، ففرّروا الاحتماء بمدخلها، خاصة وأن خالة خالد تسكن فيها، حيث طرأت فكرة جنونية على رأس خالد:

- ما رأيكم أن نصعد إلى السطح لتفقد قفص الحمام وإطعامها؟

- ماذا! هل أنت مجنون؟ ردّ راشد.

- والله إنها فكرة ممتازة حيث يمكننا معرفة ماذا يجري حولنا إذا نظرنا من السطح. علّق جمال.

- وماذا لو كَشَفْنَا الإسرائيليون؟ سأل علي.

- لا تكن جباناً يا رجل، هيا بنا.

أمسك خالد بيد راشد وسحبه باتجاه درج البناء. أثناء صعودهم كان صوت الانفجارات يعنف أحياناً ويخف أحياناً أخرى. عند الوصول إلى باب السطح طلب خالد من رفاقه الانتظار هناك، بينما ركع على ركبتيه وجعل يزحف باتجاه قفص الحمام. بعد أن قطع الجهة المكشوفة للمدينة الرياضية، أرسل صفرة لرفاقه وأشار إليهم بالزحف لعنده. بعد أن بدأ راشد وعلي بالزحف، همّ جمال بالركوع وإذا اختلس نظرة سريعة نحو مدخل شارع شاتيلا الرئيسي، فشهد عدة عربات جيب عسكرية تدخله. تراجع نحو الباب وصرخ لرفاقه أن ينظروا حيث أشار. ما أن رفع الشباب رؤوسهم حتى انهزم الرصاص عليهم، فأصيب قفص الحمام إصابات عديدة، ولكنهم استطاعوا التراجع نحو الباب وشرعوا بالنزول قفزاً على الدرج وهم يتلمّسون أجسادهم للتأكد من عدم إصابتهم، بينما دنت أصوات الانفجارات إليهم. ما أن أصبجوا على الطريق حتى سقطت قذيفة على سطح البناء وتبعتها أخرى في الطابق الخامس أحدثت حريقاً. أسرع الشبان باتجاه حي فرحات وهم يضعون أيديهم فوق رؤوسهم اتقاءً من الحجارة المتساقطة.

- هل رأيتم عربات الجيب؟ إنهم يدخلون الحرش. زفر خالد لاهتافاً.

- لهذا السبب عنفُ القصف ليؤمن لهم غطاءً للدخول ولكي لا

ينتبه أحد إليهم. علّق جمال.

- إذا لهذا السبب حاولوا قنصنا كي لا نخبر أحداً بما شاهدناه.

استنتج راشد.

- لذلك يجب أن نعود إلى البيت لنقرّر ماذا يجب عمله. ردّ علي.

انعطفت ثلاث عربات جيب كتائبية يميناً ودخلت في الزقاق الضيق حسب الإشارات المحددة على الخارطة التي بيد طوني مسؤول المجموعة. توقفت العربتان الأولى والثانية إلى جانب الطريق وقفز منها عشرة مسلحين، بينما توقفت الثالثة بمواجهة ملجأ البناء.

رغم أن التيار الكهربائي كان مقطوعاً، فإن قناديل الإنارة التي كانت القوات الإسرائيلية تطلقها كل نصف دقيقة كانت كافية لتحويل الليل إلى نهار، ورغم ذلك فإن الظلام كان مخيماً داخل ملجأ "أبو ياسر" لولا بضع شمعات أشعلها الملتجئون إليه. أدار عبدو مصابيح عربية الجيب الثالثة المسلطة على الملجأ، وتقدم طوني من الباب صارخاً:

- يا عكا... اطلعوا كلكم إلى هنا.

انتظر دقيقتين ولكن أحداً لم يظهر، فخرطش رشاشه وأطلق صليّة منه باتجاه مدخل الملجأ صارخاً بأعلى صوته:

- لا زلت أنتظر يا عكا...، إذا لم تصعدوا الآن سأبدأ بإلقاء القنابل عليكم.

انتظر دقيقتين آخرين ولكن أحداً لم يظهر. أشار إلى رفيقيه عبدو وشربل ليحلقا به نزولاً نحو الملجأ بينما كان يضع مخزن رصاص جديد في رشاشه ويخرطشه. ما أن وصل إلى الملجأ حتى ابتدأ بإطلاق النار عشوائياً على الملتجئين إليه. وعندما فرغ مخزن الرصاص زعق في المتجمّعين هناك:

- سيروا أمامي يا عكا... إلى فوق.

بين بكاء الأطفال وعويل النساء واستغاثة الشيوخ الذين تجمّعوا في الملجأ، ساروا متلمّسين طريقهم للخروج متعرّين بجثث القتلى والجرحى الذين كانوا يأنون من الألم والخوف. كانت الأمهات يحضن أولادهنّ وهنّ يتجهنّ صعوداً يرتجفن لمجرد التفكير بما ينتظرهن. حاولت "أم جعفر" التقاط طفلها الجريح فنهرا شربل وأطلق النار فوق

رأسها فبالت في سروالها الداخلي من الخوف، وأسرت باتجاه الطريق وعيناها على طفلها مجهشةً بالبكاء ومتممةً "أنا لبنانية، أنا لست فلسطينية، أنا لبنانية".

بعد أن خرج الجميع إلى الطريق الضيق وسط شتائم وتحقير المسلحين، أمرت النساء بالانفصال مع أطفالهن عن الرجال، وقام خمسة مسلحين بسوقهن بعيداً عن الملجأ رغم اعتراضهن بأنهن يُردن البقاء مع أزواجهن، مع رجاء "أم جعفر" بإحضار طفلها، ولكن المسلحين أخبروهن أنهم سيأخذونهن إلى مستشفى عكا، فرضخن وصرن أمامهم. تقدّم طوني من الرجال الذين تمّ تجميعهم قرب الحائط المواجه للملجأ ولكز بلال برشاشه محاولاً استنقاذه:

- ما هي جنسيتك يا عكر...؟
- أنا لبناني.
- أرني بطاقة هويتك.
- يبدو لي أن بطاقتك هذه مزورة.
- والله العظيم أنا لبناني.
- طيب قول بندوره.
- ولو، بندوره (باللهجة اللبنانية).
- أنت واحد كذاب، إنبطح على الأرض وازحف إلى آخر الزاروب وارجع زحفاً، تحرك الآن.
- استعرض طوني بقية الرجال بعينه، ثم أمرهم بإبراز بطاقات هويتهم ليعرف جنسية كل منهم. تبين له أن من أصل 27 رجلاً كان بينهم ثلاثة فلسطينيين. فأمرهم بالتقدم نحوه وخلق قمصانهم.
- شريل، فتش هالعكا... عبديو، اكشف على أكتافهم.
- كان طوني، مسؤول المجموعة، يحاول إيجاد بطاقات عسكرية في جيوب الفلسطينيين، واكتشاف آثار تعليق البنادق وإطلاق الآر بي جي

على أكتافهم. من سوء حظ زهدي أن كتفه الأيمن كان يحمل آثاراً كحلية اللون، فدفعه عبدو ببندقيته نحو طوني، الذي ما أن شاهد الآثار على كتفه حتى ضربه بعقب بندقيته على صدره، فوضع زهدي يديه على صدره محنياً رأسه من الألم، فعاجله طوني بضربة أخرى على رأسه أوقعته أرضاً والدماء تنزف منه.

- كلكم عكا...، دبّروهم يا شباب.

تحت تهديد السلاح، أمر الفلسطينيون الثلاثة بالجلوس على الأرض ووضع أيديهم خلف ظهورهم، حيث رُبطت أيديهم وأرجلهم بواسطة رباطات الكهرباء البلاستيكية. رجع عبدو بعربة الجيب إلى الخلف بينما تولّى مسلحون آخرون ربط أقدام الشبان بحبل مثبت في مؤخر عربة الجيب.

في هذه الأثناء أبطأ بلال من وتيرة زحفه ونظر إلى الوراء فوجد المسلحين منهمكين بالشبان الفلسطينيين فانتهزها فرصة ليدلف في زقاق جانبي ويجري بعيداً بأقصى سرعته.

رغم بكاء وصراخ الفلسطينيين الثلاثة وتوسلاتهم ألق عبدو بالجيب بسرعة، بينما كانت أجسادهم ورؤوسهم ترتطم بالأرض صعوداً ونزولاً مع حركة العربة وهم يصرخون طالبين النجدة، ولكن ما من مغيث، محاولين رفع رؤوسهم وأجسادهم عن الأرض، ولكن بدون نتيجة. ما أن وصلت بهم العربة إلى آخر الزقاق حتى استدارت، فانقلبت الأجسام المتورمة والنازفة فوق بعضها وارتفعت سحابة من الغبار والرمال، فارتفع عويلهم من شدة الألم، بينما كان المسلحون يقهقهون جذلاً وهم يشيرون بأصابعهم إلى الأجسام الثلاثة التي خفنت أصواتها إلى أنين وتحولت أجسادها إلى ما يشبه الخرق البالية بعد أن امتزجت دماء أصحابها وعرقهم وبولهم بالرمل والتراب.

عندما وصلت عربة الجيب إلى نقطة انطلاقها، رفع زهدي يديه المربوطتين متوسلاً طوني بصوت واهٍ أن يطخه ويريحه من

آلامه، فأجابته "تكرم عيونك" وأجهز عليه بخمس طلقات، ثم انتقل إلى رفيقيه وقتلهم بدم بارد، ثم استدار نحو الرجال الواقفين إلى جانب الحائط:

- الآن جاء دوركم يا عكا... كلُّ من تشفى بمقتل البشير يجب أن يموت.

أوماً برأسه لمسلحيه الذين اصطفوا مقابل الرجال الذين يفوق عمر معظمهم الخمسين عاماً، وفتحوا نيرانهم عليهم من مسافة مترين وسط توسلاتهم واستغاثاتهم. سقطوا على الأرض جثثاً هامدة، بينما أصيبت قلّة منهم بجراح بليغة. أخذوا يتلون المأ على الأرض، فتمّ الإجهاز عليهم بدم بارد. اصطبغ الحائط باللون الأحمر وسالت الدماء منه جداول صغيرة لتلتقي ببركة دماء الفلسطينيين على أرض المخيم تحت قناديل الإضاءة الليلية الإسرائيلية.

جمع طوني مسلحيه مجدداً حول الخارطة التي بين يديه: انظروا إلى هذا الملجأ القريب من هنا، لا بدّ أنه يزدحم بالعكا... لنذهب إليه ونبيدهم. امتطوا عرباتهم وانطلقوا وسط سحابة من الغبار والرمال. ما أن ابتعدوا قليلاً حتى قفز صبي لم يبلغ الرابعة عشر من عمره من بين الجثث وهرب يعرج بالاتجاه المعاكس.

في هذه الأثناء، وصلت مسيرة نساء ملجأ "أبو ياسر" تحت حراسة المسلحين الخمسة إلى محطة البنزين على الشارع الرئيسي، فاتصل غابي بايلي حبيقة على جهاز "ووكي توكي":

- معي 45 أسير بين نساء وأولاد، ماذا أفعل بهم؟

- هذه آخر مرة تسألني فيها هكذا سؤال. أنت تعرف تماماً ماذا

يجب أن تفعل.

إثر ذلك، تمّ إيقاف النساء والأولاد والأطفال ووجههم إلى الحائط وتمّ حصد أرواحهم بنيران الرشاشات.

أثناء عودتهم إلى دار عم جمال، تداولت مجموعة راشد بالوضع على الأرض. اتفق الرفاق على عجل أن عليهم أخذ زمام المبادرة، كما سيفعل غيرهم من الشبان بالتأكيد، لعدم وجود قيادات تُوجّههم لمقاومة الغزاة، فأخبرهم جمال بأن لديه بعض الأسلحة المخبأة في دار عمه يمكنه أن يأتي بها.

قبل خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، قامت بتوزيع سلاحها الثقيل والمتوسط على تنظيمات الحركة الوطنية اللبنانية المختلفة. كما أنها قدّمت أسلحتها الفردية إلى كل الأفراد والتجمعات والتنظيمات التي طلبت ذلك. ولكن عند دخول الجيش اللبناني إلى المخيمات وبيروت الغربية، وإثر مدهامته للبيوت والمكاتب ومصادرته أسلحة المواطنين، بدأت الأسلحة الفردية تظهر في مكبات النفايات وعلى أرصفة الأزقة، خاصة وأن سكان الأحياء بدأوا بنبذ الشبان المسلحين بعد دخول القوات المتعددة الجنسية وانتخاب بشير الجميل.

عند وصول الرفاق إلى المنزل، أسرع جمال نحو أصص الورود التي كانت في الأصل تتكة زيت وثلاث علب حليب مجفّف وأزاحها جانباً، ثم أتى بمعول وجعل يكسر طبقة الإسمنت الرقيقة تحتها. أخرج من الأرض أربعة أطر مطاطية داخلية، أخرج رشاشي كلاشينكوف من اثنين منها، وقاذف ب 7 من الثالث، ومسدساً وذخائر وقذيفة ب 7 من الرابع.

فتح راشد راديو الترانزستور على "إذاعة المرابطون" بحثاً عن أي خبر يشفي غليله، ولكن أغنية مارسيل خليفة زادته توتراً:

في الأفق عصافير معادية

في الأفق طيور سود

في الأفق دم وورعود

هل هي إشارة؟ هل هي رسالة مشفرة؟ هل هي مصادفة؟ كان راشد سارحاً في تفكيره عندما هزه علي من كتفه:

- خذ هذا المسدس ونظّفه.

- أنا لم أحمل سلاحاً في حياتي. اعترض راشد.

- والآن أنت تحمله... ما عليك سوى تنظيفه من الشحم والزيوت. علّق خالد.

بعد تنظيف الأسلحة وتجربتها والتأكد من عملها، تسلّل الشبان الأربعة من حي فرحات نحو "مكتب الجبهة العربية" ثم إلى أرض "الكلية العسكرية" المهذّمة. كان جمال وعلي يسيران في المقدمة يحمل كل منهما رشاش كلاشينكوف أخصص، يتبعهما راشد حاملاً المسدس بعد أن أرشده علي إلى طريقة استعماله، بينما سار خالد في المؤخرة يحمل قاذف البي 7. كانوا يسرعون الخطى عندما كانت أضواء قنابل الإنارة تبدأ بالخفوت، ويتوقفون عند إطلاقها أو عند الوصول إلى زقاق جديد، ليقف جمال إلى جانب الحائط مسترقاً النظر والسمع للتأكد من خلوّ الزقاق من الغزاة.

وصلت المجموعة إلى "روضة الشهيد غسان كنفاني" في طريقها نحو حرش القتيل، فسمع الشبان ضوضاء وصراخاً، فتوقّفوا قليلاً في ظل الحائط. تقدّم جمال بكل هدوء إلى زاوية الزقاق منتظراً خفوت الأضواء مسترقاً النظر، فشاهد مجموعة مسلحين يسوقون مدنيين إلى أحد الجدران وهم يضربونهم بأعقاب البنادق ويصرخون في وجوههم. تراجع جمال، واستدار إلى الزقاق الخلفي مشيراً لرفاقه أن يتبعوه. ساروا قليلاً إلى أن وصلوا إلى بيت "أم محمد"، فتسلّق جمال بوابة المنزل وقفز منها إلى سطحه، ولحقه الشبان واحداً بعد الآخر. جثوا القرفصاء على الأرض كي لا يكشفهم أحد، تقدّم جمال إلى المقدمة حاني الظهر، فوجد نفسه يُطلّ فوق رؤوس المسلحين مباشرة، ولكن

مفاجأته الكبرى كانت عندما سمعهم يتكلمون العربية، إنهم لبنانيون من شرق بيروت على الأغلب. كانوا يصرخون بوجه المدنيين الذين تعرّف إليهم، إنهم جيرانه أبناء المخيم، "يا عكا... كنتم تطلقون النار ابتهاجاً عندما استشهد البشير". تراجع جمال إلى الخلف وبصوت خافت أبلغ رفاقه بأن المسلحين هم من الكتائب، وأنهم جاءوا لينتقموا لمقتل بشير الجميل، لذلك كان على المجموعة طردهم من هنا.

تقدّمت المجموعة بكل هدوء حسب الخطة التي وضعها جمال إلى طرف السطح وهي ما زالت في وضع القرفصاء، وانتظرت خفوت الإضاءة ثانية. عندها انتصب الشبان الأربعة فأطلق خالد قذيفة البي 7 فاشتعلت عربة جيب، بينما أمطر جمال وعلي المسلحين بنار رشاشيهما، في حين كان راشد يقف على الطرف الآخر من السطح يراقب الزقاق الخلفي والمسدس في يده. شاهد الشبان أربعة مسلحين على الأقل يسقطون أرضاً فانسحبوا مباشرة بينما صوت إقلاع عربتي الجيب العنيف وهما تتطلقان بعيداً عن الزقاق يصم الأذان، تاركين العربة الثالثة تحترق. في حين كان المحتجزون يهربون بالاتجاه المعاكس.

125

صباح يوم الجمعة في 17 أيلول/سبتمبر وقف داني حداد في الشاحنة العسكرية حاملاً رشاشه كالغيتار، وهو يغني بأعلى صوته أغنية أقيس برسلي "الآن أو أبداً It's Now or Never". كان هو ورفاقه الذين يصفقون له في الشاحنة، في طريقهم من نقطة تجمع القوات اللبنانية في مطار بيروت نحو المخيمات الفلسطينية، وذلك ضمن عديد الكتيبة الثانية التي أحضرت لتنظيف المخيمات من الفلسطينيين انتقاماً

لمقتل بشير الجميل، والتي ضمّت قافلته جرافتين أعارتهما لهم القيادة الإسرائيلية إضافة إلى الشاحنات والجيبات العسكرية.

قبل يومين، ركعت روز حداد عند ركبتي ابني داني، أمسكت يديه تقبلهما محاولةً ثنيه عن الذهاب مع الشبان للانتقام للبشير ولشهداء الدامور الذين كان عمّه أحدهم. حرقت الدموع عيناها، ولكنه أصرّ على تنفيذ الوعد الذي التزم به.

- برضاي عليك لا تذهب. أنا مريضة وبحاجة أن تأخذني إلى الدكتور اليوم.

- لا تخافي يا أمي، معي مسبحة الوردية وصليب جدتي "أم ميشال" من خشب القدس بتحميني.

استيقظت مجموعة راشد باكراً على مكبرات الصوت تطلب من سكان المخيم العودة إلى منازلهم ورمي أسلحتهم أمام بيوتهم كي لا يُعاقبوا - "سلمّ تسلّم".

نظر راشد نحو رفاقه فوجدهم واجمين وهم ينصتون إلى تعليمات القوات الغازية:

- فشروا على شواريهم. علّق خالد.

- ضحك علي قائلاً: أنت الذي تتكلم وقد رميت القاذف أمس بعد

العملية؟

- ولماذا أبقيه ولم يعد لدينا أي قذائف؟

- أنت معلّم يا خالد، كانت ضربتك موفقة أمس، وعندك حق إذ لم

يعد هناك من حاجة لإبقاء القاذف معنا بدون قذائف. تدخل جمال.

- كذلك لم يبق لدينا الكثير من الذخائر لملاحقة الغزاة. أضاف خالد.

- أعتقد أن علينا أن نذهب إلى مكتب "جبهة التحرير العربية"

لنأخذ بعض السلاح. اقترح جمال.

- وهل يعطوننا سلاحاً؟ سأل علي.

- بالتأكيد سيعطوننا إذا كان لديهم سلاح.

أصاب الأرق الشبان معظم الليل، إذ كانوا قلقين من أن يكون أحد الجواسيس قد شاهدهم وتبعهم فيداهمهم الكتائبون أثناء نومهم. أما راشد فإضافة إلى الهم الأول كان متضايقاً لأنه لم يستحم أو يغير ثيابه منذ يومين. لذلك كان أول المتوجّهين صباحاً إلى الحمام الصغير ليغتسل على قدر الاستطاعة. بعد ذلك تناول الجميع ما تيسّر من طعام واتجهوا نحو مكتب "الجبهة العربية" بدون سلاحهم.

خلال اليوم الفائت استقبلت مستشفى عكا المئات من سكان المخيم الخائفين من بطش الإسرائيليين وعمالئهم، فامتألت أرواها الخمسة. ولكن الوضع تغيّر فجر اليوم عندما سمعوا أوامر الكتائب بتسليم الأسلحة والعودة إلى المنازل، عندها قرّروا ترك المستشفى واتجهوا نحو الضاحية الجنوبية بدل العودة إلى بيوتهم. أما إدارة المستشفى فعقدت اجتماعها الصباحي وقرّرت البقاء التزاماً بخدمة مرضاها الأطفال القليلين الباقين ولمعالجة أي حالات طارئة، رغم النقص الكبير في الأدوية والمعدات وتعطلّ المولد الكهربائي.

عندما وصل الشبان إلى مكتب "جبهة التحرير العربية"، كان بعض المقاتلين بثيابهم المدنية يزنون مستودع الذخائر بالديناميت. وعندما استنفهم الشبان منهم سبب ذلك، أفيدوا بأن صواريخ الغراد والكاتيوشا وقذائف المدفعية مكدّسة فيه ويخافون أن تقع في أيدي الإسرائيليين أو عملائهم. وعندما طلبوا منهم سلاحاً، اعتذروا لعدم وجود أي أسلحة أو ذخائر فردية لديهم، إذ سبق ووزّعوها على الأحزاب الوطنية، فعاد الشبان خاليي الوفاض. ما أن وصلوا إلى قرب دار عم جمال حتى وقع انفجار كبير تبعته انفجارات متتالية مصدرها مستودع أسلحة "جبهة التحرير العربية".

انطلقت جرافة من قرب المسبح الأولمبي الملحق بالمدينة الرياضية نزولاً بين كثبان الرمل لاستحداث طريق يسهل دخول مجموعة المهاجمين الجدد من الجهة الغربية للمخيمات. كان المهاجمون المدججون بالأسلحة يتقدمون وراءها والشرر يتطاير من عيونهم بعد أن ألقى فيهم "الكابتن" خطبة تحريضية أثارت غرائزهم ضد الفلسطينيين. أخرجوا رجلاً وزوجته من بيتهما المتواضع، ورغم صراخ ونواح زوجته الحامل قطعوا رأس الرجل بالبلطة ثم قطعوا يده ورموها في وجه زوجته التي وقعت مغشياً عليها، ولم يكتفوا بذلك بل تقدم طانيوس مستلاً حرباً بندقيته وبقر بها بطن الحامل مخرجاً الجنين معلقاً بالحربة وهو يقطر دماً وسط ضحك زملائه ورماه بعيداً. انتقلوا إلى البيت الذي يليه وطرق "الحاج توما" بابه بكعب رشاشه صارخاً على سكانه أن يخرجوا رافعين أيديهم في الهواء. أخرج زجاجة ويسكي من جيبه وشرب منها ثم أعطاها إلى داني. عندما لم يفتح أحد الباب رفسه بقدمه فانفتح على مصراعيه، تناول قنبلة يدوية من طانيوس وسحب حلقة أمنها ورمها داخل البيت. بعد انفجارها اقتحم "الحاج توما" وطانيوس ووراءهما "الكابتن" البيت وهم يطلقون النار، فوجدوا امرأة مرمية على الأرض والدماء تنزف من رأسها حاضنة طفلها الذي لا زال يرضع من صدرها، بينما طفلها الآخر ملقى على الأرض مصاباً بشظية في صدره، وقد وقف زوجها يرتجف رافعاً يديه في الهواء.

"ماذا لم تفتح الباب لنا يا كلب؟" صرخ "الحاج توما" بوجهه وأطلق عليه الرصاص، بينما تناول طانيوس الطفل من يديه وشرع يدور به على نفسه وكأنه يؤدي طقساً شيطانياً وقد فتح عينين كالجمرتين بينما أسرع من وتيرة دورانه وكان مسأً أصابه، إلى أن زفر زفرة وحشية وترك الطفل ليطير في الهواء ويصطدم بالحائط الذي علق عليه صليب وصورتي السيد المسيح ويأسر عرفات تاركاً عليه بقعة دم، وليسقط الطفل على الأرض جثة هامدة من دون أن يصدر عنه أي

صوت، فصرخ طانيوس عندها لاهثاً: حتى ما يصير إرهابي عندما يكبر، بس ضيعان أمه، صدرها حلو، كنا دبرناها لو لم ترم القنبلة عليها. انتقلوا إلى البيت الثالث، وما أن صرخ "الحاج توما" بساكنيه أن يخرجوا، حتى ظهر رجل يبلغ الخمسين من العمر تلحقه امرأة وفتاة ثم ثلاث شبان لا يتجاوز أكبرهم الخمسة والعشرين عاماً. تناول طانيوس جرعة كبيرة من زجاجة الويسكي وزرع فيهم:

"يا عرصات كنتم تطلقون النار ابتهاجاً لاستشهاد البشير، قفوا هناك إلى جانب حائط البيت، لكن أنتي يا حلوة قفي هنا إلى جانبي، يلا يا شباب، رشوهم".

انطلق الرصاص من أربعة رشاشات فسقطت العائلة مضرجة بدمائها بينما الفتاة تولول باكياً. تناول "الحاج توما" زجاجة الويسكي مجدداً وأخذ جرعة كبيرة منها ثم قدمها إلى الفتاة المنتحبة التي أشاحت برأسها فصفعها على وجهها صفعاً أوقعها أرضاً، فقبض على جديدة شعرها وسحبها إلى داخل البيت وهي تولول وتلطم وجهها.

عندما انتهت الجرافة من فتح الطريق الجديد عادت أدراجها وشرع سائقها يجرف الجثث عن الأرض ليرميها في حفرة سبق وحفرها. بعد أن اغتصب "الحاج توما" الفتاة وتناوب عليها "الكابتن" وطانيوس وبطرس وجريس وميشال والباس والحاج نقولا، حان دور داني الذي نفر وتقياً تقزراً وقرفاً من تصرفات رفاقه الحيوانية وسط استهزائهم به لأنه لا زال ولداً. لم يتحمل داني الموقف فانهدر شرقاً نحو طريق الحي الغربي وهو يدخن سيجارة.

بعد انتهاء انفجارات مستودع ذخائر "الجبهة العربية" التي استمرت حوالي العشر دقائق، وصل راشد وعلي إلى محيط الحي الغربي برفقة جمال، الذي أصرّ أن يوصلهما حتى لا يتوها في حوارٍ المخيم وهما في طريقهما نحو منطقة الفاكهاني، بينما عاد خالد إلى منزله. رغم حرص جمال على سلوك الزواريب بدل الطرقات، فإنه اضطرّ أخيراً

إلى الخروج إلى طريق الحي الغربي حيث فوجئ الثلاثة بوجود مسلح كتابي. عندما حاولوا الرجوع من حيث أتوا صرخ فيهم المسلح ووجه رشاشه نحوهم، فتقدّموا نحوه.

حملك راشد في المقاتل الكتابي، فتبين له أنه داني ابن بنت جارتهم "أم ميشال". وبدوره تعرّف داني إلى راشد وجمال ابن الناطور، فامتقع وجهه وتلعثم وهو ينظر إلى الخلف نحو رفاقه هامساً: يا شباب، امشوا من هنا، اذهبوا إلى فوق، إلى صبرا، هنا خطر عليكم، اذهبوا الآن بسرعة. انفصل جمال بسرعة عن راشد وعلي وعاد أدراجه إلى دار عمه بعد أن طلب من راشد وعلي طمأنة أهله عليه، بينما واصل الشابان طريقهما على عجل باتجاه الشمال.

في هذه الأثناء كانت المجموعة الأولى التي دخلت المخيمات تقتحم مستشفى عكا. كان طوني في الطليعة يلوح ببندقية M16 صارخاً بعصية: وين العكا...؟ وين العكا...؟ تصدّت له الممرضة الفرنسية "إريكا" وسألته بالفرنسية: ماذا تريدون؟ وعندما لم يفهم سؤالها، سألته بلغتها العربية الركيكة: من أنتم؟ فأجابها بالإنكليزية: Phalangists كتائب. وعندما سألته مجدداً ماذا يريدون، أجابها أنهم يبحثون عن المخربين. صعّدوا إلى جميع الأدوار في المستشفى وفتحوا جميع الأبواب وصفقوها وراءهم بشدة بحثاً عن المخربين، ولكنهم لم يجدوا أحداً.

كان معظم أفراد الجسم الطبي في المستشفى متطوعات للخدمة من فرنسا وبريطانيا والنرويج وفنلندا وأستراليا حضرن لخدمة اللاجئين الفلسطينيين عبر منظمات إنسانية عالمية. لذلك ما أن وصلت الإشارات حول ما يجري في المخيمات إلى مسامع سفارة النرويج، حتى أرسل السفير سكرتيره الأول ليجلب الطبيبتين النرويجيتين العاملتين في مستشفى عكا، "آن سوي" و"أستريد". ولكنهما أصرتا على السكرتير الأول أن يأخذوا معهم أربعة أطفال معاقين من المستشفى إلى إحدى

مستشفيات بيروت الغربية. وتحت إباحهما وافق طوني على ذلك. انطلقت سيارة السفارة النروجية صعوداً من مستشفى عكا باتجاه السفارة الكويتية، حيث فوجئت "آن" و"أستريد" بوجود شاحنات عسكرية متوقفة إلى جانب الشارع محملة بمدنيين فلسطينيين يحرسهم مسلحون.

عندما اطمأن طوني إلى مغادرة سيارة السفارة النروجية، أمر جميع أطباء وممرضات المستشفى بالوقوف خارجاً في طابورين، أحدهما للبنانيين وللفلسطينيين والآخر للأجانب. في هذه الأثناء، أمسك شريل الممرضة الفلسطينية انتصار من شعرها محاولاً جرّها نحو ملجأ المستشفى. صرخت انتصار في وجهه وضربته بقبضتها ورفسته بقدميها بينما كانت تصرخ: اتركني يا كلب يا ابن الكلب. إنتصر طانيوس لرفيقه وضربها بقبضته على عينيها، فانهارت أرضاً. حملها المسلحان إلى الملجأ وهي تننُّ من الألم. عندما وصلا إلى الملجأ طرحاها أرضاً، فرفعت يديها ترجوها أن يطلقا النار عليها، ولكن طانيوس أجابها ضاحكاً وهو يخلع سرواله: بعد بكير يا حلو.

أقتيد طابور الفلسطينيين واللبنانيين الذي يضم طبيبين وثلاثة مسعفين وإدارياً وطباخاً وحارساً إلى زقاق في بداية شارع شاتيلا الرئيسي، وأبقي مسلح واحد لحراسة الأجانب الذين سُمح لهم بالجلوس في الظل خارج المستشفى والتدخين. وعندما سألوا طوني إلى أين يأخذون الطاقم الطبي المحلي، أجابهم: إلى التحقيق.

سخر المسلحون من طاقم المستشفى المحلي الذي يلبس "الروب الأبيض"، وجعلوا ينعثوهم بأوصاف بذينة مختلفة. ثم أمرهم بالرقص رقصة السعادين وهم رافعي الأيدي. شرع المسلحون يصفقون ولكن أحداً من الأسرى لم يتحرك. فخرطش لويس رشاشه وأطلق رشقاً في الهواء. شرع الأسرى السبع يرقصون ما عدا الدكتور سامي، الذي رفض الرقص بحجة أنه لا يعرف كيف يرقص السعادين، فأطلق لويس النار قرب قدميه إرهاباً وصرخ:

- تحرك يا عكر...
 - والله ما بعرف أرقص.
 - عليك أن ترقص مثل السعدان.
 - أنا لا أعرف أن أرقص.
 - فإذا سأعلمك كيف ترقص... وشرع يطلق الرصاص قرب قدمي الدكتور الذي صار يقفز في الهواء خوفاً وتجنباً من إصابته: شفت كيف علمتك الرقص. ابتهج المسلحون المتجمعون حولهم بهذا العرض وجعلوا يصفقون جزلاً وهم يضحكون.
- عندما انتهى طانيوس وشربل من اغتصاب انتصار، أطلق شربل النار على رأسها، فخرج نخاعها من الفجوة التي أحدثها الطلق الناري وتطايرت أجزاء منه على الحائط والأرض. صعدا إلى مدخل المستشفى فيما كانت الممرضات الأجنبية يعدن إليها، فسألته "إريكا" بلغتها العربية الركيكة عن انتصار، فاحمرّ وجهه وتلعثم، ولكنه عاد وتمالك نفسه وصرخ في وجهها:
- أريد أن أعرف ماذا تفعلون أنتم في المخيمات الفلسطينية؟ لا بد أنكم شيوعيون، أو من جماعة بادر-ماينهوف الإرهابية.
- لمعلوماتك، إننا ممرضات مسيحيات وننتمي إلى منظمات إنسانية عالمية.
- خرج طانيوس وشربل من المستشفى للقاء بقية مجموعتهما في أول شارع شاتيللا من دون أن يسمعا ردّ "إريكا"، حيث وجدوهم وقد أجهزوا على طاقم المستشفى كله، الذين كانوا يسبحون بدمائهم على الأرض، في حين وقف المسلحون خلف الجثث وقد أمسك لويس برأس الدكتور سامي بينما حمل جان الكاميرا ليأخذ لهم صورة تذكارية.
- على جبهة الحي الغربي، أخرج سكان البيوت عنوة من بيوتهم، وسيقوا تحت تهديد السلاح إلى محيط المدينة الرياضية. ساروا بهم من

مدخل شارع شاتيلا صعوداً في شارع السفارة الكويتية تحت شمس حارقة يدفعونهم ببنادقهم ويرفسونهم بجزمهم العسكرية ليسيروا فوق الجثث المنتشرة على الطريق. عند وصولهم إلى المدينة الرياضية، كانت المنطقة مزدحمة بالمشحيين والأسرى بينما كان الإسرائيليون يقفون على الطرف الآخر من الشارع يراقبون ما يحدث. كانت هناك حفرة كبيرة نتيجة لسقوط قذيفة فيها وقد حُسر فيها مجموعة من الشبان، فيما كانت شاحنة كبيرة مليئة بالرمال تتحرك لتفريغ حمولتها فوقهم لدفنهم أحياء، وهم يستجرون طالبين النجدة، ولكن ما من مغيث. كانت مجموعة الشبان هذه تشكل الطبقة الثانية التي ستدفن في حفرة الموت هذه، فوق مجموعة أولى سبقتها، وقد برزت أقدام وأيدي بعضها بينما تحوّلت الرمال إلى طين مجبول بالدماء فاحت منه رائحة مفرزة. إنها رائحة الموت.

إثر شيوع الأخبار في المخيمات بأن القوات الإسرائيلية والكتائبية قد اقتحمتها، وقعت عملية هروب كبيرة منها وخاصة من مخيم صبرا نحو غرب بيروت. حتى أن مجموعة من النسوة التقلقات على عائلاتهن سرن في مظاهرة عفوية صغيرة في الطريق الجديدة رغم منع التجول الذي فرضه الإسرائيليون وهن يولولن ويلطمن الوجوه وبصرخن بأن الكتائبيين يقتلون الناس في المخيمات. بعد محاورتهن ومعرفة أسباب تظاهرن، توجّهت مجموعة من الصحافيين الأجانب للتأكد من روايتهن، ولكن القوات الإسرائيلية منعتهم بشدة من الدخول إلى المخيمات.

126

بالأمس حضّرت "أم جمعة" الخبز لعائلتها عبر قلبي بعض العجين بالزيت لتسد جوع الأفواه العشرة في بيتها. أما اليوم، فلا بد من جلب بعض الخبز ولو اضطرت للذهاب إلى الغيبري أو الشياح. خرجت

"أم جمعة" من بيتها في زاروب الديك في منطقة صبرا حوالى الساعة السادسة صباحاً باحثة عن الخبز لأولادها وأطفال ابنها الذين لجأوا إلى بيتها هرباً من مخيم شاتيلا.

ما أن خطت خارج الزقاق نحو الطريق ونظرت يميناً، حتى فوجئت بمشاهدة مجموعة مسلحة تجرّ شاباً نحو عربة جيب عسكرية، ولاحظت إلى جانب الطريق جتتين مرميتين، كما استغربت وجود العديد من قطع السلاح مرمية على قارعة الطريق أيضاً. تراجعت إلى الوراء وأسندت ظهرها إلى الحائط الذي كتب عليه "ثورة حتى النصر" محاولةً استيعاب ما يجري. اشرأبت برأسها ثانية في محاولةً للتأكد مما يجري، فرأت أحد المسلحين يضرب رقبة الشاب المطروح أرضاً بالبلطة. لظمت وجهها بكفيها من تأثرها وشعرت بما يشبه التيار الكهربائي يسري من قمة رأسها إلى أسفل قدميها، ارتجف له شعرها وأذنيها وقفزت شرارته إلى حدائنها الذي نهب الطريق نحو درج البيت نهباً. ما أن وصلت إلى مطلع الدرج، حتى انتكأت على درابزينه مستعيدة ما مرّ في رأسها من أهوال، مكلّمة نفسها بصوت عالٍ: ترى هل هم إسرائيليون أم كتائبون؟ هل سيقتلون ابني كذلك؟ هل سيقتلون الأولاد أيضاً؟ ولكن ماذا سأطعم الأولاد اليوم؟ لا، لن أدع الأولاد يموتون وهم جياع. استمرّت بضرب خديها براحتيها وهي تصعد السلم الحجري القديم والأفكار تتلاطم في رأسها. فتحت الباب بمفتاحها الأسود الطويل وأغلقتة بهدوء كي لا تزعج أحداً من النائمين. وقفت في مدخل البيت تنظر إلى نفسها في المرآة العتيقة التي اشتراها زوجها قبل سنتين من الأوزاعي بليرتين، وكأنها تحاول الحصول منها على نصيحة لتتصرف.

قطع تفكيرها دوي صوت مذياع في درج البناء ينادي على السكان بالخروج مع أسلحتهم والتجمع في ساحة صبرا. خرج ابنها جمعة من الغرفة حافياً سائلاً ماذا يجري. فسحبته أمه إلى المطبخ كي لا تزعج

الأولاد والأطفال، وشرعت تشرح له ما شاهده، بينما كانت تضع العدس في طنجرة الماء لتحضير الطعام للأولاد.

- ليس الآن وقت الطبخ والأكل، علينا أن نوقظ الأولاد ونخرج إليهم، وإلا صعد الإسرائيليون إلينا وقتلونا.

- لا أعتقد أنهم إسرائيليون. إنهم لبنانيون. إنهم كتائب. لقد عرفتهم من لهجتهم. ثم إن الإسرائيليين لا يقتلون بالبلطة.

- المهم أن ننزل لعندهم قبل أن يصعدوا إلينا معتقدين أننا نختبئ عنهم فيقتلونا.

- المهم هل تخأصت من سلاحك؟

- نعم، منذ الأسبوع الماضي.

عندما عاد راشد إلى منزله في منطقة المصيطبة عصر أمس، كان منهكاً وفي وضع نفسي متأزم ولكنه عرج على بيت جمال ليُطمئن أهله. ثم عانق عائلته وحيّاهم تحية سريعة ودخل الحمام مباشرة. مكث تحت الماء الحارة أكثر من ساعتين محاولاً محو ذكرياته السيئة في مخيم شاتيلا. هل كان بمقدوره فعلاً أن يقتل أحداً لو تمت مهاجمته؟ أصدقاؤه الثلاثة أكدوا له ضرورة ذلك عند الحاجة، وإلا أصبح هو الهدف، لذلك كان عليه استخدام مسدسه للدفاع عن نفسه وعن مبادئه أمام المعتدين، رغم أنه لم يكن مستعداً للقتل. تذكّر الشيخ داوود الذي أتى به والده ليلقنه وأخّسّيه مبادئ الدين الإسلامي في البيت وهم صغاراً، وكيف علمهم أن الحياة هي عطية من الله، هو الذي يعطيها وهو الذي يأخذها، فكيف يمكنه هو أن يأخذ نعمة الحياة من إنسان حي؟ إنه يكره الحروب والعنف، إنها بربرية تحكمها شريعة الغاب. ثم ماذا لو لم يكن الكتائبى الذي اعترضهم هو صديقه داني ابن بنت "أم ميشال"؟ لربما كان اعتقالهم أو حتى قتلهم كي لا يبلغوا أحداً برويتهم لقوات الكتائب في المخيم. ترى لماذا لا يستطيع البشر العيش بسلام مع بعضهم؟ لماذا يسيطر الشر

والحقد والطمع عليهم، فيقتل الأخ أخاه، والجار جاره؟ كثير من الأسئلة والاستفهامات كانت تتلاطم كالأمواج الثائرة في رأس راشد، من غير أن يتمكن من الإجابة عن أي منها.

أما الآن وبعد ليلة صاخبة تصارع فيها الأرق والنعاس على جبهة عيني راشد، فقد وصلت إلى أنفه رائحة القهوة الشهية التي لم يذوق طعمها اللذيذ طوال يومين. نهض متتبعا رائحتها ليجد والديه بانتظاره وكنار العزيزة رنا يستقبله بمعزوفة خاصة. أخبر والده برويته لقات الكتائب في المخيم، ولكنه أخفى عنه بالطبع نشاطه الحربي هو وأصدقائه ضد المسلحين، خاصة بوجود أمه في الجوار. فأشار عليه والده بضرورة إبلاغ ذلك إلى مركز شرطة الطريق الجديدة الأقرب إلى المخيم.

خرج راشد ليقابل أصدقاءه وجيرانه في مقهى "أبو عفيف" وليحاول إقناع أحدهم بالذهاب معه إلى مركز الشرطة. من البعيد وجدهم واجمين وكأنهم يستمعون إلى خبر عاجل على الراديو، ولكن ما أن اقترب منهم وتبينوه حتى وقفوا جميعاً مهللين لملاقاته.

خرق "رويتزر" أجواء اللقاء السعيدة كالعادة بآخراً أخباره: إنها كارثة حقيقية، إنها مؤامرة دولية مبيتة.

- خير إن شاء الله، شو آخر الأخبار. سأل راشد.

- تقول إذاعة الـ بي بي سي في خير عاجل بأن مراسلها في بيروت أبلغها بحصول مجزرة في مخيمي صبرا وشاتيلا ذهب ضحيتها المئات من المدنيين العزل.

- ولكني كنت هناك بالأمس ولم أشاهد أي قتلى أو جثث. صحيح أن مسلحي الكتائب كانوا يسرحون ويمرحون هناك وهم يطلقون النار، ولكني لم أرَ أية جثث أو قتلى.

- لقد ذهب "أبو جمال" منذ الصباح إلى المخيم ليتفقد ابنه جمال وعائلة أخيه هناك.

اقتحمت مجموعة كتابية يبلغ عددها العشرين مسلحاً بينهم فتاة مستشفى غزة الواقع في منطقة صبرا، بينما كان الأطباء والمرضات يقومون بجولتهم الصباحية على المرضى، الذين لم يبقَ منهم سوى اثنين وثلاثين، إضافة إلى ستة في حال سيئة جداً في قسم العناية المركزة. فبعد أن كان المستشفى يعجّ بالمرضى والملتجئين إليه يومي الخميس والجمعة، وبعد أن انتشرت الإشاعات حول اقتحام المسلحين لمخيم شاتيلا، هرب الناس منه مساء أمس مع أقاربهم المرضى خوفاً من دخول المسلحين إليه كما حصل في مستشفى عكا، الذي أخبرتهم الطيبة النروجية "آن سوي" تفاصيله. فبعد أن اطمأنت بالأمس إلى استقرار وضع الأطفال الأربعة الذين نقلتهم من مستشفى عكا إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، حتى طلبت الطيبة من السفير النروجي إعادتها إلى مستشفى غزة على مسؤوليتها الشخصية، حيث يجب أن تكون للقيام بواجبها. كانت هناك حاجة ماسة للأطباء بالفعل نتيجة الإصابات العديدة التي استقبلها المستشفى. لذلك، عندما حاول السكرتير الأول في السفارة النروجية إقناع الرعايا النروجيين الآخرين وغيرهم من الأجانب في مستشفى غزة بالعودة معه إلى شرق بيروت، فإنهم رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً مؤكداً أنهم سيبقون للقيام بواجبهم الإنساني والمهني.

تزامن وصول الدكتورة "آن سوي" إلى مستشفى غزة مع وصول الفتى منير مصاباً بأعيرة نارية في ذراعه ويديه وقدمه. لم يكن منير سوى ذلك الصبي الذي نجا من جدار الموت الذي حصد الرجال الملتجئين إلى ملجأ "أبو ياسر" في حرش القتل يوم أمس الأول. ثم توالى وصول الإصابات، مما استدعى طلب الأطباء من الممرض خليل أن لا يترك المستشفى وذلك لمساعدتهم ومساعدة مواطنيه الذين كانوا بأمرّ الحاجة إلى خدمات المستشفى.

بعد أن فتش المسلحون المستشفى بحثاً عن المخربين، أمروا الأطباء والمرضى بالخروج منه. وعندما سألت الطبيبة "آن سوي" عن سبب هذا التدبير، أجابها "الكابتن": "للتحقيق. سار اثنان وعشرون فرداً من الجسم الطبي في مستشفى غزة يلبسون معاطفهم البيضاء تحت حراسة مسلحي الكتائب، بعد أن وافقوا على ترك اثنين منهم في المستشفى للاهتمام بالجرحى والمرضى فيه. ساروا من مستشفى غزة عبر شارع "أبو حسن سلامة" حتى نهاية شارع شاتيل، ثم صعوداً باتجاه السفارة الكويتية. كان الخراب كبيراً على الجانبين، بيوت محروقة وأخرى تم تفجيرها، وثلاث جثث تفوح رائحتها الكريهة مرمية على الطريق وقد احتشدت عليها جحافل الذباب، بينما كانت جرافتان كبيرتان تقومان بهدم البيوت على جانبي الطريق ثم تجمعان الأنقاض في أكوام كبيرة. بدت الطرقات الآن أكثر اتساعاً بسبب جرف البيوت عن جانبيها حيث كانت جدرانها الضعيفة تتهاوى بسرعة على الأثاث والستائر وصور أصحاب البيوت وأحبائهم. كان هناك الكثيرون من سكان المخيم يجلسون على الأرض بحراسة المسلحين. فجأة قفزت امرأة تحمل طفلة من بين النسوة الجالسات على قارعة الطريق، واتجهت نحو "ألين سيغل" طبيبة التوليد، أعطتها طفلتها طالبة منها أن تأخذها معها وتحافظ عليها. دهشت الطبيبة من تصرف المرأة، ولكن ما أن حاولت الاستفهام عما يجري، حتى انتزع أحد المسلحين الطفلة من بين يديها ورمأها إلى أمها التي ساقها أمامه إلى حيث لا تدري وهي تجesh بالبكاء. استمر الموكب في سيره، ولكن قبل وصول أفراد الجسم الطبي إلى نهاية شارع شاتيل، اقتحم موكبهم مسلح ضخم الجثة ذو ذقن كبيرة وأمسك الممرض خليل من عنقه ونهره مستفهماً عن جنسيته، وعندما أجابه بأنه فلسطيني، قال له: تفضل. سار المسلح بخليل نحو زقاق ضيق مجاور، وبعد خمس ثوان سمع طلق ناري وحيد وعاد المسلح الضخم منفرداً لينضم إلى مجموعته.

تعمّدت "أم جمعة" أن تتأخر بالنزول من بيتها تلبية لتعليمات المسلحين أملة أن يتركوها وشأنها أو ينسوها. ولكن أملها خاب، إذ بينما كانت تتناول طعام الإفطار مع عائلتها وعائلة ابنها، طُرق الباب بقوة وظهر مسلحين على الباب، صرخ أحدهم: شو إنتو عائلة طرشان، ألم تسمعوا الأمر بالنزول إلى الشارع مع سلاحكم؟ اقتحم المنزل يتبعه اثنان من رفاقه. وقفت "أم جمعة" وحولها أولادها وأولاد ابنها في مدخل المنزل يرتجفون خوفاً وهم يراقبون المسلحين يعبثون خراباً بالبيت المتواضع. كل قطعة وكل ركن فيه حلمت به أسابيع وأشهرأ وحرمت عائلتها من الطعام في بعض الأحيان قبل أن تتمكن من شرائه، رغم تواضعه، وما هي تراه يتحطم ويتبعثر أمام ناظريها من دون أن تتمكن من فعل أي شيء. عندما انتهى المسلحون من تفتيش البيت ولم يكتشفوا شيئاً، أمرهم بالنزول أمامهم تاركين أطباق العدس على الطاولة.

تمّ تجميع السكان في ساحة صبرا وقرب مركز الهلال الأحمر الفلسطيني. أجلسوهم على الأرض تحت الحراسة بينما كانوا يجلبون المزيد من العائلات. جلست "أم جمعة" إلى جانب جاريتها سعدية التي تركت صبرا مساء الأمس مع عائلتها إلى منطقة الطريق الجديدة، ولكنها نسيت كيس النايلون الذي وضعت فيه بطاقات هوية أفراد العائلة، فعادت لتأتي بها هذا الصباح، فأوقفها المسلحون وأتوا بها إلى هنا. أما "أم جمعة" فكانت حزينة لأنها لم تستطع أن تأتي بالخبز لأفراد عائلتها بالدرجة الأولى، ثم لأنهم لم ينفوا تناول العدس بالمعلقة بسبب اقتحام المسلحين لبيبتها. من جهته كان ابنها جمعة يعاني من جاره اللبناني فوزي الذي جلس بقربه، فعندما جامله جمعة وقدم له سيجارة مارلبورو، رفضها، رغم أن دخانه أجنبي ودخان فوزي وطني. وعندما حاول جمعة التودد إليه والحديث معه صدّه قائلاً: يا أخي اتركني بحالي، إذا كلمتني سيعتقد الكتائب أنني فلسطيني، لذلك أرجوك اتركني بحالي. وانتقل ليجلس في مكان آخر.

أمرت النساء والأطفال بالوقوف في طابور مستقل عن الرجال، ثم بالسير في طريق شاتيلا الرئيسي، وقد أحاط المسلحون بالجميع من الجهتين. بعد أن مروا "بمقهى همدر" بدأوا برؤية الجثث المرمية في الأزقة إلى اليسار واليمين، بينما كانت الجرافات لا تزال تعمل على هدم البيوت.

في هذا الوقت استطاع أربعة صحفيين فرنسيين التسلل إلى المخيمات عبر محطة الدنا فمستشفى غزة، من هناك ساقتهم روائح الموت إلى أفزع ما رأته عيونهم طوال سني حياتهم.

سيق طاقم المستشفى الطبي إلى ساحة خلف مبنى الأمم المتحدة حيث تمّ التحقق من جوازات سفرهم، ثم جرى استجوابهم بغية معرفة لماذا يعملون مع الفلسطينيين ويساعدونهم. فكانت إجابات الطاقم الذي تمّ استجواب أعضائه كل على انفراد، بأن "مجلس كنائس الشرق الأوسط" قد أرسلهم في مهمتهم الإنسانية، وأنهم متطوعون لا يتناولون رواتب مقابل خدماتهم هذه. وعندما سألوهم لماذا لم يتم إرسالهم للعمل في مستوصفات "الأم تريزا" في شرق بيروت مثلاً، أجابوهم، لماذا لا تسألون القيمين على "مجلس الكنائس". بعد الانتهاء من استجوابهم، جرى نقلهم إلى مقر القيادة الإسرائيلية المجاور، حيث جرى توزيع علب كرتونية عليهم تحتوي كل منها زجاجة ماء وطعام وفاكهة، ثم شاركوا الإسرائيليين في الاحتفال بعيد رأس السنة العبرية "روش هشاناه". جلست الطبيبة "آن سوي" إلى جانب أحد الضباط الإسرائيليين تتناول طعامها، وأخبرته بمخاوفها تجاه الفلسطينيين الذين تمّ تجميعهم في شارع شاتيلا العام. استأذن الضابط الإسرائيلي منها وانسحب من الغرفة. بعد ذلك نقلهم الإسرائيليون إلى السفارة الأميركية على كورنيش البحر في رأس بيروت.

عند وصولهم إلى نهاية الطريق قرب تمثال "أبو حسن سلامة" أمر سكان صبرا بالتوقف إلى جانب الطريق. تقدّم مسلح يحمل ميكروفوناً

وأمر النساء بالهتاف "تعيش الكتائب"، وعندما لم يتجاوب أحد معه، أطلق رفيقه النار فوق رؤوسهن، وعاد المسلح يذيع "قولوا تعيش الكتائب" فصدت أصوات منخفضة من الجمع تشبه "تعيش الكتائب". الآن قولوا - يسقط "أبو عمار". لم يستجب أحد لطلبه، فحشد رفيقه ثانية لنصرته وأطلق الرصاص ثانية فوق رؤوس النسوة، اللواتي همسن: يسقط "أبو عمار". قطع مهرجان الهتافات تقدّم عربتي جيب عليهما مدفعا دوشكا، وقد أدارتا فوهتهما نحو الجمع المنتظر. نظرت "أم جمعة" إلى ابنها وزوجته وأحفادها ورفعت سبابتها اليمنى لتلاوة الشهادة، كذلك فعل كل من حولها. فجأة توقفت سيارة عسكرية سوداء اللون والزجاج ونزل منها عسكري كتائبي رفيع الرتبة يلحقه الضابط الإسرائيلي الذي كان يتحدث إلى الطبيبة "آن سوي". أسرع "الكابتن" نحو المسؤول وأدى له التحية ثم تهامسا، بينما كان الضابط الإسرائيلي يحرك سبابته يمينا ويساراً. بعد انصراف سيارة المسؤولين تراجعَت الجرافتان وسيارتا الدوشكا وأمر الرجال والنساء بالانتظام في الطابورين من جديد.

طوال هذا الوقت لم يتوقف المسلحون عن سحب الشبان من بين عائلاتهم المستنكرة بحجة التحقيق معهم، حيث كانوا يوضعون في ساحات كبيرة تقلّهم إلى أمكنة مجهولة. من جديد أمر النساء والرجال تشكيل طابورين والسير صعوداً في شارع السفارة الكويتية. عند وصولهم إلى محيط المدينة الرياضية، أذاع ضابط إسرائيلي عبر مكبر الصوت أن على الجميع الدخول إلى ملعب كرة القدم، ولكن المسلحين الكتائبين أصرّوا عليهم العبور عبر الأرض التي تفصل ملعب كرة القدم عن حوض السباحة الأولمبي. ما أن داست أقدام المجموعة الأولى الأرض حتى انفجرت الألغام المزروعة فيها فسقط ستة قتلى وستة جرحى وساد هرج ومرج، فحضرت قوة عسكرية إسرائيلية مباشرة إلى الموقع فيما هرب الكثير من المعتقلين شمالاً باتجاه حي الفاكاهاني.

عند المساء وقبل عرضها لمشاهد مجزرة صبرا وشاتيلا خلال نشراتها الإخبارية، حدّرت محطات التلفزة الأميركية والأوروبية مشاهدتها بأن مشاهد الأعمال الحربية التي ستعرضها من بيروت فظيعة ومؤذية للشعور الإنساني. إثر ذلك علّق الرئيس الفرنسي ميتران بأن "ما جرى كان جريمة فظيعة". بدوره الرئيس الأميركي ريغان أصدر بياناً عنيفاً يلوم فيه الإسرائيليين على السماح بوقوع المجزرة، كما استدعى سفير إسرائيل في واشنطن وأذره بضرورة سحب قوات بلاده من بيروت.

ليلاً وبعد انسحاب القوات الكتائبية والإسرائيلية من المخيمات دخلتها قوات الجيش اللبناني النظامي ولكن متأخرة جداً.

127

ما أن علم رفيق الحريري بأخبار المجزرة وشاهد نتائجها المريعة على الفضائيات العالمية، حتى اتصل من الرياض بالفضل شلق رجله الأول في بيروت طالباً منه المساعدة على التخفيف من وطأة الفاجعة بجميع الوسائل المتاحة. التقرير الأولي الذي وصل إلى شلق أفاد بأن هناك خطراً من انتشار الأوبئة كالطاعون والتيفوئيد والكوليرا بسبب بقاء الجثث مطروحة في الطرقات منذ أربعة أيام تحت أشعة الشمس المحرقة، والتي بدأت بالتعفن وظهرت الديدان فيها مما يندّر بأخطار صحية محدقة. استناداً إلى هذه المعطيات، استنفر شلق ما تيسر من متطوعيه وأحضر المبيدات المناسبة وأجهزة الرش لتنفيذ عملية تطهير المخيمات.

بناءً على اتصال مسائي من مسؤول العمليات في "مشروع تنظيف بيروت" بضرورة حضوره، انطلق راشد هذا الصباح على دراجته

الهوائية باتجاه ملعب بيروت البلدي سالكاً طرقات منطقة المصيطبة الداخلية حيث راعه الانتشار الكثيف للأليات الإسرائيلية في كل مكان. عند مكاتب "الاتحاد الاشتراكي العربي"، ثم في مكاتب مجلة "الهدف"، وصولاً إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية في كورنيش المزرعة، كانت الشوارع ونواصيها معقودة للدبابات الإسرائيلية. كان الكورنيش شبه مقفر من الناس وحركة السيارات، على عكس الأحياء الداخلية التي كانت تعجّ بالحركة. ولكنه كان كلما تقدّم بدراجته نحو منطقة مسجد عبد الناصر كان الوجود العسكري الإسرائيلي يزداد كثافة. دبابات ومصفحات وآليات إسرائيلية مختلفة على جانبي الكورنيش، وقد انتشر الجنود فوقها وحولها. بعضهم على سلاحه يتولى الحراسة والمراقبة، والبعض الآخر يقرأ المجلات أو التوراة أو ينام على الرصيف رغم أن وضع الأبنية في المنطقة يُظهر أنها منكوبة بعد المعارك التي وقعت في محيطها بالأمس، حيث دُمرت أجزاء من مبني الجزيرة والهلال الأحمر اللبناني. عند وصوله إلى مبنى مجلة الحوادث لفته سبعة شبان باللباس المدني يجلسون على الأرض في مدخله، وقد رُبّطت أيديهم خلف ظهورهم برباطات الكهرباء البلاستيكية، ووقف جندي إسرائيلي لم يبلغ العشرين من العمر يحرسهم.

- لقد اعتقلونا لأننا مخربين كما يقولون. قال أحد الشبان لراشد قبل أن يسكته الجندي الشاب. أحسّ راشد بغصة في صدره لهذا المشهد وانقبض قلبه خاصة عندما نهره الجندي قائلاً: "روح من هون".

الصدمة الكبرى كانت لدى رؤيته لمسجد جمال عبد الناصر الذي تحطّم جزء منه واحترق جزء آخر بينما جلس بعض الغزاة في مدخله وقد أحاطت دباباتهم به. لم تكن حال محيط المسجد أحسن منه، فقد احترقت بناية شهريار المواجهة له، وعلى مدى النظر حتى تقاطع البربير وفي الشوارع المتفرعة كان معظم الأبنية مصاباً بالفدائف

الدمرة أو الحارقة، حيث احترق مطعم "أبو خضر" و"أبو نواس" وملحمة "أبو أحمد الإروادي"، إضافة إلى وقوع مجزرة سيارات حقيقية حيث دُمّرت أكثر من ستين سيارة كان نصيبها الحريق أو التفجير أو السحق تحت جنازير الدبابات الإسرائيلية. كانت أرض الكورنيش مليئة بالحجارة والقطع المعدنية الناجمة عن المعركة الشرسة التي وقعت في منطقة أبو شاعر لاحتلال مسجد جمال عبد الناصر ولإسكات إذاعة "صوت لبنان العربي" الناطقة باسم "حركة الناصريين المستقلين - المرابطون"، لرفض قيادتها ومقاتليها المهادنة أو الاستسلام للإسرائيليين فقاتلوه، كما استمرّت إذاعتهم في بثّها حتى "الرمق الأخير" حين كانت آخر عبارة تفوهت بها المذيعة الصامدة: "إنهم هنا..." وسكنت. سقط للمرابطون في هذه المعركة سبعة شهداء واثنان وعشرون جريحاً.

اضطر راشد للمرور بدراجته بجانب الجنود الإسرائيليين المنهمكين بتحميل تجهيزات الإذاعة في شاحناتهم وذلك لتفادي بقايا الحطام على أرض الشارع حرصاً على عجلات دراجته من الانقلاب، حيث ناداه جندي إسرائيلي يضع على رأسه القلنسوة اليهودية.

- هوية؟

أبرز له راشد بطاقته الجامعية.

قرأها الجندي وقال له: Engineering! OK, now go home.

اصطنع راشد ابتسامة وردّ عليه وركبته تصطكان خوفاً

.You go home too

فوجئ الإسرائيلي بإجابة راشد ولكنه هزّ برأسه مشيراً إليه

بالتقدّم.

تمنّى راشد لو كان صديقه علي معه، لكان سرّاً من إجابته وتصديقه

للإسرائيلي بهذا الشكل، ولكن علي كان قد اعتذر عن المجيء معه لأن

لديه اجتماعاً هاماً في حسينية المصيطبة.

واصل راشد صعوده باتجاه مركز "المرابطون" الرئيسي في منطقة أبو شاكرا، فشاهد ركاباً وسيارتي جيب محروقتين ومصفحة قديمة منسوفة، وعلى امتداد الطريق حتى بوابة ملعب بيروت البلدي الذي اتخذته "أوجيه لبنان" مرآباً لآلياتها كانت آثار القدم الهمجية بادية على أرزاق الناس وأملاكهم.

أعلنت إذاعة "صوت الأمل" التابعة لجيش سعد حداد أن قوات كتائبية دخلت المخيمات الفلسطينية في ضاحية بيروت وعملت على تطهيرها من المخربين الفلسطينيين. فما كان من إذاعة "صوت لبنان" الكتائبية إلا أن ردت عليها متّهمة قوات سعد حداد بأنها هي التي دخلت المخيمات وأمعنت قتلاً وتمثيلاً بالفلسطينيين وأن جنّتهم لا زالت مطروحة في أزقة المخيمات. إثر ذلك اجتمع رفائيل إيتان بفادي أفرام وطلب منه الاعتراف عبر الإعلام بمسؤولية قواته عن المجزرة، ولكن الأخير رفض تحميل حزب الكتائب هذه المسؤولية.

دخلت حافلة تحمل فريق "أوجيه لبنان" إلى مخيم شاتيلا من مدخله الرئيسي بعد أن تحقق حاجز الجيش اللبناني من أوراق ركابها الثبوتية بدقة متناهية. أوقفوا الحافلة إلى جانب الطريق ودخلوا أول زقاق إلى يمينهم. كانت الأرض موحلة وتغطيها ظروف الرصاص الفارغة، بينما انتشرت تلال صغيرة من ركام البيوت المحطمة على جانبي الطريق. ما أن ساروا قليلاً حتى بدأت أسراب الذباب تحوم حولهم، فقرّروا وضع الكمامات فوق أنوفهم وأفواههم لتجنّبها، ولكن رغم ذلك فإن رائحة كريهة تسلّلت إلى أنوفهم من ناحية الجدار القريب حيث بدت لهم أشكال جثث منشرة إلى جانبه. عند اقترابهم منه بدت أمامهم الكارثة. جثث في جميع الأوضاع، جثث منحنية وراكعة ومنبطحة على ظهرها أو بطنها والأقدام متّجهة صعوداً ونزولاً والرؤوس متكّسة ومحشورة ومنتفخة. أما الأجساد فتلوتت

بالقرمزي والكحلي وما بينهما من ألوان اللحم المتورّم والمنشطر والمبقور، وقد جفّت عليها الدماء المنسكبة، بينما سالت الدماء في أماكن أخرى على الأرض مشكّلة بركاً صغيرة من الدماء الجافة التي تحولت بؤراً للذباب الأخضر والأزرق والأسود، الذي يطير كلما مرّ شخص بقربه ليدخل في العيون والآذان والأفواه. عجوز منبسط على بطنه بثيابه الداخلية وقد انشطرت جمجمته من الخلف بفعل ساطور أو سكين غليظة فتحجّرت الدماء عليها وقد اصطبغ شعره الأبيض بلون الوحل وتغلغل الذباب فيها، بينما سقط على الأرض جزء من دماغه الذي تحولّ لونه إلى الأسود. أما ظهره وبطنه وأطرافه فانتفخت وسيطرت عليها الألوان القرمزية والبنفسجية والسوداء. الألوان نفسها تكرّرت على جثة قريبة لرجل في العقد الثالث من العمر وقد استلقت على ظهرها وظهرت آثار طعنات عديدة في الصدر والبطن والأعضاء التناسلية، بينما انتفخ الجسد داخل الثياب إلى درجة تمدّد معها قماش القميص والسروال وكأنهما على وشك التمزق. أما الرأس فأصبح يشبه بطيخة كبيرة سوداء جحظت عيناها وافتتح فمها برعب واضح وكان صاحبها قتل فجأة بطريقة غادرة.

شعر راشد بضيق في الصدر وانقباض في المعدة وأصابه الغثيان، فاستدار نحو الحائط مسنداً يده عليه ليتقياً، فأحسّ بشيء لزج بين أصابعه. تفحص يده، كانت مصبوغة بالدماء السوداء. لعن الإسرائيليين والكتائبيين بينما كان يتقياً والدموع تنفر من عينيه. مسح يده بقوة بالجزء الجاف من الحائط بينما كان رفاقه يدعون له للبدء بالعمل. ركّزوا مضخات رش المبيدات على ظهورهم واتخذ كل منهم جزءاً محدداً من الزقاق للعمل فيه. ما أن ابتدأوا بعملهم حتى حضر فريق الصليب الأحمر الذي هال أفراده ما رأوا، رغم خبرتهم الطويلة خلال الحرب اللبنانية. أحضر المسعفون معهم أكياساً بلاستيكية خاصة لوضع

الجثث فيها، بينما كانوا يفرغون جيوب الضحايا ويسجلون أسماءهم في قائمة ويضعون أشياءهم الخاصة في أكياس صغيرة، بينما كان فريق "أوجيه لبنان" يرشّ المبيدات والمطهرات والكلس على أطراف الزقاق وجوانبه.

عند الظهيرة أعلنت الإذاعة الإسرائيلية إن مصادر عسكرية موثوقة أفادت أنها أن الكتائبيين دخلوا المخيمات الفلسطينية مساء 16 الجاري وخرجوا منها في 18 الجاري حين أبلغوا جيش الدفاع الإسرائيلي أن معركة ضارية وقعت بينهم وبين المخربين سقط على إثرها ضحايا من الجانبين.

انتقل فريق التطهير إلى زقاق آخر إثر سماع أصوات نحيب تتبعته منه. كانت امرأة قد افترشت الأرض تتوح فوق جثة صبية قد فصل رأسها عن جسدها وجفت الدماء التي تشبّع بها شعرها الطويل المنثور حول رأسها. كانت المرأة تصرخ بطريقة هستيرية باللهجة اللبنانية "يا شحّاري، يا شحّاري" وهي تدفع الذباب بعيداً عن رأس الصبية وجسدها تارة، وتهيل الرمال على رأسها طوراً، كاشفة عن صدرها ولاعنةً الكتائب والإسرائيليين. أحسّ راشد بغصّة في حلقه وشكر ربّه أن رنا استشهدت بطريقة أكثر حضارية.

احتراماً لحزن المرأة وحالتها انتقل الفريق إلى زقاق آخر.

طلب راشد من حسن البواب مسؤول مجموعة التطهير الإذن للانصراف لزيارة صديقه جمال، للتأكد من سلامته وعائلة عمه. تنقّل راشد بين الجثث وعبر الأشلاء خائضاً بدماء الضحايا ووحول المخيم بخطوات سريعة هرباً من المشاهد المرعبة والروائح المقززة إلى أن وصل إلى دار عم جمال. طرق الباب ونادى على جمال وعلى أولاد عمه ولكن ما من مجيب. خرج الحاج "أبو شاهين" صاحب الدكان المجاور وأخبره أن الجماعة هربوا مساء الجمعة

الماضي ولم يعودوا حتى الآن، في حين دخل هو إلى مكانه في نفس الوقت وأغلق الباب على نفسه ولم يفتحه حتى صباح هذا اليوم وإلا كان أصبح "كفتة" على حدّ قوله. عندما عاد راشد إلى مجموعة التطهير، أخبره المسؤول بأن عمليات التطهير والتي شاركت فيها إلى جانبهم عدة جمعيات أهلية ورسمية قد انتهت، لذلك سيشرعون في الغد برفع الركام والردم من المخيمات.

بناءً على أمر من الياس عطا الله المسؤول الميداني في الحزب الشيوعي اللبناني لتنفيذ عملية عسكرية ضد تجمع إسرائيلي في محيط صيدلية بسترس في منطقة الصنائع، انتقل مازن إلى منزل رفيقه عمّار جرادي وأبلغه أمر العملية. استخرجا أسلحتهما المدفونة تحت الأرض ونظّفاها وحملها إلى منزل رفيقهما الثالث فهد مدلج في الدور العاشر من مبنى البرج الأبيض في منطقة الطريف، حيث وضعاه في أجواء العملية التي انفقوا أن لا تتعدّى الهجوم بالقنابل اليدوية. بعد الاتفاق على خطة الهجوم، نزل الرفاق الثلاثة إلى الدور الثاني في نفس المبنى ليبلغوا رفيقتهم بلسم بالهجوم المزمع تنفيذه، على أن تأتي معهم لتخفي القنابل في حقيبة يدها كي لا تكشفهم حواجز التفتيش الإسرائيلية. عند الغروب نزلوا من السيارة غير بعيد عن الصيدلية، فأعطتهم بلسم القنبلتين وانصرفت سيراً على الأقدام، بينما انفصل مدلج عنهما ليقف بعيداً مراقباً حصيلة الهجوم، في حين تقدّم مازن وعمّار من جهتين متقابلتين نحو الهدف. رمى مازن قنبلته نحو العسكريين الجالسين على الأرض فانفجرت محدثة إصابات عديدة وهرج ومرج وما أن رفع رفاقهم أسلحتهم للمجابهة حتى رمى عمّار قنبلته وقضى على من تبقي منهم، وهرب المقاومان في طريقتين مختلفين، في حين ظلّ مدلج يراقب حصيلة العملية، فأحصى ثمان إصابات نقلتها سيارات الإسعاف.

128

تقزّزٌ حتى الأعماق وكأبة قاتلة رفرفاً كغرابين أسودين فوق رؤوس أهل بيروت. فمجزرة المخيمات مثلت قمة جنون النفوس المريضة في الحروب. كما كشف انحراف تنفيذها هشاشة النسيج اللبناني وعدم تجانس خيوطه مع بعضها البعض، إضافة إلى ضعف بعضها وعدم صلاحيته، حتى أن طريقة حياكة هذا النسيج أصبحت موضع شك حيث ظهر الاهتراء والتمزق في عدة أجزاء منه، متجلياً في بيروت الغربية في أبسط مظاهره، سخطاً ويأساً بسبب الدعوة إلى نهار واحد للحداد على أكثر من ألفي ضحية في المخيمات، بينما سبق ودعي لأسبوع كامل من الحداد على بشير الجميل. رغم كل هذا، فإن السياسيين اللبنانيين قرّروا العَضَّ على الجراح وتجاوز جميع الاعتبارات ضناً بالوحدة الوطنية، فتوافقوا على انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية. غير أن المقاومة الوطنية اللبنانية قررت التصعيد ضد العدو، فبعد عملية "صيدلية بسترس" انصرف مدلج من مجموعة الحزب الشيوعي لمراقبة نقطة تجمّع القوات الإسرائيلية على تقاطع "محطة أيوب" ومحيطها استعداداً لعملية ثانية.

كان تعليق وزير الداخلية الإسرائيلي "يوسف بورغ" على المجزرة "أن المسيحيين قد قتلوا المسلمين، فأين هي مسؤولية اليهود؟"

غضب الروائي الإسرائيلي اليساري أزار سميلانسكي من هذا التصريح وعلّق عليه قائلاً: أفلت شارون الأسود الجائعة فافترتست المدنيين، لذلك فإن الأسود هي المذنبة لأنها افترتست الناس. أما الذي أطلقها فلا ذنب له حسب وزير داخليتنا.

أما "شمعون بيريز" زعيم المعارضة الإسرائيلية فكان أكثر وضوحاً إذ قال: على رئيس الوزراء بيغن ووزير دفاعه شارون أن يستقيلوا.

ردُّ الشارع العربي على المجزرة كان عارماً إذ سارت المظاهرات الحاشدة في العواصم والمدن العربية احتجاجاً واستتكاراً مُدِينَةً صمت الأنظمة العربية، فسارعت مصر إلى سحب سفيرها من إسرائيل.

أقرّ مجلس الوزراء اللبناني الطلب إلى فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة إعادة تشكيل "القوة المتعددة الجنسية" وإرسالها إلى لبنان لتحل مكان القوات الإسرائيلية. وبناءً على الضغط الأميركي قَلَّصت القوات الإسرائيلية من تواجدها في كورنيش المزرعة وساحة أبو شاعر وانسحبت من مركز قيادة "المرابطون"، ليحلّ الجيش اللبناني مكانها والذي أُستقبل بالترحاب من المواطنين. ولكن ومع انتشار الجيش اعتقد البعض بأن أعرار الجيش الذين يلبسون زيّاً مختلفاً عن الجيش النظامي هم من عناصر جيش سعد حداد، فانتشرت إشاعة عن هجوم جديد على المخيمات وأن مجزرة جديدة ستحصل. مما أثار حالة من الذعر والرعب بين الناس جعلتهم يهربون من بيوتهم ومناطقهم قاصدين منطقتي الحمراء ورأس بيروت.

من جهتها واصلت القوات الإسرائيلية تمشيط شوارع بيروت الغربية وأحيائها الداخلية وقامت بعمليات اعتقال عديدة بإرشاد من جواسيس محليين ملثمين مرافقين، فتَمَّ تجميع المعتقلين الذين تجاوز عددهم الألف شاب في المدينة الرياضية تحت شمس محرقة. كما داهم الغزاة مكاتب تنظيمات الحركة الوطنية المختلفة وصادروا مخازن أسلحتها وذخائرها وكلفوا سكان الأبنية التي صادروا الأسلحة من مستودعاتها حملها ونقلها إلى شاحناتهم الكبيرة.

استعار مازن عبود سيارة رفيقه حسام مدعيّاً أنه يريد أن يأخذ الرفيقة بلسم في نزهة إلى النهر. ولكنه وضع في صندوقها الخلفي قاذفي ب 7 جاهزين للاستعمال وانطلقا نحو تقاطع "محطة أيوب" حيث تتمركز العديد من الدبابات وناقلات الجند الإسرائيلية إضافة إلى أعداد كبيرة من الجنود. أوقف مازن السيارة قرب دكان لبيع الخضار لا تبعد

أكثر من أربعين متراً عن نقطة التجمع الإسرائيلية ونزلاً منها ليشتريا لوازم تحضير "التبولة" وقد تركا محرك السيارة يعمل.

بينما كانا يملآن البقدونس والنعناع والبصل والطماطم في الأكياس، شاهدنا سيارة جيب تويوتا مصادرة عليها صورة ياسر عرفات وتحمل مدفعاً من عيار 106 ملم تصل إلى نقطة التجمع الإسرائيلية وقد أحاط بها الجنود يتفحصونها. حمل مازن وبلسم أكياسهما ووضعاهما في صندوق السيارة واستلاً قاذفي الب 7 وأطلقاهما مباشرة نحو التجمع الإسرائيلي بدون أي تردد، ثم قفزا داخل السيارة وأقلعا نحو حي زقاق البلاط. كان الياس عطا الله يقف في صالون حلاقة خليل الطفيلي يرصد تنفيذ العملية ونتائجها حيث أحصى سقوط 16 إصابة من العدو قسوا في الانفجار ومن الحريق الذي شبّ في إحدى دباباته.

اكتمل عقد رواد مقهى "أبو عفيف" بوصول علي بعد غياب طويل حاملاً آخر الأخبار.

- إنهم يسحبون الكثير من قواتهم من كورنيش المزرعة.
- لا بد أنهم يحطاطون ضد الهجمات المستمرة عليهم.
- إذا أرادوا منع العمليات ضدهم فما عليهم سوى الرحيل.
- سمعت أن عملية وقعت ضد الإسرائيليين في محيط "محطة أيوب" قبل قليل.

- هناك حسب معلوماتي تحضيرات للعديد من العمليات العسكرية يتم الإعداد لها.

- هل هناك أية أخبار عن جمال؟

- يقول أبوه إنه موجود مع عائلة عمّه في بيت أحد أقربائهم في الفاكاهاني، وهم تركوا بيتهم مساء الجمعة، ولو بقوا هناك لكانوا أصبحوا كلهم في عداد الموتى كما حدث مع جيرانهم.

- إنها جريمة بحق الإنسانية يجب أن لا تمر بسهولة، بل يجب الانتقام من المجرمين.
- إن المجرمين المسؤولين عن هذه المجزرة ليسوا الذين نفذوها فقط، بل الذين سهّلوا دخولهم وعضّوا عنهم النظر.
- كما يجب أن لا ننسى مسؤولية الذين سحبوا "القوة المتعددة الجنسيات" قبل أوانها، مما سهّل حصول المجزرة.
- عند المساء تحرّكت مجموعة مقاتلة من "الحزب القومي الاجتماعي" نزولاً عبر شارع برج أبي حيدر قاصدة مبنى منظمة التحرير الفلسطينية الذي احتلّه الجنود الصهاينة. تسلّل الرفاق الثلاثة عبر كورنيش المزرعة متّخذين من مداخل الأبنية والسيارات المركونة في الخط المواجه لمبنى المنظمة ساتراً لتحركاتهم. في لحظة تساقطت الحِمَم على الدبابات وناقلات الجند وعلا صراخ المصابين بالشظايا والحروق نتيجة للنيران التي التهمت إحدى الدبابات، وفيما كان طاقم الدبابة المصابة يحاول إخلاءها بمساعدة رفاقه انصبّت عليهم نيران رشاشات المقاومين حاصدةً المزيد من القتلى والجرحى منهم.

129

انطلقت مسيرة نسائية صامتة من أمام "المجلس النسائي اللبناني" وقد ارتدت المتظاهرات اللباس الأسود، رافعةً ثلاث لافتات سوداء كتبت عليها باللون الأبيض "قليعش لبنان وطناً حراً موحداً سيداً ديموقراطياً" و"الخزي والعار لمخططي ومنفذي مجزرة المخيمات" و"تطالب بالانسحاب الإسرائيلي الفوري من جميع الأراضي اللبنانية".

اخترقت المسيرة شوارع العاصمة، وعندما مرّت المتظاهرات أمام تجمّع لدبابات المحتل الإسرائيلي رفعت قبضاتها مندّدة، وصولاً إلى

القصر الحكومي حيث سلّمت مذكرة بمطالبها وتطلعاتها إلى المسؤول الأمني لعدم وجود رئيس مجلس الوزراء في مكتبه.

لم تكن مدام ناديا راضية عن هذه المسيرة التي أسمتها "فاشلة" أثناء عودتها إلى البيت برفقة جاريتها ليلي.

- كان الأجدد بنا التظاهر نحو "فندق الكومودور" حيث ينزل الصحافيون الأجانب لإسماع صوتنا ومطالبنا إلى العالم أجمع. أما اليوم، فنكون محظوظات إذا وصلت مذكرتنا إلى رئيس الحكومة.

- كما كان علينا أن نرشق دبابات الجيش الإسرائيلي التي عبرنا قربها بالحجارة بدل رفع قبضاتنا، لتكون رسالتنا لهم أكثر وضوحاً بأننا نريدهم خارج بلادنا.

- الواقع أن أبلغ رسالة لهم تقوم بتوجيهها "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية".

على جسر حوض الولاية كان رتل مؤلف من خمس دبابات إسرائيلية يتقدّم باتجاه سوق الخضار، حيث كمنّت له مجموعتان من "جبهة المقاومة" على جانبي الجسر عند بدايته ونهايته، وما أن عبرت الدبابة الأخيرة نهاية الجسر حتى أطلقت عليها المجموعة الثانية قذيفة أحرقتها فيما أحرقت المجموعة الأولى دبابة الطليعة، فسُدّت السبل أمام الدبابات الثلاث الباقية، حيث انهمرت القذائف عليها محرقة اثنتين منها فيما هوت الثالثة عن الجسر متحطّمة. وصلت طائرة هليكوبتر وجعلت تحوم فوق الجسر ولكن أبطال المقاومة كانوا قد اختفوا.

وكان ملاحقة القوات الإسرائيلية للقوى الوطنية ومصادرتها لأسلحتها لم يكن كافياً، فإن عناصر الجيش اللبناني طوّقت مناطق الطريق الجديدة والفاكهاني والمخيمات وشرعت بالنتيبت من هوية السكان، حيث كان يتمّ استدعاء الشبان والرجال إلى أمام الأبنية التي يسكنوها ليتمّ التدقيق في هوياتهم وبطاقات إقامتهم ثم يتمّ تفنيش منازلهم

بحثاً عن السلاح. إضافة إلى ذلك كانت دوريات مؤلّة للجيش تطوف الشوارع وتقيم حواجز تفتيش طيّارة.

صادر الجيش أسلحة وذخائر من المواطنين ومن تنظيم "المرابطون"، وصادر ثلاث شاحنات من الأسلحة والذخائر من مركز "حركة أمل" في حي فتح الله. كما داهم المكاتب الحزبية الوطنية ومنازل مسؤوليها ومكاتب الجرائد والمجلات الوطنية. عملية "التنظيف" هذه أثارت سخط المواطنين بسبب تطبيقها على المواطنين في غرب بيروت التي تقاوم المحتل الإسرائيلي، بينما أحزاب وتنظيمات المنطقة الشرقية التي رحبت بالإسرائيليين وتعاملت معهم وما زالت دماء ضحايا صبرا وشاتيلا تقطر من أيديهم، وما برحت تحمل سلاحها وتستعرضه، فهل قيادة الجيش ترى بعين واحدة أم أننا دخلنا العصر الإسرائيلي؟ إزاء هذا الموقف أصدر محسن إبراهيم الأمين العام للمجلس السياسي للحركة الوطنية بياناً، جاء في جزء منه:

.....

إن طغيان طابع التفريط الوطني والقمع الانتقامي على ممارسات الجيش في بيروت الغربية خلال الأسبوع الأخير يضعنا اليوم أمام أخطر انحراف سياسي ولدت هذه الحرب. وهل أخطر من التكامل الأمني القائم الآن بين دوري الجيش اللبناني والجيش الإسرائيلي؟

.....

هذه النظرية كان أريئيل شارون يدافع عنها ويحاول إثبات صحتها عندما أكد تعليقاً على مجازر المخيمات ضرورة بقاء الجيش الإسرائيلي في لبنان لفصل اللبنانيين عن بعضهم وذلك لضمان عدم حصول مجازر أخرى بينهم، مؤكداً نظريته بعدم حصول أي مجازر في شرق بيروت.

أما هناك في المخيمات، فإن الوضع كان أكثر مأساوية، إذ لم ينجُ بيت من خسارة قريب أو صديق أو جار عزيز. وجوم على الوجوه ودموع تحجرت في المآقي، ومشاهد حيّة لا زالت تذكر بالجريمة

النكراء. حطام البيوت المجروفة وبقايا الأثاث والنفايات، وبعض الجدران التي ما زالت قائمة تحمل بصمات الفاعلين "طوني مرّ من هنا" و"قوات الدامور" و"التّيوس"، وبعضها الآخر يحمل بصمات دماء الضحايا البريئة تنادي للانتقام لها.

قامت آليات "أوجيه لبنان" والدفاع المدني والمنظمات الأهلية بحفر مقابر جماعية لدفن الجثث التي لم يطالب أحد بها والتي لم تُعرف أسماء أصحابها. بعد ذلك استأنفت عمليات جرف البيوت المحطمة ورفع الردم من أزقة المخيمات.

كان هذا اليوم الأخير لعمل راشد التطوعي في شركة "أوجيه لبنان"، إذ إنه سيذهب في الغد إلى الجامعة لمعرفة المواعيد الجديدة المحددة للتقدم لامتحانات نهاية العام، والتي تمّ تأجيلها في الربيع الماضي بسبب الاجتياح الإسرائيلي، وهو يخطّط لتكريس الأيام المقبلة لمراجعة المقرر الدراسي استعداداً للامتحانات ليضمن تخرّجه.

130

بعد مدهامة القوات الإسرائيلية لمنازل قادة وطنيين ومكاتب حزبية بصحبة خونة محليين مقنّعين، تمّ التعرف إلى أحدهم والذي كان مرافقاً عسكرياً لـ "أبو عمار" في مقره الأمني، وإلى آخر والذي كان معروفاً باسم "أبو الريش" وكان متشرداً يتسكّع في شوارع بيروت لابساً أسماًلاً بالية ويحمل كيساً على ظهره واضعاً فيه حاجياته، ومظاهراً بأنه شحاذ مختل عقلياً، وإذا به عقيدٌ إسرائيليٌّ على رأس القوات الإسرائيلية لدى اقتحامها المراكز الوطنية في رأس بيروت.

أما أشهرهم فكان وليد الجمل الذي كان يحمل رتبة رفيعة في صفوف المقاومة الفلسطينية، وتحول مع دخول المحتلين بيروت الغربية

إلى ضابط مخابرات إسرائيلي يرشد العدو إلى مخابئ المقاومة والحركة الوطنية ومستودعاتها السرية.

بناءً على أوامر قيادة "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية"، انطلقت مجموعة مكونة من ثلاثة أفراد نحو منطقة "عائشة بكار" باحثة عن العميل وليد الجمل لتصفيته. كانت المجموعة مكونة من ثلاثة رفاق مناضلين، اثنين من الحزب القومي الاجتماعي، هما خالد علوان "ميثال" و"كيسنجر"، أما الرفيق الثالث فكان شربل عبود من الحزب الشيوعي. كان خالد يرتدي قميصاً أزرق اللون جعله فوق الحزام ليخفي مسدس "هيرستال" عيار 9 ملم، بينما كان "كيسنجر" يتمنطق بمسدس بكر "سميث ويسن" عيار 36 وشربل بمسدس "شمايزر" عيار 9 ملم. بعد بحث مطول عن وليد الجمل لم يجده وأفيدوا بأنه شوهد في شارع الحمراء. انطلق المقاومون الثلاثة نحو هدفهم مروراً بحديقة الصنائع، فمبنى الإذاعة اللبنانية، فقهى "هورس شو". عند وصولهم إلى تقاطع مخزن "رد شو" لمح خالد ثلاثة عسكريين إسرائيليين يجلسون باسترخاء في مقهى "الويمبي" يحتسون البيرة، فبسط ذراعيه أمام رفيقيه لإيقافهم واستدار بهما جانباً نحو واجهة مخزن "رد شو" مشيراً إلى الأحذية فيها قائلاً: "ما رأيكما بالهدف الذي في مقهى الويمبي؟"

- ممتاز، ولكن علينا وضع خطة.

دخل الرفاق الثلاثة مبنى "البيكاديللي" من جهة محلات "GS" ليقفوا عند مدخل "مسرح البيكاديللي" المواجه لمحلات "الزهار" حيث ركن الإسرائيليون عربتهم الجيب.

- من هنا يمكننا مراقبتهم من دون أن يشعروا بنا.

- حسناً، فلنضع خطة سريعة قبل أن ينتهوا من تناول طعامهم.

كان الجو خانقاً والحرارة مرتفعة فيما راشد يقود دراجته نحو الجامعة الأميركية لمعرفة مواعيد الامتحانات، فقرر أن يتوقف عند

بائع المرطبات في أول شارع البيكاديللي لتناول كوب من عصير البرتقال.

في هذا الوقت دخل خالد علوان إلى مقهى "الويمبي" فيما كان الملازم الإسرائيلي يشير إلى نادل المقهى عباس أن يأتيه بالفاتورة. وقف "كيسنجر" في إحدى الزوايا خارج المقهى فيما وقف شربل عبود في الزاوية المقابلة استعداداً لأي طارئ. إلى جانب الملازم جلس نقيب وجندي إسرائيليون وقد وضع الجميع رشاشاتهم العوزي على أرجلهم وقد انتهوا للتو من تناول الهامبرغر واحتساء البيرة منتظرين قدوم النادل إليهم. عندما لاحظ خالد تأهب الإسرائيليين لاستلام الفاتورة، توجه نحو طاولة مجاورة لهم يجلس إليها شاب وفتاة مدعياً معرفتهما، فحيّاهما مبتسماً وتناول كأس العصير من أمام الشاب ورشف منها لبيدو لقاءه مع الثنائي طبيعياً، ولكنه أحسّ بأن الشاب على وشك أن يفجر امتعاضه من تصرفه، فغمزه مشيحاً بطرف قميصه جانباً ومُظهِراً طرف مسدسه. في هذه الأثناء جلب النادل عباس قنبر الفاتورة للإسرائيليين مديراً ظهره للطاولة التي وقف خالد إلى جانبها. وفيما كان العسكريون يقومون بحساب فاتورتهم وتحويل شيكلاتهم إلى ليرات لبنانية، وضع خالد علوان فوهة مسدسه في عنق النقيب الإسرائيلي مطلقاً رصاصتين وشمّتا عنقه مفجرتين نزيفاً صاعقاً، بينما كان خالد يضع رصاصتين أخريين في عنق الملازم الإسرائيلي المجاور الذي صعقته المفاجأة فسقط وكرسيه أرضاً واضعاً يده المليئة بالشيكلات على عنقه. حاول الجندي الإسرائيلي النهوض عن كرسيه متناولاً رشاشه، فضربه خالد بمسدسه على وجهه وأطلق عليه رصاصة أصابته في كتفه، ولكن آلية المسدس روكبت ولم تخرج رصاصته الثانية. ركض خالد باتجاه شارع الحمراء ورمى مسدسه قرب محلات "دومتكس"، ثم عاد إلى الشارع المقابل واختفى داخل الزقاق خلف مقهى "الويمبي"، وقد انسحب رفاقه كل في طريق.

عندما سمع راشد إطلاق الرصاص، امتطى دراجته وانطلق نحو مصدره المجاور في مقهى "الويمبي"، فشهد الجندي الإسرائيلي يضع جثة النقيب الإسرائيلي على المقعد الخلفي لعربة الجيب بمساعدة شرطي السير اللبناني، بينما كان الملازم الإسرائيلي مكوّمًا على المقعد الأمامي واضعاً رأسه بين فخذيّه، ويداه على عنقه يصرخ من الألم. مع انطلاق الجندي الإسرائيلي بعربة الجيب عبر شارع عبد العزيز باتجاه المستشفى، وصلت دورية إسرائيلية إلى المقهى حيث قفز الجنود من ألياتهم مصوّبين أسلحتهم إلى وجوه المواطنين بينما كان الضابط الإسرائيلي يسأل شرطي السير اللبناني بالعربية عما حدث، فأجابته بأن شاباً يلبس قميصاً أزرق اللون أطلق النار على الإسرائيليين في المقهى. حذج راشد شرطي السير اللبناني بنظرة قاسية وتوجّه إلى الضابط الإسرائيلي قائلاً: عفواً، ولكن الشرطي أخطأ في الشخص الذي أطلق الرصاص، إذ إنني رأيته يلبس قميصاً أخضر اللون. وهنا خطأ الشرطي إلى الأمام وقال: ربما أكون قد أخطأت، فلقد تفاجأت بما جرى فقد كان هناك تدافع وهرج ومرج. نعم، لقد رأيت شاباً يلبس قميصاً أخضر اللون يهرب بذلك الاتجاه. بناءً على الشهادتين، أمر الضابط جنوده بتوقيف كل الأشخاص الذين يرتدون قمصاناً خضراء اللون في محيط المقهى.

131

كعادته كان "رويتز" يبلغ جمالاً آخر الأخبار المستجدة التي يتابعها عبر جميع الإذاعات العربية والعالمية. أهم أخبار "رويتز" اليوم كانت وصول القوات الفرنسية والإيطالية إلى مرفأ بيروت وإعلان الإسرائيليين بأنهم سيغادرون بيروت غداً.

- يظهر أن الإسرائيليين يستعدون للرحيل، إذ إنهم يخفّون من حجم انتشارهم في الأحياء الداخلية.
- آن لهم أن يستجيبوا للضغوط الدولية والمحلية لينسحبوا من بيروت.
- وكان لا يفهم أربعمئة ألف متظاهر إسرائيلي احتجاجاً على تسهيلهم حصول مجزرة المخيمات!
- أضف إلى أن حكومتهم قرّرت تأليف لجنة للتحقيق في ظروف حصول المجزرة.
- على كل حال ما أن ستطأ قدم أول جندي من القوات المتعددة الجنسية أرض مرفأ بيروت حتى تبدأ آلياتهم بالتحرك إلى خارج المدينة.
- الحمد لله، سيحلّ علينا عيد الأضحى في الوقت الذي ستسحب فيه القوات الإسرائيلية.
- وأي عيد سيحلّ علينا! آلاف القتلى والجرحى والمهجرين...
- لقد كتب علينا العذاب، كان من المفترض أن تكون حفلة زفافي أول أيام العيد، ولكن نظراً للوضع المأساوي سنؤجّل كل شيء.
- من مدخل عمارة وهبه قرع علي حرب جرس الأنترفون في منزل راشد وهبه، طالباً منه أن يلاقيه في مقهى "أبو عفيف". حاول راشد أن يقنعه بالصعود إليه، ولكنه أصرّ على اللقاء في المقهى حيث انفرد على إحدى الطاولات بانتظار راشد.
- تفضّل شاركننا القهوة. نادي "رويتز" على علي.
- أنا بانتظار قدوم راشد، هناك موضوع خاص بيني وبينه.
- هل ما زلتما تعملان مع شركة "أوجيه لبنان"؟ سأله جمال.
- لقد توقّفنا، إذ إنني منشغل بالمطبعة وراشد على وشك دخول الجامعة.
- ها هو راشد قد وصل.

حيًا راشد الشبان وجلس إلى طاولة علي.

- خير إن شاء الله؟

- سأدخل في الموضوع مباشرة، هل ما زلت تحتفظ بإذن المرور

الإسرائيلي الذي أعطاكم إياه الضابط الإسرائيلي؟

- أعتقد ذلك، يجب أن أبحث عنه... ولكن لماذا؟

- إنه موضوع سرّي جداً، ولكني أعرف كم أنت كتوم. هناك

اتفاق بين حركة أمل الإسلامية وقوات الفجر على تنفيذ عمليات عسكرية ضد الإسرائيليين.

- ولكنهم سيخلون بيروت غداً.

- سنفاتلم خارج بيروت حتى الحدود، حتى ينسحبوا خارج

الحدود اللبنانية.

- ولكن ما فائدة إذن المرور لكم؟

- سأقوم بتزييفه في المطبعة، ثم سأسحب عدة نسخ منه ليستعملها

الإخوة المناضلون في المرور عبر الحواجز الإسرائيلية مع أسلحتهم وعبواتهم بدون إشكالات.

إلى تقاطع نهاية كورنيش المزرعة مع الشارع الممتد من المختبر

المركزي إلى السفارة المصرية حيث أنشأ الإسرائيليون تجمّعاً لآلياتهم،

تسلّل أربعة مقاومين مسلحين بقاذفي آر بي جي، ورشاشات

كلاشينكوف قادمين من "زاروب الفيومي"، حيث تقدّم المناضلين محمود

و"أبو ربيع" وأطلقا قذيفتيهما معاً فيما أسندهما رفيقاهما من الخلف بوابل

من رشاشيهما مؤمّنين لهما الانسحاب، فاشتعلت ناقلة جند من طراز

M113، بينما كانت القنابل الإسرائيلية المضيئة تحيل ليل بيروت إلى

نهار فيما كان صليل رشاشاتها الثقيلة يزرع المنطقة موتاً عشوائياً.

هذه الهجمات تكرّرت ضد المواقع الإسرائيلية في عدة نقاط من

العاصمة أثناء النهار. ففي محيط سينما كونكورد أطلقت قذيفة إنيرغا

على آلية إسرائيلية. وفي منطقة الرملة البيضاء مرّت ناقلة جند فوق لغم انفجر فيها فأصيب ثلاثة جنود بجراح. كما أصيب جندي إسرائيلي برصاص قنّاص في منطقة عائشة بكار. لاحقاً عثرت القوات الإسرائيلية على جثث ثلاث جنود مفقودين منذ الأمس في منطقة برج أبي حيدر، وتّضح أن الجنود قُتلوا بقذيفة صاروخية حولتهم إلى أشلاء، ولولا وجود القلادات المعدنية حول أعناقهم لما كان من الممكن التعرف إليهم.

132

بعد تأدية صلاة عيد الأضحى في المسجد، جلس كمال وهبه وزوجته وأولادهما راشد وخلود ومايا يشربون القهوة على شرفة المنزل.

"أبو راشد" يقرأ في جريدة السفير أن الشركات تطلب من موظفيها استئناف أعمالهم، والإدارات الحكومية تدعو منتسبيها للالتحاق بوظائفهم، والمدارس والجامعات تدعو طلابها للعودة إلى مقاعد الدراسة.

- هل لاحظت اليافطة المنصوبة قرب المسجد؟ سأل كمال وهبه ابنه راشد.

- لا، لقد لفتتني الأعلام السوداء المرفوعة حداداً على ضحايا المجزرة.

- صحيح، ولكن كانت هناك يافطة مميزة كتب عليها:

عَيْدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدَّتْ يَا عَيْدُ؟
خَطْفٌ... احْتِلَالٌ... مَذَابِحٌ... تَشْرِيدٌ

- ولكن يظهر أن شباب المقاومة لم يكونوا يندبون حظهم ليل أمس، بل قدّموا واجب المعايمة للإسرائيليين بطريقة مميزة، وذلك عبر القذائف والاشتباكات التي سمعناها ليلاً.

- لذلك أعجبني الشيخ في خطبة العيد عندما قال: لولا التضحية بالسنفوس لما أتى عيد الأضحى اليوم، لا بل عيد الجلاء. لقد استقبلتهم بيروت بالقتال، وودّعتهم بالقتال - لقد أتلج قلبي نداء الإسرائيليين بالأمس وهم يعبرون قرب بيتي مغادرين وهم ينادون عبر مكبرات الصوت: "يا سكان بيروت، لا تطلقوا النار، إننا نغادر مدينتكم".

نظر راشد إلى كنار رنا الذي بدأ يغرّد وقال:

- ولكني أؤكد لك أن المقاومة ستلحق بهم أبعد من بيروت بل حتى الحدود.

بهروت 1982

رواية مشهبة حقيقية

عسان شبارو

• كاتب من لبنان

0 -

لم يكن رد المقاومة هذا اليوم بمستواه العادي، ربما بسبب انخفاض مخزون الذخائر أو بسبب تغلغل اليأس إلى نفوس المقاتلين. لذلك كانت الطائرات الحربية الإسرائيلية تطير على ارتفاعات منخفضة جداً، إلى درجة أنه كان يمكن مشاهدة رأس الطيار من قمرة وكذلك النجمة السادسة عليها مما جعل الطيارين يتجرأون على استخدام رشاشاتهم الثقيلة من عيار 800 ملم في إرهاب السكان المدنيين في سياراتهم في منطقة الروشة.

في ملجأ بناية وهبه تكتلت الأجسام على بعضها البعض، وفاحت رائحة الأجساد التي لم تعرف طعم الماء منذ مدة طويلة، وارتفع بكاء الأطفال ممزوجاً بصوت انفجار القذائف المثير للأعصاب. رغم ذلك استكان اللاجئون للواقع وسلّموا أمرهم لله، بعد أن أصبحوا لاجئين في وطنهم.

ولكن مع اشتداد القصف وارتفاع وتيرته واستمرار الطائرات الحربية في رقصة الموت فوق ضحاياها، بدأت عيونهم تتفتح وألسنتهم تنطلق تعبيراً عن غضبهم ويأسهم من الأوضاع التي وصلوا إليها.

ISBN 978-9953-87-037-3



9 789953 870373

مكتبة مدبولي

Madbouly Bookshop

6 ميدان طلعت حرب - القاهرة

هاتف: 5756421 - فاكس: 5752854

البريد الإلكتروني: info@madboulybooks.com



الدار العربية للعلوم - ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات. كوم



جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت